

مجلة مجمع اللغة العربية

الجزء الحادي والأربعون
جمادى الأولى ١٣٩٨هـ
مايــو ١٩٧٨م

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين فى السنة)

الجزء الحادى والأربعون

جمادى الأولى ١٣٩٨ هـ - مايو ١٩٧٨ م

المشرف على المجلة:

د. إبراهيم أنيس

رئيس التحرير:

إبراهيم الترزى

الفهرس



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

للدكتور مهدى علام

فى هذا الجزء من المجلة ثروة علمية يندر أن يضمها مجلد واحد . فإنها تجمع بين تشعبها ووحدتهافى نطاق إطار واحد . ذلك أن البحوث التى يضمها هذا الجزء من مجلة مجمع اللغة العربية كانت ثمرة تخطيط لتكون موضع البحث والدراسة فى مؤتمر الدورة الرابعة والأربعين للمجمع . وقد نجح ذلك المؤتمر نجاحا نسجله هنا فى هذه البحوث ، كما سجلناه فى مجموعة المناقشات التى دارت حولها .

لقد كان الموضوع الرئيسى فى ذلك المؤتمر هو « العلاقة بين الفصحى والعامية » وقد جاءت البحوث فى هذا الموضوع من أساتذة متخصصين ، ومن عدد كبير من البلاد العربية التى لكل منها عامية خاصة .

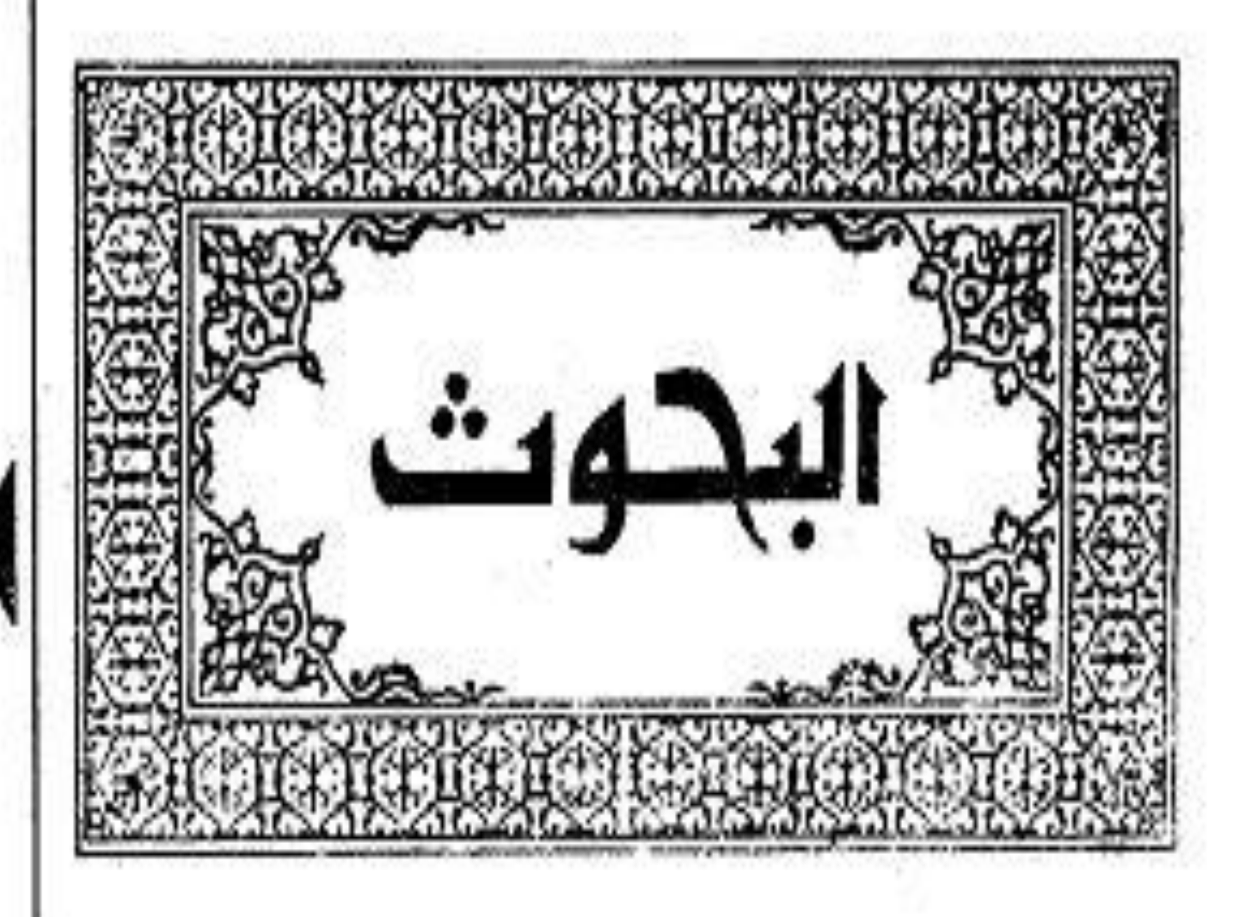
واشتملت البحوث ، إلى جانب هذا الموضوع الرئيسى ، على عدد من البحوث الأخرى التى يتوفر عليها أصحابها الذين وهبوا حياتهم لها.

وسيرى القارئ أن عشر بلاد اشتركت فى هذه البحوث بمندوبيها فى المؤتمر . فإلى جانب مصر الداعية للمؤتمر ، كان هناك الممثلون للأردن ، وألمانيا ، وتونس ، والجزائر ، وسورية ، والعراق ، وفلسطين والكويت ، والمغرب .

وبذلك برهن المجمع ، فى مؤتمره هنا ، كما برهن دائما ، فى كل مؤتمراته ونشاطه ، على أن لغة القرآن الكريم هى الرباط الوثيق بين الناطقين بها ، وأنها أحد المقومات الصادقة الأصيلة للعروبة .

مهدى علام

الأمين العام للمجمع والمشرف على المجلة


البحوث

من قصة العامية في الشام

للأستاذ سعيد الأفغاني

يعتري بعض الكلمات ما يعتري حياة الأحياء : ميلاد ثم ترعرع فتقلبات في أطوار بعد أطوار ، ثم تفاوت أحيانا فممات ، وهو ما يعبر عنه بـ(حياة الألفاظ) ، وما أرى أن كلمة (حياة) وافية ، لأن الحياة تقتضي مماتا ، وقلما ماتت الكلمات على مدى الأزمان ، إنما تهمل فتنسى فترقد في المعجمات أو الكتب ثم يعد من الحاجة ما يبعثها من مرقدها ، وأوفق من كلمة (حياة) عندي أن نقول (تاريخ الألفاظ) ، فلكثير من الكلم سجل حافل لا يبدو للعيان ، ويحظى المتتبع بصبر ودأب على اكتشاف أكثره .

وما استمتع باحث لغوي استمتاعه ببحث وفق صاحبه إلى بعث ما خطت الأزمان في هذا السجل من تحولات .

قصدت هنا لأقول إنه ما صح في الكلمات يصح في اللهجات المحليات ألفاظا وأصواتا وحركات ، وإذا رجع أحدنا بذاكرته إلى عهد صباه يعرض لهجات الباعة حينئذ : من جزار وبقال وخضار وبزاز وخياط ونجار وحداد من مستقر في دكانه وجوال ، ويقابلها بلهجات أمثالهم لعجب كيف تقلبت هذه اللهجات في السنين القلائل على ألسنة الصغار والكبار » .

أذكر أني منذ ثلاثين عاما كنت في زيارة الأستاذ الفقيد محب الدين الخطيب في مكتبة السلفية المعروفة ، وكان الطارق الشام[1] سنة ١٩٢٠ حكموا عليه غيابيا بالإعدام من المجلس الحربي الفرنسي لإسهامه في حرب ميسلون ، ثم استوطن مصر وأنشأ مجلة الزهراء الشهرية ، ومجلة الفتح الأسبوعية — زرناه فطفق يحدثنا عن بعض تاريخ القضية العربية (وقد ذهب معه كثير من تاريخها الصحيح) ثم جره الحديث إلى ذكرياته في دمشق وإلى قصة جرت قديما وهو صبي ، فجرى على لسانه تعبير

(*) انظر التعليقات على البحث في محاضر جلسات مؤتمر الدورة الرابعة والأربعين (جلسة الثلاثاء ٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨هـ — ١٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨م)

(١) الشام عند العرب يشمل الأجزاء الآتية (طبقا للتقسيمات الإدارية اليوم تقسيمات سايكس بيكو) : لواء اسكندرونة ، وسورية ، ولبنان ، والأردن ، وفلسطين ، أي من جبال طوروس شمالا إلى سيناء والبحر الأحمر جنوبا ، ومن العراق شرقا إلى البحر المتوسط غربا .

لم أفهمه، وكان عنده ابن أخته الكاتب الأديب المعروف الأستاذ على الطنطاوى، فسألته بعد خروجنا: (هل سمعت هذا التعبير؟ وما معناه؟) فقال: (لقد سبقتنى، أنا نويت أن أسألك). وحاولنا التذكر فأخفقنا ثم قلنا: هو ممامات من العامية الشامية لا يعرفه إلا المعمَّرون. واليوم نسيت أنا هذا التعبير ولما يمض عليه الثلاثون من الأعوام.

• • •

نشر التعليم فى الشام وغيره أول هذا العصر تكفل بأمرين: أولهما الارتفاع بتلك اللهجات فى هذه السنوات الستين، وثانيهما تقريبها من الفصحى المألوفة، حتى صار البون شاسعا بين العامية القديمة والعامية الحديثة، وبان على هذه أثر الثقاف والتطويع، وحلت الفصاح على ألسنة العوام محل الكلمات العاميات بالمئات، فإذا حدثك اليوم جزار أمى حديثا ما، أمكنك بشىء من اللمس الخفيف من إعراب وتبديل بعض كلمات أن تنشره فى جريدة أو مجلة، وكنت قبل ستين عاما تترجم مثله إلى لغة الكتابة ترجمة.

هذا عمل الزمن من حيث لا نشعر، ولكن ماذا عن الفئة الواعية الرائدة من الجيل الماضى الذى فتح عينيه على عصر جهل وظلام؟

إن بحثا جرى بتحرٍّ وأناة أرشد إلى أنهم كانوا والنهضة فى كل ميدان على قدر، لقد أوتوا من العزائم ما ألحقهم بأصحاب الرسالات فى أممهم، ولم يكن يرضيهم فى ميدان اللغة إلا أن تعم الفصحى الأصيلة المدارس والدور والأسواق، أو كما يعبر بعض إخواننا فى مصر: كانوا «حماميز فتح الله» فى الشام والآستانة معا، ألفوا الجمعيات وأقاموا النوادى ونشروا غرف القراءة فى الأحياء مطلع هذا القرن، وحرموا فى مجالسهم الكلام بغير الفصحى، بل إن أحدهم وهو الأستاذ محب الدين الخطيب أراد للفصحى أن تحتل مقاهى الآستانة التى يرتادها العرب، فحث رفاقه الشبان على هجر المصطلحات التركية والفارسية حين يلعبون النرد، وأن يقولوا مثلا: (ستة خمسة) بدل (شيش بيش)، فاستجابوا له وصاروا ملفت الأنظار والأسماع فى المقهى، بل إن بعضهم يأتيه السائل فى مقهى بدمشق يستجديه فيعلمه ما يقابل جملته بالفصحى، فإن أداها سليمة أعطاه، فصار المستجدُون يلقن بعضهم بعضا ماذا يقول لهؤلاء الأفندية حتى يحظى، (المتليك)(١)

حمل جو الشام طابع هؤلاء الرواد المتحمسين، وما أزال أذكر كيف كنا — ونحن أطفال — فى مدرسة أولية خاصة لا نتكلم فى الفسح بين الدروس إلا بالفصحى التى نستطيعها، وأشد ما نحاذر أحدنا أن تنتهى

(١) انظر كتاب (من حاضر اللغة العربية) ص ٣٧ (الطبعة الثانية ١٩٧١م).
المتليك نقد تركى معدنى يعادل قرشين ونصف قرش.

الفسحة وخشبة الرصد (السينال) فى حوزته فيسجل عليه الرقيب حينئذ درجة فى سوء السلوك . وكان إشفاقنا بالغا على الأطفال الذين تقلهم أولياؤهم من مدارس الحكومة البعيدة إلى مدرستنا الخاصة هذه ، وذلك فى سنة ١٩١٨ م آخر العهد العثمانى فى الشام. إنهم فى أيامهم الأولى كثيرا ما تسبقهم ألسنتهم حين يُنَادَوْن فى التفقد الصباحى فيجيبون بكلمة(أفندم)المألوفة فى المدارس الرسمية، فيخرجون إلى وسط الباحة يتلقون على أكفهم المبسوطة الضربات المقررة من عصا الرقيب إذ كلمة الجواب الواجبة فى مدرستنا هى (لبيك) .

وما ننسى لا ننسى التمثيليات التى تعدها المدرسة للاحتفالات السنوية يدعى إليها أولياء الطلاب وفريق من الوجهاء وهى فى جملتها تاريخية أو اجتماعية ، وفيها دور قصير يؤدى بالعامية البلدية ، هو مجلبة الترفيه والضحك من النظارة ولا سيما الأميين منهم لنشازه البارز .

حتى الصحافة ، غالى بعض أولئك الرعيل فأراد للغتها أن تكون مسجوعةً من النمط العالى فى رأيه يومئذ ، فهذه جريدة (لسان الحال) الصادرة فى بيروت ، من ساحل الشام سنة ١٨٧٧م ،التزمت فى افتتاحيتها الفصحى المسجعة ، بدأها صاحبها خليل سركيس بقوله : « الحمد لله الذى يسبح بحمده فى الغدو والآصال ، وينطق مفصحا بتعداد آلائه (لسان الحال) ... حمداً يدوم آناء الليل وأطراف النهار ، ما غرد قمرى وترنم هزار... » (١)

وأعجب مما تقدم محاولة قام بها المرحوم أمين آل ناصر الدين لإصدار جريدته كلها نظماً ، وقد جاءت الأخبار فيهامنظومة نظما فيه رشاقة وإصابة محزّ ،وخفة روح أحيانا: اجتاحت عاصفة ناحية (جزّين) وسببت خسائر قدرت بمليون قرش فقالت الجريدة تصف حوادث العاصفة :

عصفت بجزين العواصف حيث ما
تلعت بها الأشجار من جوف الثرى

ولقد غدا شجر الصنوبر مالئا
تلك الربوع ، وبالألوف تقدرا

والجوز والزيتون خرّ كذا الأجـ
ـرُ عن المنازل طُيِّرا

أما الخسائر فهى بالغة بها
مليون قرش ، إن ذا قدر جرى

وديار (تيا) لم يعد لسقوفها
أثر وقد أوت الوحوش إلى القرى

---

(١) مجلة المجتمع الدمشقية الصادرة فى (٦ - ٢ - ١٩٦٢) ، العدد (٥٤٢)تحقيق الأديب باق .

والثلج قد غطى الديار جميعها
وانسدت الطرقات حتى لا ترى
وقضى مكار فى الطريق لعظم ما
قاسى ، وآخر فى الثلوج تعفرا

وزاوت مدرعة ميناء بيروت فوردت ها هكذا :

أرست بميناء بيروت مدرعة
لها لواء على (توفنل) معقود
ومذ رست أطلقت حالا مدافعها
تحية ، إن هذا الأمر معهود
وقلعة الثغر قد ردت تحيتها
إن السلام لمن أداه مردود [1]

وكلنا يذكر انتفاضات شعب (البوير) على الاستعمار البريطانى فى جنوب أفريقيا ، والحرب التى شنها فى الترنسفال فكانت الخاتمة الحزينة لعهد الملكةفيكتوريا،إذ كانت عواطف الجماهير مع شعب (البوير) . وتموت الملكة فيكتوريا سنة ١٩٠١ ويؤبنها رئيس مجلس النواب النمسوى بكلمة مجاملة مثنيا عليها ، فيثور المعارضون فى المجلس وتقوم الضجة ، وهذا نص الخبر فى الجريدة:

جرى فى مجلس النواب شىء
يدل على التعصب فى الأمور
فإن رئيسه أسدى مديحاً
إلى فيكتوريا ذات السرير
ترحم فى مقالته عليها
وأتبع ذاك بالأسف الكثير
فحزب (الراذكال) استاء منه
وأصبح منه فى غيظ كبير
فصاحوا كلهم غيظا وحقدا
ليحيى مظفرا شعب (البوير) [2]

نشرت الافتتاحية المسجعة سنة ١٨٧٧ م قبل مائة عام كاملة ، وكانت الأخبار المنظومة شعراً سنة ١٩٠٩ م أى قبل ثمانين عاماً ، فى عنفوان عهد التتريك الذى مارسه حزب الاتحاد والترقى بعد خلع السلطان عبد الحميد ، وأظن هذا كافيا فى الدلالة على روح الشام الأصيلة فى تشرب الفصحى وجريان حبها فى أهله مجرى الدم من العروق ، وعلى أن كل نزعة مخالفة هى نزعة مزورة أجنبية ، وستبقى مهما يطل الزمن بها ومهما يطل إلف محترفيها لها ، أجنبية عن الشام وسائر الأقطار العربية [3]

* * *

هذا قبل مئة عام ، واستمرت الجهود فى بعث الفصحى تترى ، ومن كثرة ماكنا نسمع فى صبانا من تنفير من العامية وتحبيب بالفصحى، انتقل التشاؤم بالعامية إلى القرويين وتحفظ ذاكرتى نزهة ربيعية قمت بها مع أبى رحمه الله فى غوطة دمشق يوم جمعة ،

---

(١) ، (٢) المصدر السابق

(٣) من حاضر اللغة العربية ص ١٦٦ .

فلما حانت الصلاة قصدنا مسجد قرية قريبة ، وكان الخطيب يقرأ من كتاب ، شأن أكثر خطباء القرى يومئذ ، إلا أنه قبل أن يجلس بين الخطبتين توجه إلى القرويين يحذرهم بلهجتهم الدارجة من أمر فشا بينهم ، فلما قضيت الصلاة واتجهنا نحو الباب إذا أحدهم يسأل جاره بصوت مسموع : (ألم تفسد صلاة الجمعة بقطع الخطيب الخطبة والتكلم بالعامية ؟) فكان الجواب : (إنا لله ! نعيد الصلاة والله يعفو ويسامح) !

صار من دأب المتعلمين والطلبة عيب من يسبق لسانه بكلمة عامية ، وكنت قد ظفرت قبل سنوات ببعض قصيدة تعكس الروح السائدة قبل سبعين سنة لم تنشر واحتفظ بها أحد معارفي ، نظمها صاحبها الشيخ أبو السعود مراد سنة ١٩٠٨ أيام العهد العثماني منفراً من العاميات الدارجة ، وضاربا على قبحها الأمثلة ، ومن أبياتها :

أسفاً لغة العرب الفصحى
قد ضاعت منا بالعمد

واليوم تداولنا لغة
عوجاء مذبذبة القصد

ملئت ألفاظاً موحشـة
ما فيها من معنى مجدى

والعالم لا يتحاشاهـا
فضلا عن ذى الجهل الضد

فاسمع بعضـا منهـا فيما
ألقيه إليك وما أبدى

زعوط نطنط آه يامبطبط
حاجة تعطعط احفظ عهدى

إيسوا إيسوا ، لك لك هى هى
أه أه شوشو ؟ دس دس خدى

وطلع من طيز الصبح ومن
علبكرا فى وأت البرد

أرجينى ، ياروح ، يصطفلو
ضهرك بالك ، أوعـا ، دى دى

مأما مأما ، سفا لحا
بلأشلأ فايت يحدى ...(١)

وبعض هذه الكلمات لم أسمعه ولا عرفت معناه فقد مات . وعلى هذا تكون الصرخة فى تنقية اللغة من العامية قديمة فى الشام .

* * *

ثم وقع الاحتلال ، وبرزت مراكز أجنبية تغذى الدعوة إلى العاميات المحلية ، وتهيىء لها المال والمنابر والعملاء والنشرات ؛ وعمل لها المحتلون فى الخفاء : وأذكر أن أحد رؤساء بلدية دمشق أيام الاحتلال — وكان على مجاملته للمحتلين صادق الوطنية — جاء على لسانه خطأ من حيث لا يشعر كلمة (اللغة السورية والشعب السورى) من كثرة ما سمعها من هؤلاء العملاء ، فأوسعته الصحف الفكاهية المصورة تهكماً وتنكيتاً ،

(١) المصدر السابق ص ١٦٥ .

وتصدت له الصحف اليومية ، فلم تنبس شفتاه بعدها بـ (السورية) البتة :

ظهر للمحتلين تجاه هذه الوطنية العنيفة عقم محاولتهم ، فطووها من داخل الشام (حكومة سورية حينئذ) بعد أن ضُحك عليها ، وركزوا جهودهم فى الساحل (حكومة لبنان الكبير يومئذ) حيث كانت لهم فيه قبل الاحتلال بأكثر من ثمانين سنة مراكز وجهود سابقة فى خلق تكتلات ونزعات طائفية ، وأذكوا بين الطوائف العداوة حتى عم الجو الكراهية يتعامل بها بعض الطوائف ، والتزموا من بينها طائفة واحدة يقوونها فى مجتمع الكراهية هذا ، ويوجهون عملاءها وإمعاتها فى كل دعوة إلى تفرقة أو تمييز أو انفصال ، ومن ذلك التشكيك فى أصلهم العربى وصلاح لغتهم الفصحى والحرف العربى والثقافة العربية جملة مما عرضت له فى غير هذه الكلمة .

ثم استرحنا من ذلك كله فى داخل الشام ، وخفت مع الزمن — بعد الجلاء — دعاية الشر هذه فى ساحل الشام ، وإن كانت تطل من جحورها الباقية بين الفينة والفينة تزعج الآمنين المطمئنين على أوطانهم ولغتهم ومقوماتهم واستقلالهم . وقد انبرى لهؤلاء الكارهين المكروهين ، أفاضل من كرام اللبنانيين ذوى الأصالة[1] ، أوضحوا للناس زيف دعاواهم ، فاضحين ماوراءها من سموم التبشير والاستعمار . وكنت أحب ألا يعرضوا لهم ، فإن ما يقطر من دعايتهم من لؤم الطائفية وخبث الأجنبية كاف لتزييفها حتى فى أعين العوام .

إنى لا أرى لأحد من أهل الفضل والغيرة أن يشتغل بالرد على كل ناعق ، فإن ذلك يثبت لهم وجوداً وهذا كل ما يبتغونه ؛ إذ هو المسوغ الوحيد لإدرار الأموال الأجنبية عليهم ، فلندعهم وما اختاروا من معاش ، ولنمض قدماً فى محجتنا البيضاء النقية لا يلهينا عنها معوقون نصبوا ذات اليمين أو ذات الشمال ، نبنى متممين ما بدأته الأجيال الصالحة من قبلنا ، وممهدين لأجيال بعدنا نرجو أن تكون أصلح بعون الله .

سعيد الأفغانى
عضو المجمع المراسل من سورية

---

(١) أذكر منهم الآن على سبيل المثال : الأستاذ عمر فروخ عضو هذا المجمع الكريم وكتابه (القومية الفصحى) ، والدكتور سعيد شهاب الدين ورسالته (دعاة العامية هم أعداء القومية العربية) .

تقريب العامية من الفصحى

للدكتور حسين علي محفوظ

عناصر البحث :

- سعة اللغة العربية وغناها بالألفاظ والمصطلحات .
- دور اللغة العربية في تكوين اللغات الشرقية وإمداد اللغات الغربية .
- دور العربية في حفظ تراث الإنسان .
- الفصحى رابطة العرب .
- ضرورة نشر الفصحى ، والمحافظة على العربية .
- تقريب العامية من الفصحى .
- نظرة في العامية العراقية .
- اللهجة العراقية عصارة تاريخ الإنسان في العراق .
- الألفاظ الجاهلية في العامية العراقية .
- أصول الألفاظ والتعابير العراقية في التراث .
- الألفاظ التركية في اللهجة العراقية .
- الألفاظ الفارسية في اللهجة العراقية .
- الألفاظ الإنكليزية في اللهجة العراقية .
- الخلاصة .
- اقتراح جمع الكلمات الأجنبية المستعملة في اللهجات العربية وتوحيد ما يقابلها من الفصحى .
- اقتراح نشر الكلمات العربية واستعمالها بدلا من الدخيل .
- تلخيص قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية .
- اقتراح الدعوة إلى تطبيق القانون في البلاد العربية .

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة الأربعاء ٦ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨هـ - ١٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨م)

تصدير

العربية لغة قديمة واسعة غنية بالألفاظ والمصطلحات فى كل أبواب المعارف والعلوم والفنون وفى كل شؤون الحياة . وفى جميع آفاق التفكير والتعبير . وقد أعطت الأمم الشرقية ما تحتاج إليه من الكلمات والمفردات وأساليب البيان فى الدنيا والدين . وأسهمت فى تكوين اللغات الشرقية . ووهبت لها (الخط العربى) ومازالت تمدها بالألفاظ كما أمدت اللغات الأوربية والإفريقية بالعديد من كلمات الحضارة والعلم .

ولقد حفظ هذا اللسان المبين تراث العرب فى العلم والأدب والفلسفة والصناعة والفن . وحفظ مواريث الإنسان وما خلف من نتاج وحضارة وفكر ، فى كتب وأسفار ودفاتر بلغت الملايين تعتز بها دور الكتب والخزائن العامة والخاصة فى المشرق والمغرب .

هذا — وليس لنا (إذا فرقنا اللهجات) إلا « الفصحى » رابطة قوية محكمة متينة أمينة . فلابد من لزومها ، والمحافظة عليها ، وترويجها ، والسعى لتقريب العامية منها .

ثم لابد من اجتناب اللحن ، وتقويم اللسان والقلم ، ورعاية الفصاحة ، وتوخى السلامة والسلامة والسهولة والوضوح فى الكلام والبيان ، والتأليف والتدوين ، والترجمة والنقل والتعريب ، والكتابة والإنشاء والتعبير ، والتزام القواعد وأساليبها البيانية الأصيلة ، وطرائقها البليغة ، وسننها المأثورة .

* * *

نظرة فى العامية العراقية

للإنسان تاريخ طويل فى هذا الجزء من الأرض . وقد مرت به من طبقات الأمم ، وأجناس الشعوب ، وضروب الناس آلاف ؛ وإذا كانت جنة عدن فى العراق ، فقد أهبط منه الإنسان الأول . وإذا آمنا بأساطير التوراة فهنالك تبلبلت الألسن ، وافترقت اللغات ، وانطلقت اللهجات .

كان العراق — على كل حال — عش السومريين ، ووطن الأكديين ، ومولد البابليين ومنشأ الأشوريين . وقد خيم به الفرس ، واليونانيون ، وقطنه العرب ، وتبوأته قبائل الجزيرة .

ومازال حضنها يحتضن واديه ، ويرتع فيه ، ويمتاز منه ، ويزدحم أنظار منازله ؟

وبلغته تجارة الصين فى المشرق ، وأناخ به رواد الأندلس فى المغرب . وجاءته الوفود من الروم . وزارته الرسل من الهند . فالتقى فيه المشرقان والمغربان . وربط الشمال بالجنوب .

ومشى أهله فى مناكب الأرض فبلغوا الروم ، ووصلوا إلى الصرود وقد أوجفوا خيلهم على الصين . وأقبلوا يزفّون إلى بلاد الإفرنج ومدوا أعينهم إلى ماوراء المحيط .

وخضع هذا البلد الطيب لسلطان الترك . وقد كان أذعه معترك فوارسهم ومحط ركابهم حقبا ورثتها أوربا بضع سنين . . . دول وأمم ، وأيام وأقوام ، ومال ونحل ، ومذاهب وآراء ، وعادات ولغات ، وديانات ولهجات .

التقت فى العراق الأمم ، وتعارفت فى صعيده الشعوب ، وتشابكت فى وشائجه الدماء ، ومزجت فى مربعه الطبائع ، وتزاوجت فى رحبه العقول ، واتصلت فى ساحاته الآراء ، وتواصلت فى مدائنه الألسنة ، وترك كل أولئك آثاراً مازالت ملامحها فى الأخلاق والعادات ، واللهجات ، والحياة ، والطعام ، واللباس ، والفراش ، والرقص ، والغناء وأسلوب المحاورة ، والكلام ، ولحن القول ، والسنن .

تلك — إذن — قصة الفلولكلور العراقى ، وخلاصة تاريخ اللهجة العراقية ، وقصة الأدب العامى . وهى زبدة حقب طوال ، ونتيجة عصور مديدة ، وعصارة دهور متوغلة فى الزمان . فهى من مواريث تداول الحضارات ، واختلاط العالم الآدمى .

وقد طورها تأثير العصر العباسى ، وصبغها اتصال العراق المستمر بالجزيرة ، وصلته الدائمة بجاراته فى الشمال والمشرق ، وتحككه المتواصل بأوربا والغرب .

هذا — وقد جاءت التجارة بالكثير من الأشياء والأسماء . ودخل مع الحضارة العديد من الآلات والأدوات . فاللهجة فى العراق موصولة الحديث بالقديم ، متصلة الحاضر بالغابر . فكل قول ذكرى عهد ، وكل تعبير سمة فترة . وكل كلمة صورة زمان .

فى كلامنا ألفاظ استعملها فى الجاهلية أبو دؤاد الإيادى ، وأبو المثلم الخناعى ، والأعشى ، والأعلم الهذلى ، وامرؤ القيس ، وأوس بن حجر ، وبشر بن أبى خازم ، وتميم بن أبى بن مقبل ، والحارث بن حلزة اليشكرى ، والحطيئة ، ودريد بن الصمة ، وزهير بن أبى سلمى ، وضمرة بن ضمرة النهشلى ، وطرفة بن العبد ، وطفيل الغنوى ، وعبيد بن الأبرص ، وعدى بن زيد ، ولبيد ، والمثقب ، والنابغة . . فقد جاءت (بتك) فى شعر زهير ، و (تمطق) فى شعر الأعشى ، و (الحلال) فى شعر أبى دؤاد ، و (حدرة بدرة) فى شعر امرئ

القيس ، و (خيم) في شعر لبيد ، و (الدحداح) في شعر تميم ، و (الشريعة) في شعر عدى بن زيد ، و (العكة) في شعر أبي المثلم ، و (الكلة) في شعر أوس ، و (الملة) في شعر الحطيئة ، و (النبة) في شعر بشر ، و (الهميان) في شعر الحارث ابن حلزة .

و استعمل آباؤنا (الأسباب) بمعنى المتاع و(التسقيم) في الأعمال و(الخشل) بمعنى الحلى ، و و(الخط) بمعنى الرسالة ، و (الدعوة) بمعنى الطعام ، و (الرجل) بمعنى الزوج ، و(الشدة) بمعنى الحزمة ، و (الشربة) بمعنى الجرة ، و (الصانع) بمعنى التلميذ والمتعلم والخادم ، و (طيب) بمعنى معافى وحيّ ، و (العالم) بمعنى الناس ، و (نفر) بمعنى الفرد والجندى ، و (المور) بمعنى البحيرة في أيام العباسيين والمغول كما نستعملها نحن الآن .

وإذا قال العراقي — اليوم — (شوية) أي قليل . فقد قال العامرى من قبل :

معاهد لم يبق صرف الزما

ن منها ومنى إلا شويا

وإذا قال :(بيض الله وجهك) . فقد قالت الريباس أم كلثوم للشريف أبي طالب الأنصارى : « أصلحه بيض الله وجهك » .

وإذا قال :(على عينى وراسى) فقد جاءت في شعر تميم بن معدّ :

قالت إذا كنت من حبي بكيت دما

فسقنيها على العينين والراس

وإذا استعمل (الظروف) بمعنى الزقاق ، فقد وردت في شعر أحمد بن غانم :

أرى خمراً تشاكلها دموعى

كأن ظروفها كانت شؤونى

وإذا قال (شيح بيده) فقد استعملها محمد ابن عصام الأعمى الربعى ،

قال :

وقل لابن كيسان وقل لابن مطرف

خليكما بين الحنايا مشيّح

وإذا استعمل (مرّ) بمعنى حدث ، ووقع ، وجرى . فقد ورد في كلمة الخليفة عثمان بن عفان — رضى الله عنه — في قصة أبي زبيد الطائي في وصف الأسد ، إذ قال له : « هات مامر على رأسك منه » .

وإذا استعمل (مقموع) فقد ورد في نهج البلاغة من كلام الإمام علي — عليه السلام — : « خائف مقموع » :

وإذا جمع حديد على (حدايد) فقد سبقه أبو الطيب :

تهاب سيوف الهند وهى حدايد

فكيف إذا كانت نزارية عربا

وإذا قال (عين التي تصيبك تعمى) :
فقد جرت على لسان المتنبي :

خوفا من العين أن تصاب بها
أصاب عيناً بها تصاب عمى

وإذا قال (صار قفة) . فقد قالت العرب : (كبر حتى صار كأنه قفة) .

وإذا قال — عند التوديع — (في داعة الله) و (في أمان الله وحفظه) . فقد قال الشاعر القديم :

لم أقل للشباب في دعة الله
وفي حفظه غداة تولّى
زائر زارني أقام قليلا
سود الصحف بالذنوب وولّى

وإذا قال : (حلف بالطلاق) . ففي ديوان المتنبي :

لو تنكرت في المكرّ لقوم
حلفوا أنك ابنه بالطلاق

وإذا قال : (قولتني «الم أقل) أي نسبته إليّ . ففي شعر المتنبي أيضاً :

فما العاذلون وما أثلـوا
وما الحاسدون وما قوّلـوا

وإذا قال : (شفت عيب) أي رأيت عيباً . فقد كتب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذر : « فرأيت عيباً أن أفديك بنفس لابد لها من فناء » .

وإذا قال : (حسب حسابه) : ففي المقامة الأسدية :

فاحسب حسابك والتمس
كيما تنال الملتمس

وإذا قال : (فردعين) . فقد قال إبراهيم الحربي : « لي عشرون سنة أبصر بفرد عين » وفي تذكرة الحفاظ : « كان الصوري يكتب بفرد عين » ولأبي الحسن علي بن يوسف القفطي المعروف بالقاضي الأكرم :

شيخ لنا يعزى إلى منذر
مستقبح الأخلاق والعين
من عجب البحر فحدث به
بفرد عين ولسانين

وإذا قال : (يتعلم براسي) : فقد قال بديع الزمان الهمذاني : « أعلى رأسي يتعلم الحلق » .

وإذا قال (من حلاوة روحي) . فقد قال الغزولي : « فمن حلاوة الروح دفعته » .

وإذا سمى نجوم الفكة (جدح اليتيمة) أي قدح اليتيمة . فقد كانت الصبيان تسميها (قصعة المساكين) .

وإذا قال : (لسانها طويل) . فقد قالت ليلى بنت الحطيم بن عديّ : « أنا امرأة طويلة اللسان، لاصبرلي على الضرائر » .

وإذا قال : « عينة الشيء » أي خياره ففي ألفاظ الكتاب « عينة الشيء » وعين الشيء .

وإذا قال: (دق على صدره) أى عبرّ عن استعداده . ففى المحاضرات : إذا سألته ؛ دق صدره ويقول : أفعل . وإذا عاودته وتقاضيته ، دق جبهته ، ويقول : «لاقوة إلا بالله ، نسيت» .

وإذا قال: (عن طيب خاطر) ففى خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم : «عن طيب نفس» .

ومن أمثلة الألفاظ التركية :

آجغ (آچيق) — ناصل .

آيرى — اضافى .

اسكى — معرق ، قديم .

أغر (آغر) — ثقيل .

امزگ (امزك) أنبوبة .

أوده (أوطه) غرفة .

أورطة (أورته) زلية كبيرة .

برغى (بورغو) مسمارلولبى .

برنجى — أول ، جيّد .

بود له (بودالا) بليد .

بوش — فارغ .

ترس — كلمة شتم .

چاملغ (چامورلق) — الراقى من الطين .

چاووش (چاوش) — عريف .

خاشوگه (قاشيق) ملعقة .

داطلى (طاتلى) — حلوى .

دمبركه (تومبلك) — من أنواع الطبول .

سرگى(سورگى) — مغلاق من «سورگمولك» أى الإغلاق .

شيش — سفود .

صغلم (صاغلام) صحيح — سالم .

صوچ (صوچ) — ذنب جرم ، إثم

صوى — أصل .

طابور — فوج ، ١٠٠٠ جندى .

قابجى قبوجى (بواب) .

قاورمه — اللحم المقلى .

قبه (قابا) — غير مناسب ، ضخم ، غليظ ، كبير .

قرباج (قرباج) — مقرعة ، سوط .

قرصاغ (قورساق) حوصلة ، كناية عن الصبر والاحتّمال .

كسكين (كسگين) حاد .

كنداغ (قونداق) مؤخر البندقية .

كوپرى — جسر .

گزلك (كوزلك) — منظرة .

گيلباخ — تعال انظر . من گل تعال .

و «باق» «من» «باقدير مق» أى الإرادة .

ياغدان — المدهنة .

يشماغ (ياشمق) — نوع من الكوفية .

يقلمه (يوقلامه) — تفتيش .

يواش (ياواش) — رويداً ، تمهّل .

ومن الألفاظ الفارسية :

بابوج (پاپوش) — نوع من الأحذية .

بادگیر — جار الهواء . وهو البادا هنج ، وقد كان يستعمل فى المبانى والبيوت للتبريد

بازبند (بازوبند) — معضد .

بازى (بازو) قائمة الشىء .

بخشيش (بخشش) — عطية .

بربار (برابر) مساوٍ ، سواء .

پشت — كلمة شتم .

بنج (بنگ) — مخدّر .

پاچه — كراع .

پايه — رجل

پخته — نضيج .

جنبش — حركة ، اضطراب .

جارك (چهاريك) — ربع .

چنگال — شوكة .

خانه — بيت .

خرده — متفرقة .

خوش — جيّد .

دانه — قنبلة .

دوش — كتف .

دهل — طبل ، فارغ ، أبله .

زنانة — نسائى .

ساخته — حيلة .

سادة — بسيط .

سركال (سركار) — رأس العمل .

شوباش (شادباش) تعبير عن المسرة .

عافرم (آفرين) — أحسنت .

گردانه — قلادة .

لشه (لاشه) — بدن .

مرده شور — غسّال .

ومن الألفاظ الإنكليزية :

اسيد (acid) — الحامض .

براكيت (bracket) — المشبلة .

بمبر (bumper) — المصدة .

بول بيرن (ball bearing) الحاملة الكروية .

بويلر (boiler) — المرجل .

پستم (piston) — الواجفة .

پلك (plug) — السدام .

پليت (plate) — الصفيحة .

پمب (pump) — المضخة .

پيم (pin) — الدبوس .

تانكى (tank) — الخابية .

تاير (tyre) — الإطار .

تنر (thinner) — المرقق .

تورنه (turner) — المخرطة .

جاين (joint) الميصلة .

چوك (choke) — الخانق .

دشبول (dash board) — لوح المقاييس .

دينمو (dynamo) — المولّد .

راديتر (radiator) = البرّادة .

ربل (rubber) — المطاط .

روط (rod) — التضبيب .
ريل (rail) — القطار .
سايد (side) — الجانب .
سپانه (spanner) — الملك ، الناقضة
سبرنك (spring) — النابض .
ستيرن (steering) — السكان .
ستيل (steel) — الحديد الصلب .
سلف (self starter) — المثير .
سكن لايت (second light) الضوء الفاتر .
سلندر (cylinder) — الاسطوانة .
شكل زوبع (shock absorber) — ماشقة الرج .
شعط (strut) — التسريب .
شوله (shoot) — المقناة .
شوز (brake shoes) — مداس الكابحة .
صالنصه (silencer) — المخفتة .
صديم (steam) — البخار .
طايكر (top gear) — المسنن الأعلى .
فلاوين (fly wheel) — الدولاب الطيار .
فلتر (filter) — المرشحة .
فنبل (fan belt) — حزام المروحة .
فول لايت (full light) — الضياء الوهاج .

فيته (foot) — شريط القرع .
فيوز (fuse) — الصهور .
كابريته (carburater) المحصبة .
كاسكيت (gasket) — الغطاء .
كب تشحيم (cup) غمرة التشحيم .
كليچ (clutch) — الماشية .
كويل (coil) — القيفة .
كپس (Crank Case) — الشحن .
گيج (gauge) — المقياس .
گير (gear) — صندوق المسننات
ماطور (motor) — المحرك .
نڈل (needle) — الإبرة .
لينه (line) — السطر .
هنذل (handle) — اليد .
هورن (horn) — النفير ، البوق .
هولدر (holder) — الماسكة .
واشر (washer) — الوساد .
واير (wire) — السلك .
وترپمپ (Water pump) — مضخة الماء
ويل (wheel) — الدولاب .

الخلاصة :

١ — تحتبر العامية العراقية — الصورة الباقية من آثار لغات سكان العراق من أقوام وأمم وشعوب منصهرة في بوتقة

العرب واللغة العربية ، مصوغة فى قالب المأثور من لغات قبائلها ،

٢ — تعتبر العامية العراقية سجلا لما ذاع وانتشر وحفظ وبقى واستعمل من ألفاظ لغات الأمم التى أقامت بالعراق أو حكمته ، أو مرت به . وهى كلمات معدودات .

٣— العراقى قادر على الإفصاح بكل الحروف العربية . كما يستطيع التلفظ بسائر الحروف .

٤— العامية العراقية أقرب إلى الفصحى وهى قادمة إلى الخلاص من الدخيل . وقد تخلصت من أكثر الألفاظ الأجنبية، ودخلها العديد من الكلمات الفصيحة ، واستعمل أهلها عددا كبيرا من المصطلحات الأجنبية وأقترح :

١— جمع الكلمات الأجنبية المستعملة فى اللهجات المنتشرة فى البلاد العربية وتدوين مايقابلها من الألفاظ العربية فى معجمات خاصة بكل بلد .

٢— جمع الكلمات التى تلحن فيها العامة من الألفاظ العربية كذلك .

٣— تأليف معجم موحد للألفاظ الأجنبية المستعملة فى اللهجات العربية جميعا مع مايقابلها من الألفاظ العربية .

٤— توحيد الكلمات العربية التى تقترح فيما يقابل الألفاظ الأجنبية .

٥ — نشر الكلمات العربية بدلاً من الألفاظ الأجنبية واستعمالها فى الجرائد ، والصحف ، والمجلات والرادبو ، والتليفزيون والسينما ، والمسرح .

هذا — وقد اقترح المجمع العلمى العراقى خطة للنهوض باللغة العربية ، والمحافظة على سلامتها . فأصدرت الدولة (القانون ٦٤) لسنة ١٩٧٧ وهو (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية) وقد نشر فى الجريدة الرسمية — فى العدد — (٢٥٨٧) — فى ١٦— ٥— ١٩٧٧ م واعتبر نافذا بعد ثلاثة أشهر .

وقد أوجب هذا القانون :

١— اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم فى مراحل الدراسة كافة .

٢— التزام العربية فى مطبوعات مؤسسات النشر والإعلام ، ومناهجها .

٣— استعمال العربية فى تحرير :

(أ) الوثائق .

(ب) المذكرات .

(ج) المكاتبات .

(د) المحررات.

(ه) السجلات .

(و) المحاضر .

(ز) العقود .

(ح) الإيصالات.

(ط) اللافتات.

(ى) العلامات.

(ك) البيانات التجارية.

(ل) البراءات.

(م) النماذج.

٤ـ اعتماد العربية فى التعبير.

٥ـ تجنب استعمال المصطلحات الأجنبية إلا عند الضرورة.

٦ـ إنشاء أجهزة تعنى بسلامة اللغة العربية فى الوثائق والمعاملات.

٧ـ تقريب العامية من الفصحى

٨ـ اعتماد المجمع العلمى العراقى المرجع الوحيد.

وأنا أقترح أن تسعى المجامع العلمية العربية، والمؤسسات العلمية والثقافية فى البلاد العربية كلها لتحقيق مثل هذا الإقدام وأرجو أن تصدر الدول العربية جميعا مثل هذا القانون.

حسين على محفوظ
عضو المجمع المراسل من العراق



الفصحى المعاصرة (*)

للدكتور شوقي ضيف

— ١ —

يرجع تاريخ الفصحى إلى بضعة عشر قرنا ، وقد اجتازت فى هذا التاريخ الطويل مراحل وأطوارا متباعدة ولعل أول مرحلة هى مرحلة الدين الحنيف الذى تطور بالفصحى من لغة وثنية مادية إلى لغة ذات دين سماوى يحمل مالاعهد للفصحى به من قيم روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية . وطبيعى أن يُحدث هذا الدين فى الفصحى تطوراً هائلا فى معانيها وألفاظها . وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأ دلالاتها ابتداء، مثل الإسلام والإيمان والكفر والإشراك والصوم والزكاة والصلاة إلى غير ذلك من كلمات الدين الحنيف . وهى تكثر جدا إذ تشمل كل مااختاره للشعائر الدينية وللعقود والمعاملات من ألفاظ متنوعة الدلالات . ومما لاريب فيه أن القرآن الكريم يُعَدّ بكل سورة ابتداء لشريعة سماوية ولغة دينية باهرة وأسلوب بيانى معجز يأخذ بمجامع القلوب .

وسرعان مابدأ عصر الفتوح الإسلامية واستقر العرب فى الأمصار وأخذوا يتناولون الحياة تناولا جديدا ، فقد تحضروا وسكنوا القصور ونعموا بالفرش والملابس والمطاعم والمشارب ، وأقبلوا على التزود بما كان لدى الشعوب المفتوحة من معارف وثقافات . وفى أثناء ذلك كانت الفصحى تتطور وتتحور ألفاظها وتتسع للتعبير عن دلالات حضارية وعلمية جديدة . وكم نُحت واشتُق من مئات الألفاظ للحضارة المادية وأدواتها الكثيرة ، وبالمثل كم نُحت واشتق من مئات الألفاظ للعلوم والمعارف ، وفتحت الفصحى أبوابها لألفاظ أعجمية كثيرة عرّبتها ، تارة تحوّر فيها : فى الحروف والحركات ، وتارة لاتحور وقد عقدوا لها كتبا مفردة مثل كتاب المعرّب للجواليقى وخصّوا المصطلحات العلمية بمعاجم متعددة ، على نحو ماهو معروف عن كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى .

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة الخميس ٧ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨ هـ — ١٦ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨ م) .

وقد تكامل للفصحى هذا الطور العلمى والحضارى فى العصر العباسى ، وأدته أداء رائعا وهى لم تؤده من الوجهتين : العلمية والحضارية فحسب ، بل أدته أيضا أداء رائعا من الوجهة الأدبية ، فقد ازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والنثر وظهرت فيه فنون مستحدثة مثل الشعر التعليمى والرسائل السياسية والمناظرات والمقامات والنثر التهذيبى والصوفى .

واستطاع الأدباء فى أثناء ذلك أن ينفذوا إلى أسلوب جديد ، غذَّوه بعقولهم الخصبة وما أثاروه من المعانى المبتكرة ، مع احتفاظهم فيه للفصحى بكل مقوماتها وأوضاعها النحوية والصرفية،وهو أسلوب نهض على أساسين لفظيين : هما نبذ الألفاظ الحوشية الجافية ، ونبذ الألفاظ العامية المسفة المبتذلة . أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال ، يقوم على الألفاظ المتخيرة التى لاتنبو عن ذوق العباسيين المصفى ولاعن حسهم المرهف :

وتتحدد فى كتابات النقاد العباسيين تسمية هذا الأسلوب الجديد باسم أسلوب المولَّدين وعادة يصفون به أسلوب الأدباء العباسيين ، وخاصة الشعراء ، حين يقابلون بين أسلوبهم وأساليب الإسلاميين والجاهليين ، غير أنهم لايمضون فى الحديث عن بواعث ظهوره ولا عن السبب فى أنه أصبح الأسلوب العام . وفى رأينا أنه ليس من سبب وراء ذلك كله إلا الرغبة الحقيقية لدى أدباء العصر العباسى فى تيسير الفصحى لعصرهم وتذليلها للناس ، بحيث لاتغلق ألفاظهم على جماهيرهم ، ولا يجدون فيها إسفافاً يخل ببيانها الفصيح :

— ٢ —

وكل ماحدث للفصحى من ألوان تطور فى العصر العباسى أخذ يحدث لها مايماثله منذ أواسط القرن الماضى ، فقد أخذت تنشأ فيها مصطلحات علمية وألفاظ حضارية لاعداد لها ولاحصر ، وأخذت تظهر فيها وتزدهر فنون مستحدثة ليس لها سابقة،وأخذ الأدباء يسعون بألفاظها وتراكيبها نحو التبسيط والتيسير . وقد أخذ علماؤنا الأبرار يمرّنونها — مبكرين — على أداء العلوم الغربية. وكان فى طليعةمانقلوه إليها علم الطب بفروعه المختلفة، تجرّدت له أولا طائفة من غير الأطباء ، ثم تجرّد له أطباء مشهورون، ونُقلت كتب فى العلوم الرياضية . ونقل رفاعة الطهطاوى وتلاميذه فى سنة ١٨٦٦ القوانين الفرنسية المعروفة باسم «الكود» فى ثلاثة مجلدات .

ووُضعت كتب قانونية وقوانين مختلفةمثل قانون المحاكم الأهلية. ومضت صفوة تعنى بنقل علم الاقتصاد الغربى ومباحثه منذ نهاية العقد الثامن فى القرن الماضى ، وكان يسميه العرب علم المعاش . ومضت صفوة أخرى تعنى بعلم الاجتماع ، وجهود فتحى زغلول فى نقله إلى الفصحى معروفة .

وجعل الإنجليز فى سنة ١٨٩٥ لغتهم الإنجليزية لغة التعليم فى مدرستى الطب

والهندسة ، فتوقف تيار النقل فى علومهما إلا قليلا ، غير أنه ظل قويا مطرداً فى سواهما من العلوم ، وخاصة فى الاقتصاد والاجتماع والقانون ، وأيضاً فى الفلسفة . ونجاهد الإنجليز جهاداً عنيفاً ونحصل على استقلال مقيد ببعض الشروط ، وتتحول الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة حكومية ، هى جامعة القاهرة الآن ، وتضم بجانب كلية الآداب كليات الطب والعلوم والحقوق ، ثم كليات الهندسة والزراعة والتجارة والطب البيْطرى وبأخرة تضم كلية الاقتصاد . ويتكاثر لمصر علماؤها الأفذاذ المتخصصون فى جميع فروع العلم .

وتحدث نهضة علمية عظيمة ، ويسود شعور عام بوجوب وضع المصطلحات العلمية جميعها فى الفصحى ، ويخرج الدكتور محمد شرف سنة ١٩٢٨ معجمه النفيس فى العلوم الطبية والطبيعية ، ويتأسس المجمع اللغوى ، ويجعل من أغراضه الأساسية وضع المصطلحات العلمية ، وينهض بهذا الجهد منذ دورته الأولى ، وكلما أمضى شوطاً من الزمن اتسع جهده فى هذا المجال ، وتكاثرت لجانه العلمية ، وإنه ليبلغ الآن مجموعُ ما وضعه من تلك المصطلحات أكثر من خمسين ألف مصطلح فى مختلف العلوم . وليس ذلك كل مانهض به فى هذا الاتجاه ، فقد أرسى لصوغ المصطلحات العلمية وتعريبها قواعد سديدة ترسم ضوابط التعريب من جهة ، وتعين علماءنا على صياغتها من جهة ثانية ، مثل جواز تكملة المادة اللغوية بمشتقات غير معجمية ، وجواز الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر ، وقياسية المصدر الصناعى ، إلى غير ذلك من قواعد تيسر وضع المصطلح العلمى وتذلله تذليلا . وقد استطاعت هيآت وأعلام من العلماء فى مصر والبلاد العربية أن يسهموا فى هذا العمل العلمى الجليل بوضع معاجم علمية متنوعة . وليس من ريب فى أن هذه الجهود العلمية الخصبة توشك أن تتحول بالفصحى العلمية المعاصرة إلى لغة علمية عالمية .

ولم تكسب الفصحى المعاصرة ألفاظ المصطلحات العلمية وحدها ، فقد كسبت أيضاً آلاف الألفاظ المعبرة عن أدوات الحضارة وشئون الحياة العامة ، وكثير منها كانت قد عنيت به المجامع اللغوية الأهلية التى تكونت بمصر فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، ووضعت لطائفة منه ألفاظا مستحدثة وارتضتْ بعض ما شاع منه على ألسنة الجمهور وأقلام الكتاب .

وعنى مجمعنا فى دوراته الأولى بهذه الألفاظ وتوقفت عنايته بها فترة ، ثم عاد إليها وألف لها لجنة ، تزخر بنشاطها مجلته ومحاضره ، وبهما حصيلة كبيرة من هذه الألفاظ الحضارية المتصلة بجوانب الحياة العصرية .

وبجانب ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم تحمل الفصحى المعاصرة مصطلحات

سياسية كثيرة ، ويتضح ذلك في المقالات الصحفية التي يقرؤها الجمهور كل يوم فإن القارئ العادي لما يشعر بحاجته حاجة ملحة إلى معجم يشرح له كثيراً من الألفاظ السياسية الحديثة التي لاتتضح له مدلولاتها اتضاحاً كافياً . ولنترك السياسة إلى لغة النقد الأدبي المعاصرة فإنها تفترق مفارقة بينة عن لغة النقد الأدبي القديم ، ففي الشعر مثلا يتداول النقاد المعاصرون مثل هذه الألفاظ أو المصطلحات : الشعر الغنائي والقصصي والتمثيل والمدرسة الكلاسيكية والرومانسية والرمزية والواقعية والتجربة الشعرية والوحدة العضوية والصورة والمضمون والمأساة والملهاة ونظرية الوحدات الثلاث : وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة الموضوع ، والعقدة والحدث المتوتر الحاد . ويتداول المعاصرون من النقاد في القصة ألفاظاً ومصطلحات من نفس هذا الطراز الحديث مثل : المذهب الواقعي والطبيعي والنفسي والوحدة السلوكية والشخصية النامية والبعد الاجتماعي والنفسي والإنساني والصراع الفكري والصراع الطبقي والتكوين العام للأحداث والمواقف ورسم الشخوص رسماً بيناً .

وقل ذلك نفسه في النقد المسرحي ونقد الفنون . وكأننا نتعامل في كل ذلك بلغة جديدة أو قل هي الفصحى المعاصرة تتشكل أشكالا وأنماطا جديدة في ميادين العلم والحضارة والسياسة ونقد الآداب والفنون .

— ٣ —

وإذا كانت الفصحى المعاصرة قد تطورت في هذه الميادين جميعاً ، واستوعبت مالا يكاد يحصى من الألفاظ والمعاني فإن تطورها في مجال الأدب بفرعيه من الشعر والنثر قد يكون أوفر نمواً وحيوية ، أما الشعر فقد كثر ناظموه المعاصرون في البلدان العربية وكثرت دواوينهم كثرة مفرطة ، وحدثت فيه ضروب شتى من التحول والتطور ، كما أخذت تظهر أنماط جديدة فيه سياسية وقومية واجتماعية . وليس ذلك فحسب ؛ فقد مضى الشعراء يغذون أشعارهم باتجاهات الشعر الغربي من رومانسية ورمزية وواقعية ، وأخذت مضامين شعرهم تتنوع تنوعا واسعاً ، كما تنوعت أشكاله الموسيقية وظهرت وازدهرت فيه المسرحية الشعرية . وتكتب في هذه التحولات في الشعر المعاصر وأعلامه بحوث مطولة .

وبالمثل حملت الفصحى المعاصرة فنونا نثرية مستحدثة أهمها المقالة والقصة والمسرحية ، وقد نشأ فن المقالة عند الغربيين بتأثير الضرورات الصحفية ، وحاكاهم فيها كتابنا منذ نشأت عندنا الصحف في القرن الماضي . ولم تكن الفصحى تعنى بالقصص إلا قليلا ، في المقامة وبعض نماذج هنا وهناك ، وقد تركت القصة الطويلة للأدب العامي ، وكتبت فيه قصص شعبية كثيرة ، حتى إذا اطلع أدباؤنا في القرن الماضي على قصص الغربيين الطويلة أخذوا في تمصير بعض نماذجها ،

ثم عنوا — فيما بعد — بنقل كثير منها نقلا دقيقاً . ولم يلبثوا فى هذا القرن العشرين أن نشطوا — وخاصة منذ العشرينيات — فى كتابة القصة والأقصوصة ، وإنه ليصعب حصر القُصاص اليوم فى مصر والبلاد العربية فضلا عن حصر قصصهم الطويلة وأقاصيصهم القصيرة . ولم تكن الفصحى تعرف فن المسرحية ، وعلى شاكلة القصة عنى أدباؤنا أولا بتمصير بعض المسرحيات الغربية، ثم عنوا بترجماتها الدقيقة ، ولم يلبث أن ظهر للفصحى كتّاب مسرحيون عديدون ، وإنهم ليعدون الآن بالعشرات فى مصر والأقطار العربية . وفى كل هؤلاء الأدباء من المسرحيين والقصاص وأصحاب المقالات وآثارهم تكتب بحوث طوال .

وإذا كان العباسيون — من قبل — شعروا بأنهم فى حاجة إلى أسلوب مولد يرتفع عن الابتذال ، ويهبط عن الإغراب الشديد ، أسلوب وسط يقترب من أفهام عامة المثقفين دون ركاكة أو إسفاف فإن الأدباء النابهين شعروا فى عمق منذ أواسط القرن الماضى بأن ماانتهى إليه أسلوب الفصحى حينئذ من الجمود والضيق والتقيد بأغلال السجع و البديع يحول بينهم وبين مايريدون أداءه. وكانوا قد عرفوا للفصحى أسلوبا متحرراً من هذه القيود عند ابن المقفع وأضرابه ، فعمدوا إلى محاكاته ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يحاولون النفوذ إلى أسلوب أكثر سهولة ويسراً ، وتضافرت عوامل مختلفة على شيوع هذا الأسلوب الجديد بسبب انتشار التعليم واستخدام المطابع وذيوع الصحف ، فكثر القراء، وكثر التبسيط والتيسير فى أسلوب الفصحى بين المترجمين والكتاب المختلفين. وكلما أمضت الفصحى المعاصرة شوطاً من الزمن اتسع فيها هذا التيسير والتبسيط .

ودَوْر الصحافة فى هذه الفصحى المعاصرة أوسع وأكبر شأناً من دور الكتب المترجمة والمؤلفة ، ومعروف أن الصحافة أخذت تنشط منذ عصر الخديوى إسماعيل ، ولم تكن تتجه مثل أصحاب الكتب إلى الجماهير المثقفة فحسب ، بل كانت تتجه إلى جميع الطبقات فى الأمة ، وكانت عنايتها شديدة بالطبقات الشعبية الدنيا ، إذ كانت تريد أن تحظى بأكبر جمهور قارئ وأن تقدم له ما يغريه على الإقبال عليها والمتاع بها ، ولذلك كان الكاتب فى أى صحيفة يحاول جاهداً أن يبسط لغته ، حتى يدنو من العامة ، وحتى لايكون بينه وبينها أىُّ حجاب فى الخطاب ، لا فى الأفكار ولا فى الألفاظ ، فالأفكار مهما كانت عميقة أو دقيقة تبسّط تبسيطاً شديداً ، حتى لاتجد الجماهير أى عسر أو مشقة فى فهمها ، والألفاظ تختار سهلة ، حتى يفهمها الشخص العادى فى الأمة دون أية صعوبة .

وتَمْضى فى القرن الحاضر إلى حقبة العشرينيات التى نشأت فيها الأحزاب، فنجد كل حزب يؤسس لنفسه صحيفة ينشر فيها

آراءه فى الحكم والسياسة، وأخذت كل صحيفة تجتذب إليها علماً من أعلام الأدب حينذاك. واختصم هؤلاء الأعلام فى شئون السياسة والحكم خصومات عنيفة، وأثاروا خصومات لا تقل عنفاً فى شئون الأدب قديمه وحديثه، وأخذوا يعرضون على القراء — استمالة لهم وجذباً — فصولا من أدبنا العربى القديم ومن الأدب الغربى الحديث. وبذلك التحمت صحافتنا بالحركة الأدبية، وأفادت منها غزارة فى معانيها ودقة فى أفكارها، إذ تغذت من أدب هؤلاء الأعلام وأضفوا على لغتها المعاصرة مسحة من الجمال الفنى مع محاولاتهم الخصبة لتبسيط الفصحى وتيسير أسلوبها المعاصر حتى تسيغها الجماهير وتجد فيها متاعاً هنيئاً.

وجانبان يلاحظان بوضوح فى هذا الأسلوب الميسر المبسط لفصحانا المعاصرة، أما الجانب الأول فاستخدام طائفة من أدبائنا فى مقالاتهم وقصصهم لكثير من الكلمات الشائعة فى العامية التى يظن أنها غير فصيحة، بينما هى عربية فصيحة، وإن دارت على ألسنة العامة. ولا شك فى أنهم يقصدون قصداً إلى استخدامها فى كتاباتهم، حتى يدنوا من الجماهير أكثر فأكثر، وحتى تدرك وتتمثل مايعرضون عليها من خواطر وأفكار، ونضرب مثلا فذا من هؤلاء الأدباء: إبراهيم عبد القادر المازنى، إذ كان يمتاز بحاسة لغوية مرهفة أعانته على التقاط كثير من الكلمات الشائعة فى العامية وردها إلى الفصحى، لأنها فى واقع الأمر فصيحة، وإن لاكتها العامة. وبذلك كان يحدث تبسيطاً — يشغف به — فى تعبيراته، مع الاحتفاظ فى دقة بمقومات العربية وأوضاعها فى الإعراب وتصريف الكلمات، ومع استخدام لغة بيانية ناصعة رصينة. وهذا الجانب فى الأسلوب المبسط الحديث لفصحانا ينبغى أن تتضاعف العناية به، بحيث يعنى كل بلد عربى بوضع معجم تستقصى فيه الألفاظ العامية العربية الأصل التى تشيع فى ألسنة أبنائه مع النص على المشترك من هذه الألفاظ بين البلاد العربية، ليستغل ذلك كله الأدباء المعاصرون فى كتاباتهم القصصية والصحفية. وحرى بى أن أذكر أن المعجم الوسيط صحح كثيرا من الألفاظ العامية وسلكها فى الألفاظ الفصيحة وهو عمل جدير بالشكر والثناء.

والجانب الثانى الذى يلاحظ فى الأسلوب الحديد المبسط لفصحانا المعاصرة أنه نشأت فيه بحكم التطور اللغوى صيغ وعبارات يظن لأول وهله أنها غير فصيحة، حتى إذا عرضها العالمون باللغة على قواعدها وتصاريفها وجدوا لها وجوهاً من التخريج تجعلها عربية فصيحة. وتعنى بذلك لجنة الألفاظ والأساليب فى المجمع، وقد أخرجت فى هذا العام كتابها الأول، وهو يسوغ كثيراً من هذه العبارات والصيغ. والفصحى المعاصرة فى هذا الصنيع تجرى على سنن اللغات، فتراكيبها وصيغها جميعاً لا تستعصى على التطور، ولا هى أشياء ثابتة راسخة كالصخر الأصم، بل

هى كائنات حية مثل أصحابها ، فهم فى تطور وتغير مستمرين من يوم هبوطهم فى مهودهم إلى يوم استقرارهم فى لحودهم . وكذلك التراكيب والصيغ فى اللغة ، فهى ما تنى تتحرك وتتطور وتتغير . وهو جانب واسع جداً فى الأسلوب المبسط الجديد لفصحانا المعاصرة ، وينبغى أن لا نغلق أبوابها من دونه ، بل نفتحها على مصاريعها للعبارات والتراكيب المستحدثة ما دمنا نجد لها تخريجا يسوغها ويسبغ عليها صفة الفصاحة .

— ٤ —

ولعل فى كل ما قدمت مايصور كيف أن الفصحى المعاصرة تعيش مرحلة خصبة من جميع الوجوه ، إذ وسعت مضامين شتى من العلوم والآداب ، ونفذت إلى أسلوب ميسر مبسط ، من شأنه أن يساعدها على انتشارها فى جميع الألسنة ، وقد ظفرت بفنون كانت خاصة بالعامية ، مثل فن القصة الطويلة ، فقد كانت العامية تنفرد بها قبل العصر الحديث ، كما أسلفنا . وما إن شركتها الفصحى المعاصرة حتى أصبح لها القدح المعلى فى لغة القَصّ . ويلاحظ أن القُصاص الذين لا يزالون يتخذون العامية أداة لقصصهم فى عصرنا لاينُون يحوِّرون فى تراكيبهم وعباراتهم تحويرات متنوعة محاولين اللحاق بركب الفصحى . ولا أراني أغلو إذا قلت: إن اللهجة العامية المستخدمة فى كثير من القصص والمسرحيات المعاصرة ليست هى نفس اللهجة العامية اليومية المتداولة كما قد يظن كثير من الناس ، بل هى لهجة وسطى بين العامية والفصحى . وهذا نفسه يلاحظ فى الأزجال الشعبية المعاصرة ، فلغتها تقترض كثيراً من كلمات الفصحى المعاصرة وتراكيبها . ومعنى ذلك أن الفنون الأدبية فى العامية تندفع فى عصرنا إلى الاقتراب من الفصحى اندفاعاً يبشر بأنها ستصبح يوماً لغتها السائدة . ومن هنا كنت أخالف من يبالغون فى تقدير خطر العامية على الفصحى المعاصرة ، والحقيقة عكس ذلك ، فان الفصحى المعاصرة ماتزال تقهر العامية فى كل ميدان تلتقى معها فيه .

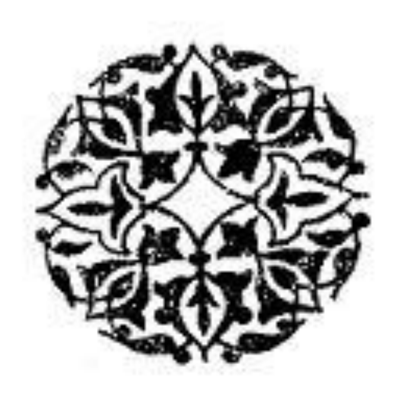
وكلنا نعرف أن الفصحى المعاصرة استولت منذ القرن الماضى على أكبر ساحة لغوية شعبية فى العصر ، وأقصد ساحة الصحف ومر بنا آنفاً أثرها فى أسلوبها المبسط المعاصر ، ولم نعرض لأثرها فى أدبها ، وهو أثر واسع ، إذ جعلته يحمل ما يعز حصره من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية والفكرية ، جعلته يحمل صورا أدبية جديدة . ولست أريد أن أتحدث الآن عن هذه الجوانب إنما أريد أن ألفت إلى أن الصحف لم تقف عند مخاطبة بيئة مثقفة بعينها ، كما كان شأن أدبائنا المتخاطبين بالفصحى قبل هذا العصر ، فقد تخطت لعصرنا الحواجز الطبقية فى الشعب وخاطبت جميع طبقاته وجماهيره . وها هى ذى الملايين فى بلادنا العربية تغدو وتروح كل يوم وفى أيديها الصحف تقرأ فيها صباح مساء . وهو

غزو كبير للفصحى غزت به العامية منذ أواسط القرن الماضى ، إذ سلبتها جمهورها القارئ ، وجعلته يحس بقوة أن مثله اللغوى الأعلى إنما هو فى الفصحى المعرّبة .

ولم تستول الفصحى المعاصرة من العامية على ساحة الصحف وكلماتها المطبوعة فحسب ، فقد أخذت أيضاً تستولى منها على ساحة الإذاعة وكلماتها المسموعة والمرئية ، وحقا تكثر فى هذه الكلمات الأخطاء النحوية والصرفية ولكن هذه الأخطاء ستزول فى رأينا حتماً بتأثير الرأى الأدبى العام وما يتطلبه فى المسموعات والمقروءات من الصحة اللغوية. ولا ريب فى أنه يوجد بين المتحدثين فى الإذاعات من يعنون بلغتهم وصياغتهم وخاصة الأدباء المعاصرين . والإذاعات تعد — بحق — وسيلة مهمة من وسائل نشر الفصحى فى عصرنا، لكثرة الملايين المستمعة لها يوميا كثرة تفوق كل حد، إذ تستطيع أن تحمل الكلام ترا إلى جميع أرجاء العالم فى الشرق والغرب: إلى من يسكنون القصور والأكواخ ومن ينزلون على سفوح الجبال وفى بطون الأودية، ومن يعيشون فى المصانع والمدن وفى المزارع والقرى وفى البوادى والنجوع . والمستمع إليها ليس من الضرورى أن يكون قارئاً ، فهى تخاطب القارئين والأميين على السواء . ولهذا ينبغى أن تتضاعف الجهود فى مختلف الإذاعات لتبلغ بالفصحى المعاصرة الغاية المأمولة لها من الذيوع على جميع الألسنة فى بلداننا العربية .

وواضح مما ذكرت أن الفصحى تحيا فى عصرنا حياة مزدهرة إلى أبعد حدود الازدهار ، وهو ازدهار أتاح لها لغة علمية حديثة وفنوناً أدبية متنوعة وأسلوباً مبسطاً ميسراً ، مع استيلائها على ساحة الصحف ، ومع محاولاتها الجادة فى الاستيلاء على ساحة الإذاعة . وإنى أومن بأنها ستظل تزداد ازدهاراً وانتشاراً من يوم إلى يوم حتى تحل نهائياً فى الألسنة مكان العامية ، لا فيما بقى لها من الفنون الأدبية الشعبية فحسب ، بل أيضاً فى لهجات التخاطب اليومية :

شوقى ضيف
عضو المجمع



خواطر
حول الترجمة الذاتية
فى العصور الإسلامية

للمستشرق الألمانى الدكتور رودلف زلهايم

عندما يستعين المستشرق الغربى بمراجع التراجم المتنوعة الفنية ، التى خلفتها لنا العصور الإسلامية ، يسترعى انتباهه جفاف فى مادتها سواء فى لغتها أو فى طريقة عرضها ، كما يلاحظ فيها غالبا مغالاة فى الموضوعية ، تحرص كل الحرص على كتم الأمور الشخصية. ومن الغريب أن يتم ذلك فى نوع من الأدب عماده الشخص المترجم له ومحوره . وعبثا ما ينقب المرء فى تلك التراجم الثرة ــ وكم فيها من قطع التراجم الذاتية المتناثرة ، سواء بصيغة المتكلم أو الغائب ــ عن محاولة تظهر معالم الإنسان الفرد فى كينونته وتطوره ، وتبين دوافع أعماله الشخصية ، أو بتعبير آخر : عن محاولة تحدد معالم شخصيته ، وتمهد السبيل للوصول إلى حكم حوله كفرد فى علاقته بالآخرين فى خضم ذلك المجتمع.

وقد يعثر المرء أحيانا فى بعض التراجم الذاتية على أقوال أو إشارات طفيفة إلى عوامل أو تطورات نفسية تفصح عن ذات المتحدث ، ولكن علينا أن نذكر ، فى الوقت ذاته ، أنها إنما تهدف إلى تبرير موقف الفرد فى نظام اجتماعى شامل ، يحدده الدين رابطاً الفرد فيه بربه وبجماعة المسلمين .

وما أشد الدهشة التى يثيرها هذا التقرير فكلنا قد أعجب بنبوغ العرب منذ عهد شعراء الجاهلية فى وصف الجزئيات ، واطلع على ثروة نوادرهم التى أفصحوا بها عن معالم شخصية الإنسان بأوجز التعابير ، واستقوها عن طريق المراقبة الدقيقة ، والملاحظة الواعية العميقة . والعرب هم الذين حققوا أبهر الإنجازات مثلا فى مضمار النحو والبلاغة ، وعالجوا أدق المسائل

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة السبت ٩ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨هـ = ١٨ من مارس سنة ١٩٧٨م) .

والأمور المفردة ، ووضعوا المبادىء التي مهّدت للوصول إلى أحكام تركيبية ومناهج شاملة كلّية، فلا مجال إذا للتساؤل عما إذا كان المصنفون قد عجزوا أو رغبوا عن إضفاء صورة كاملة لمن يترجمون له ، بل علينا أن نبحث عن الأسباب التي حدت بالمسلم آنذاك إلى التخلّي عن تلك الصورة الكاملة .

وبكل ما يقتضيه الموضوع في مجالنا هذا من حذر وتحفّظ ، سأحاول فيما يلي عرض بعض الخواطر التي اكتسبتها من من تجاربي مع أمهات المصادر ، أو مع الناس في ديارهم بعيدا عن بهرج المدنية الحديثة .

كثيرا ما كتب وقيل عن تأثير طبيعة الأرض والمناخ في تصرفات الإنسان ومعالم شخصيته، وطبعها إلى حدّ ما بطابعها على توالي الأحقاب والتاريخ . فإن صح ذلك ، وجب علينا أن نسلم بأنّ تصرفات الشرق تختلف في معالمها عما يصلح للمقارنة بها من تصرفات الغربي . وليست هذه المعالم فطرية ، بل مكتسبة من المحيط وعوامله وتأثيراته. فإذاما تنقل غريب في أرجاء الشرق العامرة ، وانتهى إلى مناطق منزوية ، أو بُليْدات لاتزال تتحلى بطابع العصور الإسلامية الأولى ، لفت نظره نموذج من التصرفات بين الناس ، يتلاءم مع الجو الذى يألفه ويعهده في كتب التراجم وسير الرجال .

وعلى سبيل الحصر : إنه سلوك مجتمع أبوى تجاه غريب، تنهل لغته من مفردات النصوص القديمة ، عربية أو فارسية ، وينشد حوارا أدبيا حول التراث كتعبير عن حضارة حية واعية لتاريخها ، متكاملة في ذاتها ، وعريقة في أرومتها . فكان كلما تمّ لقاء أو حوار مع شيخ أو مثقف من أهل تلك المناطق والبليدات تكتشف للغريب ، أنه يدور على نمط متكرر ووتيره متشابهة : وهي حفاوة في استقبال الضيف ، ومسامرة طويلة لا يشوبها الشك ، وعمادها الروايات كما نعهدها في تراث العصور الإسلامية ، وغالبا ما تسندها أو تتخللها الشواهد التي يرددها المحدث عن ظهر قلب ، ويقف الضيف الغريب حيالها أبدا موقف الآخذ المتعلم . ولكن هذه الأحاديث لم تتخذ يوما وجهة التنقيب عن أية مشكلة قد يتضمنها موضوع الحديث ومادته للوصول بها إلى إمكانية نقد أو تحليل داخلي للروايات المتناقلة ، بل كان المحدّث يغلق الباب على مصراعيه في وجه أي شك أو تخمين بقوله : « والله أعلم » .

فإن تطرّق الغريب إلى أخبار حياة محدّثه لم يشعر أبدا بأنه قد أثقل عليه بطرقه هذا الموضوع ، بل يتابع المحدّث كلامه دون أن يغيرّ من جده وصوته ، مادام السائل قد اكتفى بالاستعلام عن وقائع حياته الظاهرة ،

وخصوصا عن أسماء شيوخه والكتب التى قرأها عليهم، وثلة من النوادر والطرائف التى جرت معه ، وغالبا ما يكون حديثها موجزا ، بحيث لا يفقه إلا الخبير مغزاها ومعناها . فإن سئم السائل من رتابة هذه الوقائع الظاهرة ، وحاول اختراق الجدار الذى أحاط المحدّث به نفسه ، ليعلم منه شيئا مما يمكن أن ندعوه بتحليل التجارب الشخصية ، إذا به يشعر باستياء المحدث وتهرّبه من الإجابة عن هذه الأسئلة ، وقد يعوذ منها بلباقة الصمت ، ويدعمه غالباً برفع صوته، ولفظ ذلك الصوت، أو لنقل: إطلاق تلك الطرقعة ، التى رسمها اللغويون قبل ماينوف عن ألف عام بالحرفين «مض» . وبذا يدرك السائل أنه تجاوز حدود عالم لايرغب المحدث أبداً بالكشف عن خباياه . وذلك لسببين تتساوى أهميتهما حيناً وتتفاوت أحياناً ، كما ثبت لنا مراراً وتكراراً عبر السنين . ويكمن السبب الأول فى شعور المحدّث بتأنيب الضمير ،لاقتناعه بأنّ كثرة الكلام قد تفسد وتشوّه الحوادث والحقيقة أكثر مما تفيدها أو توضحها ، وكذلك فى وعيه المبهم ، بأن تحديد الاعترافات فى صورة وشكل لغوى يجعلها تحتمل معانى عديدة ، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك ، بأن تأويلها النفسى لا يتعدى إذاً مجال التخمين . أما السبب الثانى فيرجع إلى حياء المحدث وخجله من الإفضاء بأمور شخصية ، لايجوز لأدب أومؤدّب أن يطلع الناس عليها ، تمسكاً بالقول الشائع : « رأس مكارم الأخلاق الحياء » . وإننا ليصعب علينا — نحن الغربيين — أن نتصور أنفسنا فى موقف المسلمين هذا . فلقد فقدنا فى عصرنا الحاضر هذا الحسّ المرهف ، وتفشّت لدينا غوغائية لا تقدّر ولا ترعى حرمة الأدب والاحتشام والحياء .

ولقد حرص المسلم فى العصور الإسلامية حتما على توسيع حدود الحياء ، ليتسع بذلك ما استطاع حماه الشخصى . وهذا السلوك ينبع عادة من علاقة الفرد بالآخرين ، والتى تتميز بأمرين : أولهما الظاهرة التى يمكن ملاحظتها منذ أقدم عصور التاريخ ، وهى تقيّد وارتباط الفرد بالجماعة، وهذا ما يحتم بدوره وجود الظاهرة الثانية ، والتى لانزال نراها أيضا فى عصرنا هذا وفى مدننا التى تكاد تغصّ بنا، وهى التباعد الجلىّ بين الفرد والجماعة. وقديبدو هذا متناقضا للوهلة الأولى. ولكنه يرجع حتماإلى اتساع رقعة الأرض وقسوة الطبيعة والمناخ الذى يجنح إلى التطرف ، متقلباً بين القيظ والبرد . وكما علّمنا التاريخ ، فإن هذا قد أرغم البشر على الاجتماع والتعاضد من جهة ، وجعل الفرد من جهة أخرى يحرص على جعل مسافة فاصلة بينه وبين الآخرين ، لكى يصون هويته ، وخصوصا فى مجتمع يقوم على الشريعة التى تحدد وتنظم للناس جميع مجالات الحياة . ولعمرى فإن من أعظم الأمور وأجدرها بالإعجاب فى المجتمع الإسلامى ، أنه قد أفسح للفرد — على

ارتباطه — مجالا واسعا لتفتّح ذاته وانطلاقها. ولقد لعب الشعر دورا كبيراً فى التعبير عن ذات الفرد ، وتسجيل تجاربه النفسية ، مهما نأت عن الشريعة ، أو اتخذت موقفا ناقدا إزاءها. وإن هذا الدور لم يتوفّ إلى الآن حقّه من العرض والدراسة ، ولربما كان من أسباب عدم اقتضاء الحاجة فى المجتمع الإسلامى إلى ذلك التطور الذى جرى فى الغرب ، وأدّى إلى التمرد على الكنيسة ، نتيجة ضغطها على الفرد ، وتضييق الخناق على مجالات حريته الشخصية .

إن شدة اقتراب المرء من الناس تنفره عنهم ، وتريبه بهم ، وخصوصا إذا شعر أنهم يمثلون طبقة اجتماعية مسيطرة . أما الابتعاد فيؤدى إلى نوع من الحرية والصفاء وقد يقصد هذا ويفهم حرفيا ، وقد يحمل على المجاز ، وذلك على مثال النوع الأدبى الذى أحبه وتفنّن الشرقيون بحسن أدائه ، وهو المثال والحكاية الطريفة القصيرة أو الخرافة فيها يتقمّص المحدث صورة شخص آخر ويعبر عن أفكاره بلسان ذاك الشخص . أما المحيط وخلفية التجارب فقد تتطابق مع أحداث جرت فى حياة المحدث نفسه أو غيره ، ولكنه عاشها على أى حال فكرياً ومعنوياً ؛

ويمكننا أن نذكر فى هذا السياق المستشرق الألمانى الكبير Hellmut Ritter الذى اهتم بالشاعر الفارسى فريد الدين عطار ، وشرح أعماله . فإن الطريقه التى بسطفيها للقراء تلك المادة الشعرية ، لتضمن — كما أشار بنفسه إلى ذلك — كثيراً من الاعترافات والتجارب الذاتية المعنوية ، التى تتفق فى جزئياتها مع واقع حياته . وهكذا فإن تغيير الملابس والأدوار لا أهمية له فى هذا المجال ، وما ينطبق هنا على الشارح ينطبق أيضا على المؤلف والشاعر .

وقبل أن ننتقل إلى بعض الأمثلة للتدليل على ما أشرنا إليه ، أودّ أن أذكر كاتبا ألمانيا يكاد يعرف معظم الغربيين حكاياه الفكاهية وقصصه التعليمية منذ طفولتهم ، فإن بعض أفكاره حول الترجمة الذاتية قد تساعدنا فى تفهّم مسألة التراجم والسيرة الذاتية فى العصور الإسلامية. إنه الكاتب Wilhelm Busch ولقد ترجم لنفسه بعنوان « منّى وعنّى » ، وافتتح ذلك بأسلوبه المتميز بإيجازه وحسن إصابته ، قائلا :

« لا شىء يبدو على حقيقته التامة ، ناهيك عن الإنسان ، هذه التركيبة الجلدية التى تفيض بالحيل والنزوات وأقنعة الزهو والخيلاء : وكلّما أراد المرء أن يعرف شيئا اضطر إلى الاعتماد على الرأس بل الرؤوس ، وهم خدم لا يوثق بهم ، فأنّى له أن يعلم الأحداث على اليقين . ومن منا فى هذا العصر بتلك السذاجة ، حيث يصدّق أقوال التراجم ، أو تواريخ العالم . إنها كالأساطير أو الحكايا وما ذكرت الأسماء فيها ، وعيّن زمانها ومكانها ،

إلا ليسهل تصديقها . وهى شتىٌ، فقد تُروى للمتعة ، أو التعليم والوعظ ، لا ضير فى ذلك. ولكن إن لم يكن أحدنا فصيحا بليغا، ومتمرسا بشتى علوم الدنيا والآخرة، وأصرّ على الكتابة عن نفسه ، فالأوْلى له أن يوجز فى قوله» :

قد لانعثر على مثيل حرفى لهذا النص فى التراث العربى أو الفارسى والتركى ، ولكن أفكاره وميوله تتجلى فى آلاف مؤلفة من الشواهد : ولم يكن الطلاقى من هذا الأديب الألمانى صدفة أو عبثا ، فلقد حدّث عن ذكريات طفولته حادثة مهمة ، وقال :

« ما عسانى أعرف عن العام الثالث من عمرى ؟ لقد كان خادمنا Heinrich يصنع لى مزامير جميلة ويعزف عليها، والعشب فى الحديقة كاد يطاولنى ، والبازلاء أطول منى ، وخلف البيت المسقوف بالقش ، وإزاء البئر ، كان هناك دلو كبير ملىء بالماء، تحت فيه أختى الصغيرة ملقاه كصورة فى إطار : وعندما أتت أمى ، لم تستطع إعادتها إلى الحياة . »

إن حادثا مشابها لهذا قد حصل مع الشيخ السويدى من أهل بغداد ، وهو ابن أخ الشيخ السويدى الذى تلقى عليه العلم العلامة الألمانى Hellmut Ritter عام ١٩١٦ فعندما كنا أزور معه مرة قبر عمه فى مقبرة الشيخ معروف الكرخى القديمة الشهيرة فى كانون الثانى من عام ١٩٦٢ ، سألته عن أقدم ذكريات طفولته ، فأجاب :

« لقد كان لى أخ أكبر منى ، وقد حفظ القرآن على جدنا . وذات يوم رأيته ملقى فى الحوض أمام بيتنا ، وبدا فيه أصغر منى ، وظل على حاله حتى انتشله الناس منه، وبعد العصر بدأت بحفظ القرآن على جدّنا . »

كلاهما — الألمانى والبغدادى — يربطان بالحادث تجربة فيزيائية ، اتضحت أبعادها لهما فيما بعد : وبينما يلعب حجم جسم البغدادى بالنسبة إلى أخيه الغريق والأكبر منه سنا دورا مباشراً ، نجده لدى الألمانى فى طرف الرواية، وقد حرّكته التأملات المتأخرة . ومثل هذه التأملات هى التى تسود حادثا جرى فى طفولة النحوى الشهير أبى العباس ثعلب (توفى ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م)، فهو يقول :

« رأيت المأمون لما قدم من خراسان ، وذلك فى سنة أربع ومائتين ، وقد خرج من باب الحديد وهو يريد قصر الرصافة والناس صفان إلى المصلىّ . قال : وكان أبى قد حملنى على يده ، فلما مر المأمون رفعنى على يده وقال لى : هذا المأمون وهذه سنة أربع ؛ فحفظت ذلك عنه إلى الساعة ، وكانت سنى يومئذ أربع سنين . »(الفهرست ٧٤ = المرزبانى ٣٣٤ . القفطى ١ / ١٥٠، ياقوت ٢ / ١٣٤ وما يليها ، وقارن ابن طيفور ورقة ١ ب وما يليها) .

إن الفرق بين هذين العربيين وبين الألمانى هو فى المتابعة : فبينما ظلت حكايتهما منفردة ،

ذكرت مثالا ذا أهمية عامة ، أو تحديدا تقريبيا لتاريخ ولادة ، نجد حكاية الألماني تتصدّر حكايات متكاملة عديدة أخرى ، وكلها لاتستند إلى أعماله الأدبية — إن أمكن ذلك أصلا — ولكنهما بمجموعها تكوّن سيرته الذاتية ، التي دفعه إلى تدوينها كتابة الناس عنه. أما أمر المسلمين ، فيختلف عن هذا تماما . فكل حكاية شخصية ترتبط لديهم بتحصيل العلم أو التعليم والتأليف ، ولا تُروى للرواية بحد ذاتها . فإن بدا الأمر مرّة كذلك فإنما يكون السبب الحقيقي مضمراً ولنأخذ مثلا حديث ياقوت الحموى (فى معجم البلدان ٣ / ٢٣٠ ، مادة الشاذياخ) عن غرامه بالجارية التركية وماجرّه عليه . . . أو تصريح القفطى (إنباه ٤/ ٧٧) بما خالجه من مشاعر ، عندما التقى فى مدينة حلب بالعالم الكبير ، والعسير الخلق والمعاشرة ، يا قوت الحموى ، فإن هاتين الملاحظتين الشخصيتين تهدفان الدفاع والتبرير ، فملاحظة الأول تبرر بدأه بالتقصير فى عمله العلمى ، وملاحظة الثانى تعلل قصر إقامة ياقوت فى حلب . وكلاهما تنشدان فى الوقت ذاته العبرة والمثال للقارئ .

وقبل أن نقترب من نهاية حديثنا ، يمكننا أن نتعرض لجانب آخر ، ونذكر مثالا يبين أن العصور الإسلامية لم تخل مع ذلك تماما من خيلاء العلماء ، المستتر منه أو الظاهر

وقد يساعدنا هذا المثال أيضا على الإجابة عن سؤال هام فى تاريخ الأدب ، تطرحه علينا دوما رؤية معاجم الرجال الشاملة الضخمة « كالضوء اللامع » مثلا فى مضمار القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، لمؤلفه السخاوى (٨٣٠ هـ / ١٤٢٧ م — ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) ، وهو : كيف تمكن عالم أن يجمع بمفرده كل هذه المواد الموثوقة ؟ أو بشكل آخر : ما هى الطريقة التى اتبعها مصنفو كتب التراجم ، ليتمكنوا من جمع كل هذه الأسماء والتواريخ وعناوين الكتب ؟ لا شك أنهم تنقلوا كثيراً ، وحصلوا مشافهة على كثير من المعلومات ، واستفادوا مما عثروا عليه من تقييدات وإجازات على ظهور المخطوطات ، أو وجدوه على أحجار القبور وما شابه ذلك . ولكن هذه المواد خاضعة للصدفة ، وهذا يتعارض إلى حد مّا مع منهجية التراجم المفردة الثرّة ، فلا بدّ أن المصنفين قد اعتمدوا أيضا على مصادر وأوراق أخرى. وإن الترجمة الذاتية للمحدث الشهير ومؤرخ مسقط رأسه زبيد فى تهامة اليمن وجيه الدين أبى محمد عبدالرحمن بن على المعروف بابن الديبع (٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م — ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م) ، والتى وصلت إلينا أيضا فى مخطوطة محفوظة فى مكتبة برلين ، كُتبت فى حياته . . أقول : إن هذه الترجمة

تقدم لنا إشارة إلى ذلك، فهى تتفق فى نواتها مع الترجمة الموجزة له التى خلفها لنا الشيخ السخاوى فى كتاب « الضوء اللامع »، (٤ / ١٠٤ ومايليها ، رقم ٢٩٥) . ولاشك أن السخاوى قد طلب منه أن يخط له ترجمته ، وذلك لما ورد مكة المكرمة حاجاً فى الثلاثين من عمره ، وبقى فيها فترة يتردد على دروس الشيخ السخاوى، الذى يكبره بجيل من الزمن، وهذه الترجمة هى التى بدل السخاوى صيغة المتكلم فيها إلى صيغة الغائب، وضمنها كتابه وما أقرب الاستدلال على أنه قد فعل ذلك أيضا مع بقية تلاميذه وزملائه ومعارفه . ولقد ألحق بها تسعة أبيات ، كان ابن الديبع قد أنشدها بحضرته وخطها بيده . ويتضمن البيت الأخير مدحاً صريحاً له ، ولعله قد ألحق هذه الأبيات لهذا السبب ، أى لتترنم نفسه بهذا المديح. ولكن ألم نطرق نحن الآن باب الإجحاف والتكهن بأمور شخصية ، لا يعلم حقيقتها إلاالله وحده، فالأولى بنا أن نقطع حديثنا ونكتفى بهذا القدر ، والسلام عليكم .

رودلف زلهايم
عضو المجمع المراسل
من ألمانيا الاتحادية

اشارات الى المصادر والمراجع

١ – راجع من أجل ترجمة ابن الديبع Rudolf Sellheim; Die Autobiographie des Ibn ad-Daiba والذى نشر فى كتاب Folia Rara. Festschrift Fuer Wolfgang Voigt الصادر فى مدينة ڤيسبادن عام ١٩٧٦ ، ص ١١١ – ١١٩ .

٢ – ترجمة Wilhelm Busch الذاتية ، عنوانها Von mir ueber mich ونشرت فى مدينة ليبزج عام ١٩٥٦ فى سلسلة Insel-Buecherei رقم ٥٨٣

٣ – راجع من أجل فريد الدين عطار Hellmut Ritter فى كتابه Das Meer der Seele. Mensch, Welt und Gott in den Geschichten des Fariduddin Attar والذى نشر فى مدينة ليدن عام ١٩٥٥

٤ – وكذلك سلسلة مقالاته بعنوان Philologika فى مجلة Der Islam ٢٥ / ١٩٣٨ / ١٣٤ – ١٧٣ ، وفى مجلة Oriens ١١ / ١٩٥٨ / ١ – ٧٦ و ١٢ / ١٩٥٩ / ١ – ٨٨ و ١٣ – ١٤ / ١٩٦٠ – ١٩٦١ / ١٩٥ – ٢٣٩ .

٥ — وانظر من أجل ياقوت والقفطي مقاله Rudolf Sellheim في مقاله Neue Materialien zur Biographie des Yaqut الذى نشر في مدينة ڤيسبادن عام ١٩٦٧ بعنوان Schriften und Bilder. Drei orientalistische untersuchungen في سلسلة Verzeichnis der Orientalis tischen Handschriften in Deutschland ملحق رقم ٧ ، ص ٤١ / ٧٢ .

٦ — ومن أجل موضوع الترجمة الذاتية ، راجع Franz Rosenthal في مقاله Die arabische Autobiographie ص ١ — ٤٠ في الجزء الأول من الكتاب الذى نشره مع W.J. Fischel و G. Von Gruenebaum في مدينة روما عام ١٩٣٧ ، سلسلة Analecta Orientalia رقم ١٤ .

٧ — وكذلك كتابه A History of Muslim Historiography الصادر في مدينة ليدن عام ١٩٦٨ (الطبعة الثانية) ، وخصوصا ص ١٠٠ — ١٠٦ .

٨ — وكذلك مقال Carl Brockelmann بعنوان : ما صنفه علماء العرب في أحوال أنفسهم ، ص ١ — ٢٣ من كتاب : المنتقى من دراسات المستشرقين ، نشره صلاح الدين المنجد الجزء الأول : القاهرة ١٩٥٥ .

٩ — E.M. Sartain في كتابها The Life of Jalal al-Din al-Suyuti في جزأين نشرتهما جامعة كمبردج عام ١٩٧٥ في سلسلة University of Cambridge Oriental Publications رقم ٢٥ .

١٠ — Georg Misch في كتابه Geschichte der-Autobiographie وخصوصا فصل Selbstdarstellungen von Traegern des geistigen Lebens in dem mittelalterlichen Kulturbereich des Islam ص ٩٠٥ — ١٠٧٦ في المجلد الثالث ، النصف الثانى من القسم الثانى ، والذى نشر في مدينة فرانكفورت عام ١٩٦٢ .

١١ — G.E. von Grunebaum في كتابه Der Islam im Mittelalter نشر في مدينتى زوريخ وشتوتجارت عام ١٩٦٣ ، وانظر خصوصا الفصل السابع Das Menschenideal والثامن Selbstdarstellung : Literatur und Geschichte

١٢ — وكذلك مقاله Von Sinn und Widersinn der Biographie في مجلة Mitteilungen des Oesterreichischen Staatsarchivs (Festschrift Hanns Leo Mikoletzky) ٢٥ / ١٩٧٢ / ٤٣٧ — ٤٤١

١٣ — Bruno Liebrucks في مقاله Das nicht automatisierte Denken في كتاب Philosophie in Selbstdarstellungen نشره L.J. Pongratz في مدينة هامبورغ ١٩٧٥ ، الجزء الثانى ص ١٧٠ — ٢٢٣ .

قصة العامية في العراق : تاريخها وواقعها

للدكتور ابراهيم السامرائي

ليس كلامي على العامية ضربا من التعصب لها والاهتمام بها ، ولست أرى أنها وجه من وجوه الإعراب عن المعاني التي نمتّحن بها في عصرنا هذا ، ولكني أبحث فيها على أنها ظاهرة لغوية لابد أن نقف عليها وقفة خاصة . ثم إن فينا حاجة إلى أن نعود إليها لأنها تحمل الضيم على فصيحتنا التي نجهد أن تكون لغة العصر ولغة الحضارة الجديدة وأن نعيد لها شيئاً مما كان لها من المكانة والثروة والسعة طوال عصور مضت . لقد كانت لغة الدنيا المتحضرة ، لغة العربي وغيره مسلما كان أم غير مسلم .

ثم لابد من العود إلى العامية فاذا أقول ؟ لقد كانت لغات عامية طوال عصور عدة ومن غير شك أن العصور العباسية قد شهدت هذه الأنماط العامية ، وأن كتب الجاحظ لدليل وشاهد على أن البصرة والكوفة وأمصارا أخرى كانت تصرّف أمورها في عاميات تقرب وتبعد عن اللغة الفصيحة . لقد ذكر الجاحظ أن يزيد بن مُفرّغ الحميري الشاعر وقد اقتيد في شوارع البصرة وهو على حمار لأنه نال من زياد بن سُمية . كان الأطفال يهزأون به مرددين كلاما فارسيا وهو يجيبهم بالفارسية مُعرّضاً بأم زياد سمية واصفا إياها بـ« روسبي » أي البغيّ .

وحسبك أن تعرف أن للفارسية تأثيرا كبيرا في لغة البصرة ، فقد شاع في أعلامها البلدانية طريقة في التسمية جرت على النحو الفارسي ؛ وهي الأعلام المختومة بألف ونون مثل : زُبَيران وهو موضع منسوب إلى الزبير ، ومنه عثمانان وطلحتان وزيدان ومُهلّبان وقُتيبان وحمرانان وغيرها كثير أيضا . وهي منسوبة إلى عثمان وطلحة وزيد والمهلّب وغيرهم . ولقد استوفاه البلاذريّ

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة السبت ٩ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨هـ — ١٨ من مارس سنة ١٩٧٨م) .

فى « فتوح البلدان » وعنه أخذها ياقوت فى « معجمه » .

ومازال شئ من هذا فى أيامنا هذه يحمل هذا الوسم الأعجمى فى أعلامهم ، فنحن نجد اليوم :

"يوسفان و «جتيبان» بجيم أعجمية أو كتيبان بالكاف ، ومن غير شك أنها قُتَيبان القديمة التى مرّ ذكرها ، وعُوَيسبان ولاأدرى إلى من نسب هذا المكان ومثله «مهيجران» بإمالة الياء ، وأكبر الظن أنه « مهاجران » منسوب إلى «مهاجر» وهو أحد من الناس نجهله .

وقد عرّض الجاحظ فى «البيان» بلغة الكوفة وأشار إلى عاميتها وشيوع الدخيل الأعجمىّ فيها فقال : إنهم يسمون السوق «وازار» والمربّعة «جهارسو» والقثاء « خيار» وغير هذا جد كثير .

ومن المفيد أن أشير إلى أن لغة العراق فى البصرة والكوفة وفى غيرهما من الأمصار قد داخلتها الألفاظ الأعجمية وشاع فيها اللحن ، كما حدثتنا المصادر . ولابد لى من أن أتبين أن مايتصل بالحرف والمهن من اللغة المحكية كان عامرا بالدخيل الأعجمى ، ومن ذلك ألفاظ الملاحة والفلاحة وسائر الصناعات الأخرى .

ألاترى أن العراقى البصرىّ إلى يومنا هذا يستعمل البَرْبَنْد وقد حولها إلى «فَرْوَند» وهى الأداة المستخدمة فى صعود النخل ، وهى من غير شك فارسية محضة . وأن الكوفىّ وغيره من سكان المناطق الوسطى كبغداد مثلا يستعملون التَبَلْيا للآلة نفسها وقد ذكرهما الجاحظ « فى البخلاء ».

والتبليا آرامية محضة ، ومثله «السُكّان» لسكان السفينة و «التوخداه» للعامل فى السفينة «والمردى» الذى يدفع به الملاح سفينته وكذلك «شكاره» لقطعة صغيرة من الأرض تزرع فتعود غلّتها إلى أحد من الناس يخصونه بها كما يفعل المزارعون ، أى يعطونها إلى العامل فى المضخة أو لرجل الدين الذى يساكنهم أو لغيرهما من خاصّتهم . وهى كلمة آرامية استعملها العرب ومازالوا يستعملونها فى العراق .

ولولا أنى أخشى الإطالة لأتيت بنماذج كثيرة من هذه البقايا الآرامية التى مازالت حيّة فى العامية الدارجة فى كثير من حواضر العراق ولاسيا مدينة الموصل الشهيرة .

ومثل هذا « التالة » أى النخلة الصغيرة وقد استعملها الزمخشرى فى «الأساس» فى حشو مادة من المواد . ومثل هذا «الكش» أى غبار الطلع ولم ترد فى المعجمات ، غير أن صاحب « لسان العرب » قد ذكرها فى حشو مادة «حرق » وحرق النخلة ألقى الكشّ فيها .

وأظن أن الكلمة الأعجمية كانت بالجيم على نطق عامة المصريين وهى الكاف الثقيلة التى تشبه القاف كما جاء فى كتب اللغة . وهذا يدل على أن هذا الصوت الذى خلت

منه العربية الفصيحة وثبت فى اللغات السامية كان عامرا فى العربية العامية .

ولا أريد أن أقصر العامية العراقية فى بدايتها وشيوعها على العصور العباسية ولعلها ورثت شيئا من ذلك فى عصور سلفت. ولعلى أستطيع أن أقول : إن شيوع اللحن كان علامة بارزة فى هذه العاميات التى عمّت بلادالعرب وتجاوزت ذلك مشرقا ومغربا .

إذا لم يكن شئ من هذا فلِمَ كانت عنايتهم بلغات الأمصار والأقاليم والقبائل ؟

ولمَ أخذوا اللغة والشعر عن قبائل بعينها ولم يأخذوا ذلك عن قبائل معروفة لم يتوسموا فيها الفصاحة لخلاط أهلها بأقوام ليسوا عربا ، وقد حمل ذلك الضيم على عربيتهم. ألم يتجنبوا الأخذ عن قبائل الشحر وتغلب وطائفة من قبائل اليمن مثلا ؟

ثم لِمَ وسَمُوا طائفة من القراءات بالشواذ وأنهم منعوا بل حرّموا أن يقرأ بقراءة الأعمش وغيره من أصحاب القراءات النادرة. أليس هذا لأن هذه الأنماط اللغوية قد حفلت بخصائص تتصل بالأصوات والأبنية مما لا تعرفه العربية الفصيحة التى ارتضوها أن تكون المثل المفضل والنموذج الذى ينبغى أن يسود ويشيع .

أقول : من أجل هذا عُنى المتقدمون بتسجيل النماذج اللغوية والأدبية التى وسمت بخصائص من لغة العامة . وإنى لأظن أن المفضل بن سلمة حين عقد فى كتابه الفاخر باباً لـ« ماجرى على ألسنة العامة من أمثال» كان يرمى إلى هذا، وأظن أن هذا الذى جرى على ألسنتهم من المثل لا يخلو من سمات تتصل باللحن،ومن أخرى غيرها تتصف بالخروج عن الابنية المعروفة فى العربية .

ثم لننظر إلى باب الإدغام فى كتاب سيبويه لنتبين أنه ضبط من صفات الأصـوات وأحوالها ما نستطيع أن نزيد فى القدر الذى نعرفه فى التسعة والعشرين حرفاً . ألم تكن طرائق النطق لهذه الأصوات التى نيّفت على الأربعين شيئاً مما كان يباشره المعربون ؟

ألم يُشِر ابن جنى فى « المحتسب » أن الحسن البصرى قد قرأ « تَنَزَّل الشياطون » ؟

إن النماذج التى أثبتها الجاحظ فى كتبه عن هذا الموضوع لدليل على شيوع ألوان من الإعراب العامى فى حواضر عدة فى العراق وغيره . لقد ذكر أن اللحن تجاوز الحواضر حتى كان شىء منه قد عرض للغة الأعراب ، وهم الذين أخذت عنهم العربية . لقد أشار إلى أن أحداً قال « عصاتى » وهو يريد « عصاىَ » وفى غير شك أن هذه الطريقة العامية هى التى بقيت فى كثير من لهجاتنا المعاصرة .

ولقد بقيت العامية إلى جوار الفصيحة فى العراق طوال العصور العباسية،وهكذا كان

الأمر إلى نهاية عصر الدولة العثمانية . وفى هذه الحقبة المتأخرة لم يبق للفصيحة من القدر ما كان لها طوال العصور المتلاحقة بسبب من شيوع الأمية والجهل وتضاؤل التعليم، فقد اقتصر على طائفة قليلة فعفت دور العلم وقلت المدارس، وانتهى الناس إلى أمية شاملة .

ثم جاء العصر الحديث ونظر أهل العلم فى حال العربية الفصيحة ،وكيف لها أن تواجه العصر الحديث بعلومه وفنونه . ولقد واجهوا مشكلة العامية وشقّوا بها كما شق أسلاف لهم من قبل؛ولقد انصرف اهتمامهم بهذه المشكلة إلى أن ينظروا فى العامية ويكتبوا فى موادها وتاريخها اعتقاداً منهم أن ذلك شىء تحملهم عليه عنايتهم بـ « الفصيحة » . ولاأود أن أقول « الفصحى » وأنّى لنا هذه الفصحى ونحن نلوك عامية مرذولة ؟ لقد وصل الأمر —أيها السادة الأكرمون— إلى أن خطيب المسجد الجامع فى خطبة صلاة الجمعة يستعمل فى خطبته ويقول :

« إن العناصر الكفوءة (كذا) على مستوى المسئولية » ، وقوله : « إنهم ينطلقون من أرضية صلبة » ومثل هذا كثير غيره . ولست أجنّبه اللحن الذى يعرض لكثير من ألفاظه . لقد أشار ابن جبير الرحالة المعروف إلى شىء من ذلك منذ قرون عدّة .

أعود إلى العامية العراقية المعاصرة فأقول : إن جمهرة من أهل العلم فى عصرنا قد كتبوا فيها وليس ذلك تعصباً لها ودفاعاً عنها ولكنه اجتهاد منهم فى أن ذلك يخدم الفصيحة التى هى الغاية المرجوة . لقد كان بين هؤلاء فلان وفلان من صفوة الأسرة الآلوسية الشهيرة، وكان بين هؤلاء الزهاوى والشبيبى والرصافى وهم جلة العلماء والشعراء . وقد سبق هؤلاء الرجال الشيخ الطالقانى والسيد مصطفى الخليل الكرخى والسيد عبد اللطيف ثنيّان والأب أنستاس مارى الكرملى وغيرهم . ولا نشك فى أن هذه الصفوة من العلماء قد شاركوا مشاركة جادة فى خدمة العربية الفصيحة قبل اهتمامهم بهذه العامية .

لقد تناول هؤلاء ألوان العامية بالبحث والدرس من شعر ومثل وأساليب وألفاظ . ولقد بلغ من عناية أحدهم وهو عبد اللطيف ثنيّان أن صنع معجما للألفاظ العامية البغدادية . ثم خلف من بعد هؤلاء نفر استأنفوا العمل منهم : الشيخ جلال الحنفى وعبدالرحمن التكريتى وغيرهما .

ونستطيع أن نلمح فى العامية العراقية ثلاثة أنماط هى :

النمط الجنوبى والنمط الأوسط والنمط الشمالى . وفى كل واحد من هذه نتبين أنه يشتمل على لون حضرى وهو ما يعرف به أهل الحواضر، ونمط ريفى قروى . ولا نغفل أن يكون فى النمط الجنوبى لون بدوىّ يتبيّن فى البادية الجنوبية التى هى ليصق بمشارف القرى —

والأرياف الجنوبية . ومثل هذا واضح كل الوضوح فى النمط الأوسط والنمط الشمالى . ولعل من العسير علينا أن نصل إلى خرائط واضحة فى الأطلس اللغوى الذى يبرز هذا التوزيع الجغرافى،وذلك لتداخل هذه المواد من حيث الخصائص اللغوية أصواتاً ودلالات .

ومن المفيد أن أشير إلى أن لغة بغداد العامية شيء لايمكن وصفه وضبطه لأن هذه المدينة الواسعة قد التقت فيها عناصر شتى من حضريين من الحواضر العراقية المختلفة وقرويين وبدو وعناصر أخرى غير عربية . ولا أريد أن أغفل ذكر الدراسة التى صنعها المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون ونشرها بالفرنسية منذ أكثر من خمسين سنة ثم ترجمها قبل أكثر من عشر سنوات الدكتور أكرم فاضل العراقى ، وهذه الدراسة قديمة قد تكون غير وافية بالمطالب العلمية فى عصرنا هذا . إنها تقصر فى كثير من الضرورات اللغوية .

ثم إنى أستطيع أن أقول : إن جمهرة هذه الأنماط تميل إلى التقارب ، وذلك بفضل الاتصال بين أهل هذه الأقاليم بسبب شيوع وسائل النقل المختلفة وبسبب تبدل أنماط الحياة الجديدة التى تقتضى السفر والتنقل . ثم إن هناك ما ندعوه بـ « وسائل الإعلام » — وما تفرضه من نمط لغوى يميل بهذه الأنماط إلى أن تكون متقاربة بعضها من بعض .

ولا نغفل عامل التعليم فالمدرسة قد قرّبت بين هذه اللهجات وجنحت بها إلى الفصيحة.

وقد دفعت بدفعة من طلابى وهم من بيئات مختلفة فى الشمال والوسط والجنوب من العراق وطلبت إليهم أن يضبطوا الألفاظ الفصيحة التى دخلت فى لغات المدن الصغيرة والقرى والأرياف . لقد انتهوا فى استقرائهم إلى نتائج مفيدة كل الفائدة . وحسبك أن تعلم أن كلمات كثيرة نحو : البرنامج والحفلة والاحتفال والاجتماع والجماهير والجماهيرية وغيرها هى من ألفاظ أهل القرى الجنوبية مثلا وهم سكنة الأهوار . ولقد كان هؤلاء قبل أربعة عقود من السنين منقطعين كل الانقطاع عن كل ضرب من ضروب الحضارة .

وربما كان من العسير على الموصلى مثلا أن يفهم ساكنى الأهواز ما يريد ، كما لايفهم الموصلى نفسُه ما يدرج به هؤلاء الجنوبيون.

ثم ما حال العربية الفصيحة اليوم مع هذه العامية ؟

أقول إن للفصيحة ، كما يعلم الأساتذة الأجلاء ، قوة تجعل منها أداة فاعلة لاتكتفى بالمقاومة والوقوف ، فهى لاتنحسر أمام العامية . ولقد رأينا أن العامية قد أخذت الكثير من الفصيح ومازالت تأخذ منه كل يوم . وقد يكون هذا الفصيح مفروضاً علينا .

غير أن الفصيحة تعانى من مشكلات كثيرة أهمها أننا مازلنا نجهل الكثير من وسائل تعلم هذه اللغة ولا سيما نحوها . وكأن النحو مادة لا علاقة لها باللغة يقرؤها الطالب فيضيق بها ذرعا فلا تدخل فى سلوكه اللغوى . ومن ثم يشيع اللحن والخطأ ويصبح هذا اللحن والخطأ كأنه اللغة الفصيحة ويتردد هذا النمط من الخطأ المسموع ، وكأن فى أنفسنا ميلا إلى

الأخذ به بل نهمّ إلى هذا الأخذ نحن الذين تدعو إلى الفصيح ..وبذلك تكون لغة جديدة هى العامية الفصيحة،أو بعبارة أخرى هى العامية الجديدة .

أليس من العامية أن تشيع النسبة إلى الحياة فتكون « حياتىّ » وتسود حتى ليخيل إلى عضو مجمعىّ من أساتذة الأدب أن يكتبها فى مقالة له نشرت فى الجزء السادس والثلاثين من مجلة مجمع اللغة العربية فى القاهرة وُسِمت بـ « الحركة الانقلابية الأخيرة فى نظام الشعر العربى » .

لقد قال فى الصفحة الثامنة والستين :

« . . . . . أو الحالات الحياتية » .

كأن هذا المجمعىّ المرجّوة له الرحمة يجهل « الحيوية » وهى النسبة الصحيحة الفصيحة إلى الحياة . ولا أريد أن أقف على قوله فى أول هذه المقالة « الغرض الرئيسى » ؛ كأن الغرضَ منسوب إلى رئيس من الرؤساء وقد فاته أن « الرئيس » وهو وصف هو الصحيح المطلوب،وبذلك يغنى عن هذا المنسوب خطأ إلى الرئيس،وذلك أن العربية تُحوّل الاسم إلى صفة إذا أريد الوصف فتُلحق بالاسم ياء النسبة؛نحو فلان المصرىّ وفلان البغدادىّ .

ومن نماذج هذه الأوهام الجديدة التى وُسمت بها فصيحتنا الجديدة التى كادت أن تكون فصيحة عامية ما يشيع من كلمات منسوبة إلى المفرد وحقها أن تنسب إلى الجمع ؛ يقال : الصراع الطبقىّ وهو صراع بين الطبقات والقانون الدّولى والعلاقات الدّوليّة ، وهو القانون الدُّولى نسبة إلى الجمع والعلاقات الدُّوليّة نسبة إلى الجمع أيضاً .

والمراد هنا الجمع ؛فالقانون يسرى على الدُّوَل جميعها لا على دولة واحدة،والإشارة إلى الجمع هى المتطلّبة :

وكأنّ هذا الذى استساغ هذا الأسلوب فنسب إلى المفرد قد اعتمد على كتب النحو المدرسية فلم يتجاوزها إلى استعمال الفصحاء ، وفاته أن ليست اللغة محكومة بقاعـدة صرفية،وقد اقتضت الحاجة أن ينسب إلى الجمع واللغة يسر لا عُسر . ألم يَشيع فى كتب الرجال : فلان الطوابيقى وفلان الجلودىّ وفلان الأنماطىّ وفلان القُدورىّ وفلان الإبَرىّ . وعلى هذا جرى أبو الفتح عثمان بن جنى فسمى كتابه « التصريف الملوكىّ » ومـاذا يقال فى استعمال يذهب إليه هذا اللغوى الكبير ؟

ثم أليس من العامية الجديدة أن يؤنث « البلد » و « الرأس » وهما مذكران؟ وقد سمعتهما أمس الجمعة فى خطبة الصلاة . قال الخطيب : « يحتلون البلد ويدمرونها » .

وقد نسيت الجملة التى وردت فيها كلمة « الرأس » مؤنثة . أليس هذا من زحف العامية المصرية على الفصيحة ؟ وبذلك تهيأ لنا نمط جديد هو الفصيح العامى .

لعل القارئ يقول : إن هذا فى لغة مصر العامية المعاصرة وليس فى العراق .

والجواب عن هذا هو كالآتى : إن شيئاً مثل هذا يكون فى العامية العراقية، وقد غزا الفصيح أيضاً ومنه « البطن » مؤنثاً وهو مذكر ، و « السوق » مذكر وهو مؤنث . ومثله البئر والساق وغيرها كلها صارت مذكرة فى اللغة المحكية وفى الفصيح الجارى على ألسنة المتكلمين وفى كتاباتهم .

ولابد من رجعة إلى النسبة ؛ إنى أسمع من محطة الإذاعة فى بغداد وأقرأ فى الصحف كلمات هى : « التنموية » نسبة إلى « التنمية » والتصفوية نسبة إلى « التصفية » ، ثم قالوا : « التسووية » نسبة إلى « التسوية » . وقد كان للناس شىء من هذا فى مطلع هذا القرن درجوا عليـــه فنسبوا مثلا إلى « التربية » فقالوا : « علم النفس التربوى » .

أقول : إن فى العربية سعة وفنونا من الاستعمال فإذا تعسر بناء من الأبنية أو ثقل أسلوب من الأساليب صار المعرب إلى شىء آخر . أليس سهلا أن تلجأ إلى أسلوب الإضافة فنقول : « أنظمة التسوية » بدلا من « الأنظمة التسووية » ، والإضافة تؤدى مايؤديه أسلوب النسب وبذلك نتخلص من الثقل البغيض الحاصل من اجتماع الواوين فى حشو الكلمة الواحدة وهو « التسووية » .

ومن سطوة العامية وجورها على الفصيحة الجديدة أن قانوناً صدر فى العراق لاحتساب مدة الدراسة التى يقضيها الموظف الذى ترك وظيفته بسبب الالتحاق إلى معهد أو كلية وبعد أن أنهى الدراسة عاد إلى وظيفته . فكيف تحتسب هذه المدة فى الخدمة التقاعدية ؟ وماذا جاء فى هذه المادة القانونية ؟

لقد جاء فيها : « تحتسب المدة الأصغرية . التى يقضيها الموظف فى الدراسة للحصول على شهادة من الشهادات » . أى أنهم احتسبوا أصغر مدة تتطلبها الشهادة مطروحة منها أشهر العطلة الصيفية الأخيرة مثلا .

أقول : إن هذه « الأصغرية » وهى صفة إلى المدة مظهر من مظاهر العجمة بل غيبة للفصاحة . لقد لجأوا إلى النسبة حتى يتهيأ لهم منها أن تكون الكلمة صفة ، وفاتهم أن الصفة الفصيحة المتطلبة فى هذا الاستعمال « المدة الصغرى » مؤنث « أصغر » مفيدة للتفضيل المطلوب ، ولا حاجة الى هذه النسبة التى أحالت الاستعمال إلى نمط عامىّ أعجمى . ومثل هذا ما يقوله كبار السياسيين وينشر ، قولهم فى الصحف « الدولتان الأعظم » فأين حكم الصفة ؟ أليس هذا من الجهل باليسير من النحو العربى فى موضوع مطابقة الصفة الموصوف ؟

هذه عامية جديدة ما أريد لنفسى أن أتوسع فيها . ولولا حرصى على الوقت لأفضت

فيها أيمّا إفاضة وبذلك يتهيأ لى معجم صغير أدعوه « معجم الفصيحة العامية » .

ولا أرانى شديداً أحجرُ على المعربين وأضيّق عليهم ، ولسنا وحدنا ، نحن أهل الحفاظ على الفصيحة ، فى سلوك هــذه السبيل ، ولنا فى غيرنا من الأمم الغربية أسوة حسنة .

لقد صدر فى العراق قانون سلامة اللغة العربية للحفاظ عليها من غائلة العامية. وما أظن أن غير العمل الجاد المنظم عاصم لهذه اللغة الكريمة .

ولئن أطلت عليكم فأسرفت ؛ فعذيرى سماحة وكرم فيكم ، والسلام عليكم .

ابراهيم السامرائى
عضو المجمع المراسل من العراق



موسوعة
أعيان القرن الثاني عشر الهجري
للدكتور إسحاق موسى الحسيني

استرعى نظرى ظاهرة خليقة بالتأمل من ثلاثة جوانب :

الأول : تعاون عدد من علماء القرن الثانى عشر للهجرة فى تصنيف « موسوعة » لتراجم معاصريهم .

الثانى : دحض زعم سمعناه مفاده أن العقلية العربية فردية لاتتعاون ولاتتآلف .

الثالث : غزارة التراث الإسلامى الذى مازال محجوبا عنا .

وهذه الأمور حفزتنى إلى تقديم هذا البحث إلى مجمعكم الموقر .

قطب الرحى فى هذه الموسوعة محمد خليل المرادى الدمشقى صاحب « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » (١١٧٣ — ١٢٠٦هـ) .

رغب المرادى فى أن يشترك عدد من علماء الأمصار الإسلامية فى تصنيف «موسوعة» تضم تراجم الأعيان من شعراء وفقهاء وعلماء ، كل فى بلده وفى حدود مايصل إليه علمه .

يقول الجبرتى « كان — المرادى — مغرما بصيد الشوارد وقيد الأوابد واستعلام الأخبار وجمع الآثار وتراجم العصريين على طريق المؤرخين . وراسل فضلاء البلدان البعيدة ووصلهم بالهدايا والرغائب العديدة والتمس من كل جمع تراجم بلاده وأخبار أعيان أهل القرن الثانى عشر (١)

وكرر هذا القول عبد الرزاق البيطار (١٢٥٠ — ١٣٣٥هـ) فى كتابه (حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر) الذى طبع أخيرا فى دمشق بعناية المرحوم الشيخ بهجة البيطار ، ولاأستطيع أن أجزم بمن بدأ

(٭) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة الاثنين ١١ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨هـ — ٢٠ من مارس (آذار سنة ١٩٧٨م)

(١) وردت النقلة فى حوادث سنة ١٢٠٦ عند ترجمة المرادى ، وآثرنا الإشارة إلى التاريخ بدلا من صفحات الكتاب لتعدد طبعاته .

المرادى بالمراسلة . لذا أعرض المؤلفين بالتسلسل التاريخى .

راسل السيد محمد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، فى أثناء مقام السيد فى القاهرة التى قدمها سنة ١١٧٦ هـ سنة مولد الجبرتى — «والتمس منه أن يجمع تراجم المصريين والحجازيين ومن للأستاذ الوقوف على ترجمته وحاله من أهل الأمصار». فأجابه الزبيدى لطلبته وشرع فى جمع المطلوب بمعونة تلميذه المقرب إليه ، عبد الرحمن الجبرتى — وكان يومذاك فى فى العقد الثالث من عمره أو نحو ذلك .

وتابع المرادى السيد الزبيدى بالمراسلات وأتحفه بالصلات المترادفات كي ينجز وعده . ومن ذلك رسالة مؤرخه فى آخر ربيع الثانى سنه ١٢٠٠ هـ أثبتها الجبرتى فى كتابه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) فى حوادث سنه ١٢٠٦هـ.

وكانت حصيلة ماجمعه الزبيدى عشرة كراريس رتبها على حروف التهجى وسماها (المعجم المختص) ذكر فيها شيوخه ومن أخذ عنه أو جالسه من رفيق وصاحب من أهل الروم والشام والحجاز والسودان .

وتوفى السيد الزبيدى سنة ١٢٠٥ هـ . وكانت أوراقه مختوما عليها . وعندما وصل نعيه إلى المرادى بادر إلى إرسال كتاب إلى الجبرتى على يد التاجر القباقبى يستدعى تحصيل ماجمعه الزبيدى من أوراق وضم ماجمعه الجبرتى نفسه وإرساله إليه ، وسبب كتابته للجبرتى ماعلمه من أن الزبيدى ترجمه وذكر أنه أعانه على جمع التراجم .

وجمع الجبرتى الكراريس ونظر فيها فوجدها « ناقصة وفيها بياضات كثيرة» وقرأ التراجم فلم ترقه "لأن غالب مافيها آفاقيون من أهل المغرب والروم والشام والحجاز والسودان والذين ليس لهم شهرة ولا كثير بضاعة من الأحياء والأموات ، وأهمل من يستحق أن يترجم من كبار العلماء والأعاظم ونحوهم".

ونهض الجبرتى بالعمل ، فجمع ماكان سوده وزاد فيه ، وهم تراجم فقط دون الأخبار والوقائع .

وفى أثناء ذلك ورد عليه نعى المرادى ، ففترت همته وطرح الأوراق فى زوايا الإهمال مدة طويلة ، حتى كادت تتناثر إلى أن حصل عنده باعث من نفسه على جمعها مع ضم الوقائع ، والحوادث المتجددات على هذا النسق .

وذكر الجبرتى أمرين خليقين بالتنويه : الأول أن المرادى « هو السبب الأعظم الداعى لجمع هذا التاريخ على هذا النسق». والثانى أنه لم يعرف مافعل الدهر بتاريخ المرادى — سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر — بعد وفاته ، الأمر الذى يفهم منه أنه لم يطلع عليه لغاية سنة ١٢٠٦ هـ . نقول ذلك لأن « D.B. Macdonald »

كاتب مادة الجبرتى فى دائرة المعارف الإسلامية يذكر أن الجبرتى نقل من كتاب «سلك الدرر» . وعبارة الجبرتى وردت فى الجزء الثانى من كتابه عند ترجمة المرادى

فى حوادث سنة ١٢٠٦ هـ . ونذهب إلى نفى النقل ، اللهم إلا إذا حدث بعد ذلك التاريخ .

ويقول Macdonald أيضا : ولعل هذا الكتاب — سلك الدرر — أوحى له بالناحية الخاصة بتراجم الوفيات ، ونقول : ثبت أن المرادى هو السبب الأعظم الداعى لجمع عجائب الآثار ؛ فما كان الأمر إيحاء وإنما هو تكليف كما ذكر الجبرتى .

ومن الإنصاف أن نثبت للجبرتى مأثرتين : الأولى أنه لم يقلد المرادى فى منهجه ؛ فلم يقتصر على التراجم وإنما أرّخ للحوادث مدخلا التراجم فى إطارها التاريخى . وهو وإن لم يكن مبتكرا فى هذا المنحى السليم فقد فطن إلى فائدة الربط بين الحوادث والتراجم . ويزيد فى ضعف التراجم المنفصلة عن التاريخ ترتيبها أبجديا بدلا من أن ترتب حسب الطبقات ، كما فعل بعض مؤرخينا القدامى .

والمأثرة الثانية استقلاله فى الرأى ونقده شيخه الزبيدى فى تراجمه — كما أسلفنا القول — وإن كنا لانستطيع أن نتثبت من صحة نقده .

بقيت مسألة ينبغى أن ننبّها : هل أفاد الجبرتى من تراجم شيخه أو من بعضها ؟ إن قوله : « غالب مافيها آفاقيون » يدل على أن بعضها لغير الآفاقيين . ويلاحظ أن الجبرتى لم يذكر مصادره ، ولو فعل لتحققنا من الجواب . ولكنا لانستبعد إفادته منها . فقد جمع أوراق شيخه ونقل بعض الرسائل التى جرت بينه وبين علماء عصره ، مثل الشيخ محمد بدير والمرادى .

وثالث المؤلفين الذين حرضهم المرادى على التأليف الشيخ حسن بن عبد اللطيف الحسينى مفتى القدس . فقد ذكر الحسينى فى آخر مخطوطة (أعيان القدس فى القرن الثانى عشر) أنه كتبه استجابة لطلب المرادى . وقد عثرنا على الرسالة التى بعث بها المرادى إلى الحسينى فى بيت المقدس . وفيها يذكر المرادى أنه كلف شخصا آخر بكتابة التراجم ولكن ما كتبه لم يف بالمراد ، فعهد بالكتابة إلى الحسينى . ولم أتثبت من تاريخ الرسالة بسبب ما أصابها من عطب .

وكتاب الحسينى على جانب كبير من الفائدة فى تاريخ بيت المقدس ، لأنه يأتى بعد (الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل) لقاضى القضاة مجير الدين الحنبلى الذى وقف عند سنة ٩٠٠ هـ .

ترجم الحسينى لنحو ستة وأربعين رجلا من أعيان بيت المقدس ، من شعرائها وفقهائها وقضاتها . ومع أنه لايرتقى إلى مرتبة سلك الدرر أو عجائب الآثار ، مادة وأسلوبا ، فإنه يتيم فى موضوعه .

وجدير بالذكر أن الحسينى درس على الزبيدى عند زيارته القدس سنة ١١٦٧ هـ فى

طريقه من الحجاز إلى القاهرة . ويذكر الجبرتى أن الزبيدى ألف للحسينى أرجوزة فى الفقه . وربما كانت هى الباعث على عنايته بالفقه . وقد كان له فيه باع طويل حقا . وعندنا فتاواه كاملة ، وهى تدل على اطلاع واسع وحسن نظر ، حتى أن شيخه محمد بن بدير كان من جملة من استفتاه . وتولى الحسينى الإفتاء فى الديار القدسية نحو ثلاثين عاما . وشاركه فى الإفتاء أحيانا الشيخ محمد التافلاتى صاحب المرتبة العالية فى الأدب والفقه والمنطق .

ونسأل : هل أرسل المرادى رسائل إلى علماء العراق والمغرب العربى حاضا على ترجمة أعلامهم ؟ أرجح ذلك وإن كنا لا نملك البينة . أما هو فقد ذكر أنه كاتب العلماء فى البلدان التى لم يرها . لذا سماه « أخبار الأعصار فى أخبار الأمصار » ، ثم شاع باسم « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » .

ولعل صلة غير مباشرة وجدت بينه وبين الشيخ أبى راس محمد بن أحمد الناصرى الجزائرى المتوفى قبل الجبرتى بقليل .

فقد درس الناصرى على الزبيدى فى القاهرة ، وألف كتابا سماه « السيف المنتضى فى ماورويته بأسانيد الشيخ مرتضى » ، وأجازه الزبيدى ووصفه بالحافظ ، وألف أيضا كتابين هما « عجائب الأسفار ولطائف الأخبار » و « إقبال التأسيس مما وقع مع الفرنسيس » . إن اسمى كتابين قريبان من اسمى كتابى الجبرتى . لكن المدهش أنه لم يذكر الجبرتى ولا الجبرتى ذكره [1]

ونسأل : ما الذى حفز المرادى إلى التفكير فى هذه الموسوعة مع أنه كان أصغر الأربعة سنا (١١٧٣ – ١٢٠٦ هـ) ؟

يبدو من المقدمة الموجزة فى صدر « سلك الدرر » أن الباعث الأول كان دينيا ، إذ ذكر أنه « ألف فى التاريخ الكبار من العلماء المؤلفات العديمة المثيل ، لأن العمدة فى نقل أصول الدين على الجرح والتعديل » . لذا صرف المورخون هممهم إلى جمع الأخبار ونقل المناقب وحفظ الآثار . ويبدو كذلك أنه كان مولعا بالتاريخ منكبا على جمع الدواوين الأخبارية فاجتمع الباعث الدينى إلى الحافز الشخصى . ولما رأى أن معاصريه قد أهملوا تراجم عصرهم نهض هو بالمهمة وجمع التراجم من الكتب ومن أفواه الناس واستكتب العلماء ليأتى التاريخ شاملا الكثير من الأمصار الإسلامية » .

على أن نهج المرادى والحسينى والمحبى قبلهما يوحى أنهم أرادوا رسم الصورة المثالية للرجال ليكونوا قدوة حسنة للناس . ولو كان

---

(١) اعتمادنا فى هذا على بحث لأبى القاسم سعد الله أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الجزائر نشر فى كتاب (ندوة عبد الرحمن الجبرتى وعصره) صادر عن جامعة عين شمس سنة ١٩٧٤ .

القصد ترجمة الحال على ماهو عليه لوجب أن تكون الصورة أكثر انطباقا على الواقع ، ولوجب كذلك أن توضع الصورة فى إطارها التاريخى :

وعلى كل فإن نقد كتب التراجم ينبغى أن يتسع حتى يشمل مؤرخى العصور السابقة وهو ملم أقصده فى هذا البحث .

وحسبنا أن نظهر الترابط بين هؤلاء المؤرخين واشتراكهم فى تصنيف أول موسوعة فى تراجم الأعيان،الأمر الذى يدفع تهمة الفردية ويؤكد أن العمل الجماعى عُرِف رغم صعوبة الأسفار وعسر الطباعة . والعبرة فى الموسوعات الفردية قيمتها الذاتية : ولا يضير أحداً من علمائنا القدامى أن تكون له همة « جماعة » من الناس ، كما نرى فى تاريخ الطبرى ومحيط الفيروزابادى ولسان ابن منظور وتاج الزبيدى وطبقات السبكى وتاريخ ابن عساكر ،وأضرابها من الشوامخ فى تاريخ الفكر الإنسانى قاطبة، لافى تاريخ المسلمين وحدهم »

اسحاق موسى الحسينى
عضو المجمع



اللغة والواقع

للدكتور محمد عزيز الحبابي

عرض

هذا العرض أن يقدم لحضراتكم الجزء الأول من معجم فلسفي يسمى: « المعين في مصطلحات الفلسفة والعلوم الإنسانية» ورجائي أن ينال من نقدكم قدر ما سينال من رضاكم. فالرضا تشجيع يحفز بالعامل إلى الاسترسال في العمل. أما النقد فيفرض على المؤلف أن يراجع الخطة ويصلح الاعوجاج؟

استعان « المعين » بجهود مجمع اللغة العربية بالقاهرة ومجمع دمشق الموقرين ، ويود أن يسترسل في مهمته ، مسترشدا بخبراتكم ونصائحكم ، خدمة للأجيال الآتية.

* * *

اللغة منظومة ضرورية للحياة ، وإن كانت مستعصية على الفهم ، تلك هي الإشكالية التي دفعت بي إلى المحاولة التي سأحدثكم عنها اليوم:

هذا الشيء المتسق المعجز الذي نطلق عليه لفظ (لغة) ما هو؟

إنه يستعبدنا إذ يرغمنا على أن نتحدث ، وأن نتحدث طبقا لإطار ولقواعد اختيرت في غيبة عنا. نتعامل معه وبه ، رغم أنه نسق مفروض علينا من الخارج •

بيد أنه يقال : (كاتب) ، و (شاعر مبدع) و (صحافي مجدد) وكلها أنعات تقتضي مسبقا ، حرية التصرف في الوسائل التعبيرية التي يحصل بها الابتكار والإبداع والتجديد •

إن اللغة أداة ، وفي نفس الآن سرو منظومة: وهذا هو الإشكال الذي يزعزع العقل ، وتلك هي الإشكالية التي ينطلق منها التفكير •

إن النجار لا يقدر أن يفعل بالمطرقة إلا ما صنعت من أجله ، أي الدق على رؤوس المسامير ، فلا يمكنه أن ينشر الخشب بالمطرقة. لكن بما أن النجارة الحديثة قد دخلت عصرها الذهبي الهائل (لأنها جددت أشكال الأدوات لتكييفها مع الحاجة الضخمة الحالية) أصبح النجار أكثر قدرة على الابتكار والتجديد في مهامه واتسع نطاق صناعته •

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة الاثنين ١١ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨هـ — ٢٠ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨م)

كذلك نحن المستعملين للسان العربى ، إننا مطالبون بأن نعى الأوضاع المتغيرة . فأمامنا قضايا مصيرية تضخم ، يوما بعد يوم ، المسؤولية الملقاة على ضميرنا :

فكيف نبلورها لنجعلها واعية ؟ كيف نستطيع مصارعتها بالعدة الثقافية والمادية ، مجندين القوات الشعبية بتعميم التعليم ؟

فإما أن يكون اللسان العربى عونا أساسيا فى المعارك ضد التخلف نحروه فنتحرر به ، وأما أن نتركه طريقا صعب المرور : فإذا لم نقصد عاجلا لإصلاح ما يجب إصلاحه بقيت المشاكل فى تكاثر مستديم : فما العمل؟ جوابا على الأسئلة نقول :

يجب أن نحرك اللسان العربى بوضع الحركات على الحروف ،يقال عن اللاتينية وعن الإغريقية القديمة إنهما لغتان ميتتان : نعم ، الواقع يؤكد ذلك ويرفض أن نلصق الموت باللغة العربية : ألا نكتب بها بل نتحدث بها فى بعض الحالات ؟ إنها إذن حية ، ولكن بنوع خاص من الحياة فالمريض فى حالة التبنيج هو إيضا حى ، وإن كان فى غياب بلا حضور فعلى :

اللغة ، كل لغة ، على مستوى المتحدثين بها ، فللسان العربى أمجاد وجولات فى تاريخ الفكر والفنون والحضارة الإنسانية لأنه كان يحمل رسالة تسهم فى الممارسات اليومية :

فاللغة التى تمتع بالمرونة والدقة تنفتح على ضرورة الحياة ، وبالتالى تسهم فى تقدم الحضارة فالإنسان يتحضر باللغة ، واللغة تسهم فى الحضارة بفضل الإنسان .

إن الإنسان فى المجتمع العربى المعاصر إنسان متشيئ معاصر فى مجتمع متخلف مجتمع الحرمان والاستلاب ، ولن تستطيع التغلب على التشيّىء إلا بتغيير المجتمع العربى من فكر الاجترار إلى فكر فاعل بلغة تساير التاريخ : لذلك يجب أن نبنى وجدانا يقظا قادرا على النقد الذاتى ، فالنقد الذاتى سيطلق المخلصون الواعون صيحة الاتهام ضد الذين يعاكسون حيوية اللسان العربى ، يجمدونه فى حلم كل ما فيه يتحول ويتطور فباسم الهيام باللغة العربية يعانقونها حتى يخنقوا عليها الأنفاس . لقد أدخلوها فى غيبوبة « ومن الحب ما قتل » . إن كل حديث كلام عن قضية وليس مجرد حركة لذاتها . فلا كلام دون قصد . والكلام الهادف المفيد حجم يأخذ حظا من المكان ومن الزمان يجب ألا يتعداه . إن الحشو ينزل بالكلمات منزلة الدرك ، فمثلا كلمة « أستاذ » عندنا تطلق بالهوان على كل من يتأبط جريدة ، بل نسمع داخل الحافلة قاطع التذاكر يخاطب

الراكب بالأستاذ، بما يفرغ اللفظ من محتوا الحقيقي ويجعله فضفاضا ، بلا هوية :

من المسؤول عن هذا الوضع ؟

إن قوة اللغة وحيوتها تكمن في شيوعها مع أقصى ما يكون من الدقة . يبلغ سكان العالم العربي ١٥٠ مليون . فكم منهم يقرأ أو يكتب أو يتكلم بالعربية ؟

دوراللغة أن تعكس علاقات الناس بالواقع . فالحديث عن أي شيء يتحدد « من ... إلى ... » من متحدث إلى قارئ أو سامع . فلمن تؤلف الكتب وتطبع الصحف؟

إن نسبة القراء من العرب ضئيلة ٨٥٪ من الأميين ، ومن الباقي نسبة أقل من القليل تلج عالم القراءة التثقيفية ، هذا هو الوضع : إننا لا نرغب في المستحيل ، وإنما نطالب بقليل من الشجاعة : فبما أن اللغة تعبر عن الواقع وتقرب منه ، يلزمنا أن نعمل :

كل ما يقرب من معاصرة لساننا للواقع العربي ، وللواقع الحضاري، دون حجب أو ضباب،وأول عملية تمهد السبيل إلى ذلك هي أن نضع الحركات على الحروف .

الحروف إشارات مركبة ، ومن تركيبها تكتسب الدلالة . فماذا نفعل عندما نكتب بلغتنا العربية ؟ إننا نعطي نصف إشارة أو شيئا يوحي بإشارة ، فمثلا « ب » غير كاملة ، قد تكون (بَ ، أو بُ ، أو بِ ، أو بْ وتجوز إضافة التنوين أو الشدة مع كسر أو فتح أو ضم . فكل حرف يبرز في حقل من التخمينات . إن « ب » تفترض إمكانية على وجه التقريب .

ويجوز أن نقول إن كلمة من أربعة أحرف تضع للطفل ٤٤ سؤالا على الأقل . من هناك تنقلب الأوضاع : فالطفل ، والقارىء عموما ،عوضا أن يتساءل عن المعاني بالألفاظ ، يجد نفسه هو المسؤول والألفاظ هي السائلة ! هكذا تتبدل الوظائف . وهناك ما هو أقطع من كون اللفظ يصبح لغزا ، يجب على القارئ فكه ، وأن كل حرف من حروف اللفظ يتحول بدوره إلى سؤال : إلى لغز . فالقدرة الإشارية للحرف تنعدم كلما جاء أبتر : أي بلا نقط أو بلا حركة : ذلك هو المعنى الحقيقي للإعراب الذي هو أساس العربية . فلأمر ما سميت الفتحة والضمة والكسرة والسكون « حركات » « علامات الإعراب » .

إن انعدام الحركة العضوية هو الذي يعطل الجهاز ، فاختلال الوظيفة العاميات تتقوى إلى حد يصعب معه التغلب على الأمية ، وعلى عوائق التعريب الصحيح .

ليتعلم الأطفال اللغة عن طريق السمع قبل الكتابة ، إذن دور الأذن والذاكرة دور مهم جدا . لهذا يجب لفت النظر إلى التأثير الحاسم الذي تتمتع به الإذاعة والتلفزة والأشرطة السينمائية . فلنستمع إلى

تعليق على مباراة لكرة القدم، بالقاهرة مثلا، بين الأهلي والزمالك فكثيرا ما تدندن في آذاننا ألفاظ مثل (كول) و «كورنر» و «بنالتي» و« أو فساي» ..... مع أن هذه ليست ألفاظا نقية تصعب ترجمتها : فماذا يعوق المذيع عن استعمال (حارس مرمى) (وركنية) أو (زاوية) أو (شرود) كنا أمام الشاشة مرة فصاح ابني : انظر يابابا هذا (كورنر) فصححت له قل: ركنية . فكان جوابه «إن التلفزة تستعمل (كورنر) وهل أنت أعلم من المذيع يا بابا» ؟ طبعا لا ، إنني مجرد أب ، أما الآخر فساحر مبهر يهيمن على جهاز ينفذ ، مباشرة ، إلى الشعور واللاشعور وإلى الذاكرة حين يصادف وعاء خاليا فيتمكن !

إن اللسان العربي لقادر ، ومطواع إلا أن أغلبية أصحابه عاجزون ، منهجيا ، ويخافون من التطور ، أي من دينامية الحياة . فأحسن الكلام ليس الألفاظ المنمقة ولا الجمل الفصيحة بل إنه ، كما يعرفه الجاحظ «ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه» (البيان والتبيين).

ولكي نصل إلى «أحسن الكلام» أي إلى كلام خال من الحشو ، الكلام الدقيق الواضح ، يجب أن نحدد المصطلحات في كل ميدان من ميادين المعرفة ، فهل لنا معاجم تعاصر الأوضاع الحالية ؟

نعم ، إلا أنها دون الحاجة ، فهي وإن كانت دسمة أحيانا ، بما فيها من مواد ، تبقى ناقصة من حيث المنهج : حقا ، هناك محاولات وتجارب لتخطي هذا النقصان ولكنها لم تعط بعد أكلها ناضجاً : وللبرهنة على ذلك سنقتصر على مثال واحد هو ميدان الفلسفة ، التي هي موضوع «المعين» :

* * *

أول ما صدر في هذا المضمار ، كتيب من مائة وعشرين صفحة ، يحتوي على مصطلحات بالفرنسية وأمامها ما يقابلها بالعربية ، وقد أنجزناه عام ١٩٦٠ (١) بيد أنه لا الحجم ولا الطريقة المتبعة كانا ملائمين للحاجة : ومن هذا الكتيب انطلق «المعين» الحالي ، متجنبا أكثر ما يمكن من من الهفوات السابقة (٢) :

بعد ذلك صدر «المعجم الفلسفي» ليوسف كرم ومراد وهبة ويوسف شلالة : هذا المعجم أضخم من سابقه وأكثر تعميقاً للشروح ويضيف إلى العربية والفرنسية ، المصطلح بالإنجليزية(٣) . لم يعط هذا المعجم عددا هاما من المصطلحات الحيوية ، وما أورده ليس مشكولا ، أي بلا حركات ،

---

(١) « مصطلحات فلسفية» المغرب ١٩٦٠.

(٢) «م.ع . الحبابي (المعين في المصطلحات الفلسفية والعلوم الإنسانية) (فرنسي أنجليزي عربي) » ج١ ١٩٧٨ دار الكتاب ، الدار البيضاء .

(٣) الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٦ . وفي سنة ١٩٧١ ، أصدر مراد وهبة الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ، في ٢٥٦ ص .

ونشر المرحوم جميل صليبا معجما فى جزأين (١) ، إنه عمل قيم ، كمعجم مراد : نوجه إليه نفس الملاحظتين السابقتين : المصطلحات العربية غير مشكولة وتفتقد فيه مفاهيم معاصرة :

وقام مجمع اللغة العربية بالقاهرة بنشر دفاتر للمصطلحات الفلسفية ، انطلاقا من الأبجدية اللاتينية ، ومن هذه الدفاتر سيتحقق معجم هام ، نتمنى أن يصدر قريبا ، لما سيقدم للباحثين من عون ثمين :

اعتمد « المعين » على المراجع السابقة وعلى غيرها ومع تقاير جهود أصحابها عمل على تجنب ما جاء فيها من أخطاء منهجية ، أو ما ظهر له أنها أخطاء وهذا لا يمنعنا من أن نصرح ونؤكد أن « المعين » ملىء بأغلاط وأخطاء أخرى جمة ، فاكل الجهود التى بذلناها سوى مواد سيعتمدها آخرون فى تأليف المعجم المكتمل:

انطلقنا من أن للفلسفة وظيفة مجتمعية تواصلية بقدر ماهى تأملية ، فبالدقة والوضوح ، وبتجنب الحشو ، يمكنها أن تقوم بدورها الذهنى المعرفى من جهة ، وبدورها المجتمعى ، من جهة أخرى .٣ فكلما تركزت اللغة على الفضائل الثلاث السابقة (الدقة ، والوضوح ، وتجنب الحشو) ، أصبح الحديث الفلسفى التزاما ، أى صار قادراً على الخروج من الاغتراب فى الضبابية التى تعزل بعض الفلاسفة عن مواطنيهم ومعاصريهم . فبدون ذلك ، لن يستطيع الفيلسوف توظيف طاقته الذهنية التأملية ، والتزامه المجتمعى ، كأفعال تربط الأصالة بالمعاصرة ، والمعاصرة بالشمول الإنسانى :

أيها الأماجد : بعد أن عرضنا عليكم باقتضاب الإشكالية التى انطلق منها « المعين » والغاية التى يرمى إليها ، يسرنا أن نضعه تحت أنظاركم :

إننا متيقنون أنه مادة خام لمن سيقومون بتأليف معاجم فلسفية مكتملة ، لغة ومنهجا وطباعة :

إن المعجم الفلسفى النموذجى المنتظر فى نظرنا هو الذى سيقوم على قواعد منهجية منها :

– وضع الحركات على الحروف :

– أن يحدد لكل مصطلح الجذر الذى اشتق منه :

– أن يؤرخ له ، لأن اللسان ليس أبجدية أو مجموع لهجات ، وليس هو ما فى القواميس : إن اللسان تاريخ وجد أن أمة عبر تطورات التاريخ ؛ إنه إنسية الأمة فى مظاهرها التى تتحرك على الدوام :

(١) المعجم الفلسفى (عربى – فرنسى – إنجليزى – لاتينى) بيروت (دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٣)

لقد آمنا بأن ترجمة مصطلحات علوم الطبيعية إلى العربية أسهل من ترجمة مصطلحات علوم الإنسان ، فهذه الأخيرة ليست بسيطة، فبرغم أننا بدأنا نعربها منذ قرن ونصف ، وبرغم أنه وضعت معاجم وقوائم لها، لم نتغلب بعد على فوضى التعبير فى السيكولوجيا والسوسيولوجيا، والفلسفة واللسنيات . فهل المشكل فى عدم توحيد المصطلحات وتنسيقها ؟

لا نظن ذلك ، لأن الجامعات العربية قد أسست « المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى » وقد مرت سنوات على هذا التأسيس ، وبرغم حسن النية ، والجهود المبذولة ، والطاقات والإمكانية التى جندت فى هذا المضمار ، لم نصل بعد إلى النتيجة المتوخاة ، فما سبب هذا الوضع إذن ؟ لاشك أنه النقصان فى المنهجية ، أولا هناك أسباب أخرى ، منها أن التنسيق يفترض الانطلاق من أعمال تامة جاهزة ، لكن الواقع أن الأعمال التى ألفت لم تصل بعد إلى النضج : فهى إما قوائم بألفاظ عربية وما ارتآه المؤلفون مقابلا لها بالفرنسية أو بالإنجليزية ، وإما قوائم لألفاظ أجنبية وما يظهر أنه يقابلها بالعربية. هذه الطريقة تتعارض مع البيداغوجيا المعاصرة .

إنها تكتفى بوضع لفظ أمام آخر ، دون تحديد كاف ودون تفسير وتدقيق بين المعانى المختلفة للفظ الواحد . فللفظ معنى أصلى ومعنى (أو معانى) اصطلاحية مثلا

(E) adaptation (F) adaptation

ترجمها بعضهم بـ « تكيُّف » ، وهى ترجمة صحيحة لكنها غير تامة[1] فيجرى أن تكون الترجمة هكذا :

تكيُّف :

تكييف :

لأن (adaptation) مصدر ، إما لـ (adapter) وإما لـ S'adapter :

« نقص » و « تناقص » ، وعلم و « تعلم » . فلا بد من مصدرين .

إن adaptation تدل على عملية بذاتها ، أو على عملية يراد منها نتيجة ، فإن اعتبرنا العملية فى حد ذاتها لزم استعمال تكيف أما الحالة الأخرى فالصواب هو تكييف.

بالإضافة إلى المشكلة السابقة ، قد يؤخذ على « القوائم » أنها تعطى أحياناً أكثر من لفظ لترجمة مصطلح أجنبى ، دون أن تكلف نفسها الاهتمام بالتلوينات الدلالية Les nuances أى بالفروق الموجودة بين معانى اللفظ الواحد ، أو لألفاظ يظن أنها مترادفات .

---

(١) انظر هذا المصطلح فى الفصلة ١ من المعجم الفلسفى الذى يصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

نتيجة لما سبق ، من الطبيعي أن تأتي القوائم مدعاة للالتباس والغموض ، على أنها دائماً ناقصة ؛ ولتوضيح ذلك فلنتصفح قائمة صدرت عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية [؟] وقريبة العهد بالصدور . فلنفتح الصفحة الأولى من تلك القائمة .

فبرغم الجهود الطيبة التي بذلت تثير القائمة بعض الملاحظات (كان من المتوقع أن تكون ، لأن مجال القوائم ليس هو مجال المعاجم) .

— أول مصطلح هو (abduction) . أعطى فى مقابله بالعربية « قياس احتمالى » دون شرح أو أمثلة تفسيرية ، وأغفلت القائمة أن القياس الاحتمالى نوعان :

معنى عام ، وهو قياس مقدمته الكبرى يقينية فى حين أن الصغرى ليست إلا ظنية . وأما المعنى الخاص فهو ما جاء عند Peirce الذى جعل من abduction كل استدلال تكون نتيجته احتمالية فحسب.

ملاحظة ثانية : إن المنهجية لا تسمح بأن تكتب بداية كل الكلمات الفرنسية أو الإنجليزية بحرف تاج .

فمن المعلوم أن أسماء الأعلام هى التى تبدأ بحرف تاج وكذلك بعض المصطلحات التى لها معان خاصة مثل : histoire و Histoire

فالأول تاريخ ، وهى عملية تدوين الأحداث بعض ترصدها ، إنها مهنة المؤرخ أما Histoire فمجموع الأحوال المتغيرة التى تعترى الكائنات أو العالم ، وبالخصوص مجموع الأحوال التى تمر بها المجتمعات البشرية .

وتواجهنا فى القائمة لفظة (abhasa) وترجمتها بالعربية « أبهازا » .

ولم يصاحب ذلك تفسير أو شرح . فما هى الفائدة من إيراد اللفظ ؟

— المصطلح الذى يلى هو « abhéda » وترجمها أصحاب القائمة بـ « أبهيدا » ، وبعد الترجمة يأتى التفسير بين هلالين : (فلسفة هندية) . هذه العبارة غير كافية لأنها بلا تحديد وبلا شرح . . . والقارئ لا يشم المعانى فى أظافره . فما فائدة قاموس لا يعين على الفهم ؟ !

ثم إن اللفظتين الأخيرتين غريبتان عن الميدان الفلسفى الغربى ، وعن الفلسفة الإسلامية العربية .

ولنقفز إلى مصطلح آخر فى اللائحة Absolu (مطلق) أمام هذا المصطلح نصاب بحيرة ، لأن أوله مكتوب بحرف التاج ، فى حين أن العرف الفلسفى يفرق بين Absolu و absolu ثم إن أصحاب القائمة لا يفرقون ، كذلك بين l'Absolu) و absolu »

ولم يأخذوا بعين الاعتبار أن أداة التعريف تصاحب الأسماء إذا دلت هذه على مذهب أو على جماعة ، فتتميز عن الصفات : «المطلق» يخالف مطلق .

فلابد ، كذلك من التمييز بين absolu كنعت ، absolu كاسم .

ومن جهة أخرى ، يأتى لفظ absolu اسما يكون إما نعتا (adjectif) وإما (adverbe) أى حالا أو مفعولا مطلقاً

ملاحظة أخرى : الباحث الذى يدفعه الفضول إلى مراجعة معجم «لالاند» مثلا يجد أن ل « absolu » اثنى عشر معنى ، فى حين أن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب لايعطى إلا معنى واحداً وغير دقيق ، لأنه قابل لأن يصادق على أى واحد من المعانى الاثنى عشر »

لقد أشرنا إلى أن هناك فرقا بين absolu و Absolu فالأول = مطلق ؛ أما الثانى (بحرف التاج) فهو الكائن المطلق الذى يتمتع بمطلقية مطلقة ، أى الله .

ونقف وقفة قصيرة مع مصطلح آخر نختم به الأمثلة

absurdes تكتفى القائمة بالمعنى المنطقى «خلف» متناسية المعنى المستحدث عند الوجوديين وعند «ألبير كامو» = عبث » وقد راجت فلسفة العبث وغزت ميادين كالمسرح ، فهناك اتجاه « مسرح العبث » .

نقف عند هذه الأمثلة التى سقناها كلها من الصفحات الأولى بالقائمة ومن حرف (a) .

إن القوائم ، ماصدر بالمشرق أو بالمغرب عن مكتب تنسيق التعريب ، قد تعين على بناء المعاجم ، ولكن فى حدود ضيقه لايساوى دخلها الجهود والطاقات المدفوعة .

فى عام ١٩٧٧ صدر عن مكتب تنسيق التعريب قائمة تحت اسم « مصطلحات الفلسفة فى التعليم العام» أربعون صفحة كلها بنفس المنهج ونفس النتائج .

فمتى نصل إلى المنهج القويم كى نحقق الغايات المنشودة ؟

أساتذتى الأجلاء :

فوق عاتقنا جميعا ما جندتم فى سبيل إتقانه ليستشعره العرب أجمعون ؛ إن فوق رؤوسنا عالما يتموج بالألفاظ تضطرب وتهدأ ، تتموج وتتفرق ، تلتحم وتتمزق . ألفاظ تتزاحم لاقتناص المفاهيم ، والمفاهيم تراوغ إلى أن تقيدها التعابير الناضجة .

وفق الله خطاكم فى هذا الصراع المستمر وما توفيقنا إلا بالله ، وعليه نتوكل .

محمد عزيز الحبابى
عضو المجمع المراسل من المغرب

من أسرار الزيادة في القرآن الكريم

للأستاذ علي النجدي ناصف

يقول النحويون فيما يقولون عن الحرف الزائد: إنه يكسب الكلام الذى يحل فيه فضل توكيد، ثم لا أراهم بعد ذلك يتتبعون بالبيان معانى التوكيد التى يفيدها هذا الحرف فى مواقعه من أساليب الكلام، مع تنوعها، واختلاف مراميها. ولا أدرى كيف يُترك التوكيد الذى يفيده الحرف الزائد هكذا على حاله من العموم والإبهام، كأن ليس له سوى معنى واحد يؤديه ولا يحيد عنه فى كل مقام.

لقد قالوا: إن «من» الزائدة فى مثل قوله تعالى: (ماجاءنا من بشير)[1] تنص على عموم النفى نصاشاملا، لا استثناء معه، ولا تخصيص فيه[2]. ولكنى لم أرهم مثلا يبينون معنى التوكيد الذى تفيده «ما» حين تزاد بين الجار والمجرور فى نحو قوله تعالى: (فبما رحمةٍ من اللهِ لنتَ لهم[3]).

على أن الزمخشرى — رحمه الله — قد عرض فى الكشاف لبيان المراد بالتوكيد الذى تفيده «أن» الزائدة بعد «لمّا» فى قوله تعالى فى سورة العنكبوت: (ولمّا أن جاءت رسلُنا لوطاً سِيءَ بهم وضاق بهم ذَرعاً[4]) فقال: «أن» صلة أكدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر فى وقتين متجاورين لا فاصل بينهما، كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث، خيفة عليهم من قومه»[5]، وتبعه فى ذلك أبو على الشلوبين، وقال مثل مقالته فيه[6].

لكن أباحيان — كدأبه فى تعقب الزمخشرى، وتتبع آرائه بالتفنيد فى أكثر الأحيان — لم يرُقه هذا الرأى، ولا وقع منه موقع القبول، ثم لم يجد ما يدفعه به — فيما يذكره ابن هشام — إلا أن يقول: «وهذا

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر الدورة الرابعة والأربعين (جلسة الثلاثاء ١٢ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨هـ = ٢١ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨م)

(١) سورة المائدة: ١٩

(٢) المغنى: ٢: ١٥

(٣) سورة آل عمران: ١٥٩

(٤) سورة العنكبوت: ٣٢.

(٥) الكشاف: ٢: ١٧٩

(٦) المغنى: ١: ٣٠، ٣١.

الذي ذكراه -يعني الزمخشري والشلوبين- لا يعرفه كبراء النحاة[1]، كأن القول في النحو واجتهاد الرأي فيه وقف على من يراهم كبراء النحاة، فإذا عزب عنهم حكم، أو غُم عليهم وجه -لم يجز إلا لمن كان مثلهم أن يتدارك لهم فوتا، أو يوضح مبهما.

ولم ندر مَن هؤلاء الكبراء الذين لم يشأ أبو حيان أن يذكر أسماءهم أو اسم أحد منهم، ولا أن يبين لنا ماذا عندهم من الرأي عن توكيد الزيادة عامة، وزيادة «أن» بعد «لما» خاصة، لتكتمل الصورة، وتنجلي الحقيقة؟، لعلنا نتبعهم فيما يقولون.

على أن الحق - فيما يعهد الناس - ينصر أهله أبدا، ولا يعدمه أن يجد منصفا يشد عضده ويعلي كلمته، لهذا رأينا ابن هشام ينبري لأبي حيان في المغني فيرد قوله ويكشف ما في نقله عن الزمخشري من لبس وتخليط[1].

وإذا كان أصحاب أبي حيان من كبراء النحاة لا يعرفون ما عرف الزمخشري والشلوبين من دلالة «أن» بعد «لما» في آية العنكبوت - فإلى مورد له ولهم آيتين أخريين زيدت في كلتيهما «أن» بعد «لما» ودلت على مثل ماقال الزمخشري وصاحبه: إنها تدل عليه.

فأما أولى الآيتين فقوله تعالى في سورة يوسف: (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا)[2]، وتمضي بنا الآيات إلى قوله تعالى: (فلما أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهه فارتد بصيرا)[2]، فإذا «أن» مزيدة في هذه الآية بعد «لما» وفي مقام لا يحتمل أناة ولا بطئا، لأن البشرى التي يحملها رسول يوسف إلى أبيه ليست مما ألف الناس أن يستبشروا به، ولكنها الأمر لا يُعلم له نظير سابق، ولا يُرجى أن يكون له نظير لاحق، إلا في طيف خيال أو حلم منام.

سيرتد يعقوب بصيرا، وسيرى يوسف قرة عينه -يا بعدما نُمي إليه، فحزن حتى ابيضت عيناه من الحزن عليه، وسيراه على حال لا كحال أحد من الرعية، بل سيراه أميرا قد ولي حكما، وأوتي سلطانا، وسيلتئم شمل الأسرة بعد تفرق وشتات، وستستقبل من أمرها يسرا بعد عسر، وسعادة بعد شقاء.

فمَن غير حامل هذه البشرى يحق له أن يَعُد في رحلته الإسراع بطئا، والقرب بُعدا، ويود لو جاء أباه طيرا لا سعيا؟ ومَن ذا يكون أسرع منه جريا بل أشد منه وثبا حين يبلغ طيته، ويدنو من أبيه ليلقي على وجهه القميص؟

وأما الآية الأخرى فقوله تعالى عن نبيه موسى في سورة القصص: (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين

(1) المغني ١ : ٣٠، ٣١

(2) سورة يوسف: ٩٣، ٩٦

يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه)[1] ، وتمضى بنا الآيات إلى قوله تعالى: (فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى : إنك لغوى مبين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال: ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس)[1] ؟ ، وهنا أيضا زيدت «أن» بعد «لما».

فأيما امرئ يرى مصرع المصرى ، وكيف قضى موسى عليه ، لا بضربة من سيفه ، ولا بطعنة من رمحه ، ولكن بوكزة من يده — حقيق إذا كان بعرض ؟ وكزة مثلها أن يكون أسرع من لمح البصر إلى مدافعته ، واتقاء يده إذ يلمح فى وجهه أثارة من حمية ، أو بادرة من عزم على البطش به ، فلا يسعه إلا أن يفجأه بصرخته المفزعة ، ويقذف فى وجهه بقولته المهولة ، يحذره ويذكره : (ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) ؟

لم يتقول الزمخشرى إذن على كبراء النحويين فى مقالته عن «أن» بعد «لما» ولا كان مقصرا عن شأوهم ، بل لقد عرف مالم يعرفوا فيما عزاه إليهم أبو حيان .

ويزيد رأى الزمخشرى قوة إلى قوته أن الملائكة الذين جاءوا لوطا كانوا قد جاءوا إبراهيم من قبله . ونلاحظ أن آية مجيئهم إبراهيم لم تزد فيها «أن» بعد «لما» ، كما زيدت فى آية مجيئهم لوطا ، ذلك بأن الحال التى كان عليها إبراهيم كانت غير الحال التى كان عليها لوط . فقد كان إبراهيم راضيا مطمئنا لم يعد ينكر من قومه منكرا ، أو ينعى عليهم فساداً بعد ما نجاه الله منهم ، فرحل عنهم إلى أرض خير من أرضهم . وكان عليه السلام جواداً مضيافا ، فلما رأى الملائكة لم يدر بخلده إلا أنهم أضياف ، مثله فى ذلك كمثل كل جواد مضياف ، حين يقدم عليه قادمون لم تكن له سابقة بلقائهم ، أو لقاء أحد منهم ، فتتابعت لذلك أحداث قصته معهم بدءا وانتهاء ، كما تتابع قصص الضيافة على سجيتها وفى سمتها المعتاد : تحية وسلام ، فحفاوة وطعام ، ثم كان أن استراب بهم إبراهيم حين رأى أيديهم لاتصل إلى طعامه ، وأن عجب منهم حين بشروه بغلام حليم .

أما لوط فكان ضائقا بقومه ، شديد السخط عليهم ، فلما رأى الملائكة حسبهم بشرا فحزبه أمرهم ، وتسارع إليه القلق والجزع ، خوفا من قومه أن يفضحوه فيهم ، وهم ضيفه ، ولهم عليه حق الحماية والكرامة . ثم كان من مقاصد القصة هنا تصوير السرعة التى صاحبت استياء لوط من قومه وضيق ذرعه بهم تصوير إشارة لاعبارة ؛ فكانت

(1) سورة القصص ، 15 — 18

الزيادة لذلك هي الأداة المختارة لها ، فعبرت عنها هذا التعبير البارع الذى يتميز بالدقة ولطف المدخل :

بقى أن قصة لوط قد ذكرت مرة ثانية فى سورة هود ، ومرة ثالثة فى سورة الحِجر ، وصُدِرت فى السورتين بلما الحينية ، ولكنها لم تُتبع فيهما بأن كما أتبعت بها فى سورة العنكبوت مع أن موضوع القصص الثلاث واحد ، وهو لوط والملائكة ، فما سر هذا الخلاف بينهما فى التعبير ؟

إن الذى يتتبع منهج القرآن الكريم فى قصصه — يمكن أن يدرك هذا السر ، فالقرآن لايلتزم صورة واحدة للقِصص التى يعيدها مهما كانت مرات إعادتها ، ولكنه يعيدها فى قليل أو كثير من أوجه التنويع ، تارة بالذكر أو الحذف ، وأخرى بالإجمال أو التفصيل ، وثالثة بالتصريح أو التلميح ، وهكذا ، فإذا لها من ذلك جدة ، وعليها طلاوة . والناس بالجديد أحفل ، وإليه أميل ، لذلك تأخذ كل قصة مُعادة ببعض مالم تأخذ به القصة التى تقدمتها ، وإنها لتُبقى مع ذلك على جوهر الموضوع واحداً فى كل مقام تذكر فيه :

فصوَّرت قصة العنكبوت ماسكتت عن تصويره القصتان الأخريان ، وهو سرعة الأحاسيس التى جاشت بها نفس لوط حين رأى الملائكة مقبلين عليه . وذكرت قصةُ هود ما وَصف به لوط يومه ذلك ، فقال : (هذا يوم عصيب [1]) ، وهو وصف يشير إلى أحاسيسه تلك ، ولا يصرح بها ، ولكنه لايدل على تسارعها إليه : وأمسكت قصة الحجر عن حديث الأحاسيس ، ووصف اليوم معا ، واجتزأت من ذلك بارتياب لوط فى الملائكة ، إذ قال لهم : (إنكم قوم منكَرون [2]) ثم راحت تقص بقية القصة ، منذ أبلغه الملائكة سبب مجيئهم إليه ، إلى أن قضى الله قضاءه فى المجرمين من قومه . ذلك إلى أمور أخرى ، اختصت بها كل قصة من بين أختيها ، ذهابا إلى التنويع والافتنان :

والآن ، هل لنا أن نقيس « ما » حين تزاد بعد « إذا » على « أن » حين تزاد بعد « لما » ، فيكون لها فى جملتها مثل ما لأن فى جملتها ؟ لا أرى أن ثمة مايحول دون هذا القياس ، فاللفظان سواء فى الحرفية والزيادة والموقع ، وكلٌ من « لما » و « إذا » ظرف فيه معنى الشرط :

لاعلينا إذن أن نقول : إن « ما » إذ تزاد بعد "إذا" تؤدى معنى أن إذ تزاد بعد « لما » ، أى : تفيد أن جواب « إذا » ، وشرطها يقعان فى زمنين متجاورين ، حتى كأنهما مقترنان فى زمن واحد :

ونحن إذ نرجع بعد أن تخلص لنا هذه النتيجة — إلى القرآن الكريم ، نتحسس من آياته ماعسى أن نلمح فيه أثر « ما » الزائدة مذكورة ومحذوفة — فسنجد فى سورة الشورى

(1) سورة هود : 77 (2) سورة الحجر : 62

آيتين متقاربتين فى الذكر، ولها مشاركة مع آيات أخرى فى تعداد أوصاف المؤمنين الذين هم على ربهم يتوكلون :

فأما الآية الأولى فتذكر من أوصافهم كظم الغيظ ، وغفران المساءة ، وهى قوله تعالى : (وإذا ما غضبوا هم يغفرون[1]) ، وأما الآية الأخرى فتذكر مقاومة البغى والانتصار من البغاة ، وهى قوله تعالى : (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون [1])

ونلاحظ أن « إذا » الشرطية مذكورة فى كلتا الآيتين ، لكنها أتبعت فى الآية الأولى بما الزائدة ، ولم تتبع بها فى الأخرى . وإذن يمكن أن يقال إن العفو المذكور فيها ليس عفواً مرسلا ، لايخصصه وصف ، ولا يحده وقت ، ولكنه عفو المبادرة والفور ، يملك صاحبه عند الغضب ، وينزله على حكمه ، فيمضيه غير متلبث به ، ولا متردد فيه ، فذلك عفو الترفع والقوة . وفى الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » . رواه ابن ماجه فى السنن [2] .

والقوة المعنية هنا هى قوة العزم والإرادة ، لاقوة البنية ومتانة التركيب ، فهذه وحدها مع فضلها وحاجة الحياة إليها — لاتعدو أن تكون سرابا خادعا ، أو رثيا كاذبا ، يوارى خور العزم ، وسقوط الهمة ، وانكسار الذلة . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشيد بقوة النفس ، ويحكم لها على قوة الشخص ، فيقول : « ليس الشديد بالصُّرَعة ، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . رواه الإمام مالك فى الموطأ[3] ، والسيوطى فى الجامع الصغير [4] .

ذلك — والله أعلم — ما أفادته زيادة « ما » بعد « إذا » فى الآية الأولى ، إذ تذكر العفو عن المسىء .

أما الآية الأخرى إذ تذكر البغى والانتصار من البغاة — فالأمر فيها مختلف والحال غير الحال ، لأنها خلت من زيادة « ما » بعد « إذا » . فى هذا إشارة إلى أنها تدعو إلى إباء البغى ومناهضة البغاة دعوة مطلقة ، لا تسمى لها أجلا ولا تجعل لها موعدا ، لأن أحوال كل من البغاة والمجاهديهم ليست سواء ، فقد تكون المبادرة خيرا فى حال ، وشرا فى حال أخرى ، وإنما الأمر كله بيد أهل الحل والعقد من المجاهدين ، هم الذين يملكون أن يقدروا الأمر بقدره ،

---

(1) سورة الشورى : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩

(٢) السنن : ١ : ٢٢

(٣) الموطأ : ٩٠٦

(٤) الجامع الصغير بشرح السراج المنير ٣ : ٢٠٨ .

عجلة وريثا ، على نور من كتاب الله وسنة رسوله ، ومن التجارب الناجحة ، والعلم بأحوال الحياة القائمة .

والذى يجب أن يلتزموه على كل حال ألا ينفروا إلى الجهاد إلا بعد أن يُعدوا له العدة ، ويحكموا الكيد والتدبير ، ليثبوا وثبتهم على رجاء فى النصر صادق ، ووعد من الثقة به غير مكذوب . وإلا كانت العاقبة وبالا جائحا ، وشرا مستطيرا . وهم بعد عصاة متمردون ، لايرحمهم راحم ، ولا يذكرهم أحد بخير :

أقول قولى هذا ، وأعوذ بالله من سوء الفهم وضلال الرأى ، وأبرأ إليه — سبحانه — من التكلف لما لا أحسن، والخوض فيما لست له بأهل .

على النجدى ناصف
عضو المجمع



كتاب ابن عسكر وابن خميس : في مشاهير مالقة

للأستاذ محمد الفاسي

برع العرب شرقا وغربا فى أدب التراجم ووضعوا فى تاريخ المشاهير مؤلفات تزخر بها الخزانة العربية، وفى أول هذه الكتب السيرة النبوية وعلى غرارها نسج المؤرخون. فكانت التراجم الشخصية أى التى تعنى بشخص واحد وهى قليلة بالنسبة للتراجم الجماعية، أى التى تخص بجماعة من الرجال، إما أن تجمعهم رابطة الاكتساب إلى مدينة أو إلى علم أو فن أو إلى مذهب، وهى التى يطلق عليها اسم الطبقات. كطبقات المقرئين والمفسرين والشعراء والأدباء والنحاة والأطباء وطبقات المالكية والشافعية والحنابلة والحنفية وغيرهم. أما تراجم المنتسبين إلى بلد بعينه فحدث عن البحر ولا حرج، فلا تجد مدينة كبيرة أو صغيرة فى الشرق أو الغرب إلا جمعت تراجم مشاهيرها، ويطلق عادة على هذه الكتب اسم التاريخ، يقال: تاريخ بغداد وتاريخ الشام ونحوهما. ومن هذه المؤلفات ما يختص بمدة معينة كالقرن أو القرنين وهى كذلك كثيرة، ومنها بالمغرب مثلا كتاب نشر المثانى فى تراجم أهل القرن الحادى عشر والثانى، للقادرى. ومنها صفوة من انتشر فى رجال القرن الحادى عشر، ومنها نزهة الحادى فى تراجم أهل القرن الحادى، وكلها مطبوعة.

وتحتوى هذه الكتب زيادة على معرفة أحوال المترجمين وأخبارهم على معلومات فى غاية الأهمية من حيث تاريخ الحضارة وخطط المدن والحالة الاجتماعية والاقتصادية، ونجد فيها كذلك فوائد تاريخية محضة لا ترد فى كتب التاريخ المختصة.

وقد اخترت أن أحدثكم من هذه الكتب عن مؤلف فريد وضع فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) عن مشاهير مدينة مالقة، وقد كانت أحد مراكز الإشعاع الثقافى فى شرقى الأندلس الجنوبى كما كانت أحيانا قاعدة الخلافة بنى حمود الأدارسة

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة الثلاثاء ١٢ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨ هـ — ٢١ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨ م)

وكذلك لبني هود الحذامين من ملوك الطوائف .

ولهذا الكتاب مؤلفان وذلك أن واضعه الأول توفى قبل إتمامه فأتمه ابن أخته . ولا يعرف له عنوان خاص وإنما يطلق عليه اسم تاريخ مالقة، والنسخة الفريدة الموجودة منه بالمغرب تبتدئ هكذا : «كتاب جمع فيه بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائهم ، مما ابتدأ تأليفه الفقيه المتفنن محمد ابن علي بن خضر بن هارون الغساني المشهور بابن عسكر، وقد كمله ولد أخته محمد بن محمد بن علي بن خميس لما عاجلته منيته . ويعد هذا التقديم مباشرة ورد : منهم محمد بن عميل العاملي .

ومعنى هذا أن هذه النسخة الفريدة التي وصلتنا هي تقديم ابن خميس ؛ أما الأصل الذي وضعه أولا ابن عسكر فلا يزال ضائعا، ومعنى هذا أيضا أن ابن عسكر كان وصل في كتابه إلى المحمدين في حرف الميم ، فيكون أنجز الحروف الآتية حسب الترتيب المغربي ا — ب — ت — ث — ج — ح — خ — د — ذ — ر — ز — ط — ظ — ك — ل — وأول الميم ، أي نحو النصف من التراجم وحيث أن باعتبار ما بقي لنا منها وهو اثنان وستون ومائة ترجمة يكون مجموع الكتاب أكثر من ثلاثمائة ترجمة .

وقبل أن نصف الكتاب وما اشتمل عليه يحسن أن نتعرف على ترجمة مؤلفيه : ابن عسكر وابن خميس :

ترجمة ابن عسكر :

كان هذا المؤلف من علماء مالقة الأكابر وأدبائها اللامعين، واسمه الكامل ، كما كما ورد في الترجمة الحافلة التي عقدها له ابن أخته مؤلف هذا التتميم الذي نحن بصدده، هو محمد بن علي خضر بن هارون الغساني المشهور بابن عسكر . وقد ترجم له كثير من المؤرخين كابن الخطيب في الإحاطة والقاضي النباهي في المرقبة العليا وابن الأبار في تكملة الصلة وغيرهم : وكانت ولادته بقرية قريبة من مالقة سنة ٥٨٤ هـ ودرس بمالقة أخذاً عن شيوخها، ومن جملتهم أبو الحجاج ابن الشيخ صاحب كتاب ألف باء المعروف والمطبوع قديما بالقاهرة، كما أجازه محمد القرطبي وأبو علي الرندي وأبو الخطاب بن واجب وغيرهم وكلهم من مشاهير علماء الأندلس . وقد تصدر للتدريس وصار من كبار علماء مالقة وأخذ الطلبة من الأندلس وبلاد المغرب يرحلون إليه للأخذ عنه ، وعين نائباً لقاضي مالقة ثم عين استقلالا ، فرجا من الأمير أبي عبد الله بن نصر أن يعفيه من هذه المسؤولية فأبى عليه، وكان ذلك سنة ٦٣٠ هـ : فاضطر للرضوخ . قال ابن خميس : «وظهرت في أيامه الحقوق وسار من السيرة الحسنة ما لم يسرها أحد قبله» . وقد ألف كتبا في العلوم الإسلامية وغيرها وهي كما في التتميم «عجيبة متداولة بين أيدي الناس». نذكر منها نزهة الناظر في مناقب عمار بن ياسر، أهداه لبني سعيد أصحاب قلعة يحصب المشاهير، وهم ينتسبون

لهذا الصحابي الجليل، ومن تأليفه «الجزء المختصر في السلوّ عن ذهاب البصر».

وكان ابن عسكر يقرض الشعر ويكتب نثرا فنيا رائعا، وقد أورد له ابن خميس نماذج من شعره ونثره.

أما الكتاب الذي أذاع ذكره وعوّل عليه جلّ الذين ألفوا في رجالات الأندلس بعده، فهو تاريخ مالقة الذي أدركته المنية سنة ٦٣٦ هـ وهو يحرره. وقد توفي عن سن تناهز الخمسين رحمه الله.

ترجمة ابن خميس :

وإذا كنا نعلم كل هذه التفاصيل وغيرها عن ابن عسكر فإن ابن خميس الذي بتتميمه لكتابه حافظ لنا على ذكره لا نعرف عنه إلا القليل، وهو أنه كان يسمى أبا بكر محمد بن محمد بن خميس وأنه ابن أخت ابن عسكر.

ومن شيوخه الذين يروى عنهم في في كتابه أبو عمرو بن سالم: ونعلم كذلك أن ابن خميس كان يعيش في النصف الأول من القرن السابع، وآخر تاريخ ورد في تتميمه هو سنة وفاة أبي عبد الله محمد ابن عيسى المومناني وهي سنة ٦٣٨ هـ سنتين بعد وفاة خاله. ولاشك أنه عاش بعد ذلك، ولكن لا نستطيع تحديد سنه، إنما باعتبار أن خاله توفي في السنة الحادية والخمسين من عمره يمكن أن تقدر أن ولادة ابن خميس كانت في حدود سنة ٦٠٥ هـ ويكون عمره عند تأليف تتميم تاريخ خاله نحو الثالثة والثلاثين.

وينبغي أن ننبه إلى وجود مؤرخ مغربي آخر يدعى ابن خميس وهو محمد بن أحمد ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن علي بن أبي بكر بن خميس المتوفى سنة ٧٥٠ هـ وله تاريخ الجزيرة الخضراء، وكان خطيب مسجدها الجامع كما له تاريخ مدينة سبتة، وقد تولى كذلك الخطبة بجامعها. ويحمل كذلك هذا الاسم شاعر مشهور من أهل تلمسان.

كما يوجد ابن عسكر آخر من أهل المغرب له تأليف في التراجم أشرنا إليه من قبل، هو صفوة من انتشر في رجال القرن الحادي عشر.

كتاب تاريخ مالقة :

قدمنا أن هذا الكتاب ليس له اسم خاص وأنه لا يعرف إلا باسم تاريخ مالقة أو تاريخ ابن عسكر وعمل ابن خميس يسمى التتميم: ولكن ابن الخطيب الذي ينقل عنه كثيرا في الإحاطة يسميه الإكمال والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام. ونحن نعلم أن أبا العباس أصبغ بن عباس المالقي المتوفى سنة ٥٩٢ هـ كان ألف كتابا في رجال مالقة اسمه الإعلام بمحاسن الأعلام، فيكون الإكمال هذا ذيلا عليه. ثم إن ابن الخطيب نفسه يقول في الترجمة الوافية التي خص بها ابن عسكر إن هذا الكتاب يسمى كذلك مطلع الأنوار ونزهة الأنظار في ما احتوت عليه مالقة من الرؤساء والأعلام الأخيار، وتقييد المناقب والآثار. وسماه للمرة الثالثة باسم آخر وهو نزهة البصائر والأبصار: ومن عجب

أن هذا الكتاب الذى نسب له ابن الخطيب ثلاثة أسماء لا يعرف بواحد منها مطلقا .

والآن بعد هذه الإيضاحات فما تحتوى عليه الصفحات ٢١١ الباقية من التتميم أنها اثنتان وستون ومائة ترجمة لعدد من الخلفاء والرؤساء والأدباء والشعراء والفقهاء والثوار، ممن كانوا من أهل مالقة وعددهم ١٠٤، ومن أهل مدن الأندلس والمغرب المستوطنين أو الواردين على مالقة .

وهذه التراجم مرتبة على حروف المعجم على الطريقة المغربية، وقد قدمنا أن ما بقى لدينا يبتدئ فى وسط حرف الميم، وطريقة ابن خميس فى كتابة هذه التراجم أن يذكر أولا الاسم كاملا، ويذكر الكنية لاعتناء المغاربة بها، كما يعنى المشارقة باللقب المنسوب للفظ الدين كشمس الدين وبدر الدين وصلاح الدين ونحوها، ثم ينبه على بلده، أى يصرح بأنه من أهل مالقة إن كان منهم وإلا فيذكر البلد الذى جاء منه، وإذا كان يجهله يقول مثلا : ورد علينا، أو عبارة أخرى تشعر بأنه ليس من أهل مالقة .

ثم يأخذ فى ذكر بعض أخباره وهو لا يطيل فى هذا مع الأسف، ولكن يأتى بالمهم، وإذا كان المترجم شاعرا أورد نماذج من شعره تستغرق بضع صفحات أحيانا ويذكر فى الأخير تاريخ وفاته إن كان يعرفها، وأحيانا أخرى قليلة تاريخ ولادته .

ومن التراجم المفيدة فى هذا الكتاب ترجمة أبى عبد الله محمد بن حسن ابن محمد بن صاحب الصلاة الأنصارى ص ٤٢ من أهل مالقة .

ترجمة أبى عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عياش ص ٦٤، كاتب المنصور الموحدى، وكثير من رسائله الفريدة منشورة فى كتاب « الرسائل الموحدية » من أهل مراكش .

ترجمة محمد بن عبيد بن حسين بن عيسى الكلبى ص ٧، وكذلك جماعة من فقهاء بيت بنى حسون قضاة مالقة .

ترجمة خاله مؤلف الأصل محمد بن على بن خضر بن عسكر ص ٧٧ — ٨٩ وقد أورد له نماذج متعددة من شعره فى شعره فى عشر صفحات

ترجمة أبى عبد الله محمد بن غالب الرصافى الشاعر البلنسى المشهور دفين مالقة وقد أورد له كثيرا من شعره فى عشر صفحات كذلك ص ١٨ — ٧٢ .

ترجمة أبى الحسن مقدم بن معافى صاحب التواشيح ص ٥٩ إلا أنه لم يورد له شيئا منها — وهو من أهل مالقة .

ترجمة أبى بحر صفوان بن إدريس المرسى نزيل مراكش وأقام بمالقة ص ١٠١ وهو من فحول شعراء المغرب والأندلس وقد وقع بتر أثناء ترجمته، إذ تنقص هنا صفحتان كان فيها تمام ترجمة وابتداء ترجمة شخص آخر لا نعرف اسمه .

تراجم بعض بنى عباد أصحاب إشبيلية ومن جملتهم المتضد بن عباد ١٤٤

ترجمة عبادة بن عبد الله ... بن ماء السماء، وهو كذلك من أصحاب الموشحات المعروفين، ولم يورد له كذلك شيئا منها ص١٤٥؛

ترجمة عبد الأعلى بن موسى بن نصير وهو ولد الفاتح الكبير موسى بن نصير . وفى هذه الترجمة معلومات عن فتح القائد الشاب عبدالأعلى لمالقة التى كانت تدعى رية.

ترجمة عبد الله بن عبد الملك بن سعيد القائد مع الكلام على هذا البيت الشهير بنى سعيد أصحاب قلعه يحصب، التى صارت تنسب إليهم وتسمى الآن عند الإسبان Alcala la Real أى القلعة الملكية ــ ص١٢٢

ترجمة عبد الله بن على بن زنون وغيره من أفراد هذا البيت الذى كان له نفوذ كبير فى مالقة أيام بنى هود . ص١٢٤

ترجمة أبى الحسين محمد بن أحمد ابن جبير الكنانى الرحالة الشهير . ص ٥١

ترجمة عبد الجبار بن المعتمد بن عباد الذى ثار على المرابطين بعد أسر أبيه ص ١٣٤ .

ترجمة الإمام أبى زيد عبد الرحمن ابن عبد الله السهيلى دفين مراكش، وأحد رجالها السبعة وهو صاحب الروض الأنف رحمه الله . ص ١٢٧

ترجمة الشاعر الكاتب عبد الرحمن بن محمد بن يخلفتن الفزازى من أهل المغرب كاتب الأمراء والخلفاء الموحدين . ص ١٣٣

ترجمة السيد عبد العزيز بن أمير المؤمنين أ. يعقوب يوسف الموحدى . ولفظه السيد فى اصطلاح الموحدين، معناها الأمير ص ١٣٣

ترجمة على بن حمود بن ميمون الإدريسى الحمودى من أهل سبتة، وهو مؤسس الدولة الحمودية بمالقة . ص ١٥٥ ، مع تراجم جماعة من بنى حمود .

ترجمة عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر الثائر الإسبانى على بنى أمية وفى ترجمته معلومات عن هذه الثورة التى أقضت مضاجع خلفاء بنى أمية حتى قضى عليها الخليفة الناصر لدين الله .

ترجمة أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبى السبتى المحدث الكبير، وشيخ الملك الكامل هنا بالقاهرة ، وقد بنى له مدرسة الحديث الكاملية . ص ١٧٣

ترجمة أبو حفص عمر الهنتاتى القائد الموحدى الشهير، وقد ولى مالقة ثم تونس وهو جد الملوك الحفصيين بتونس . ص ١٧٣

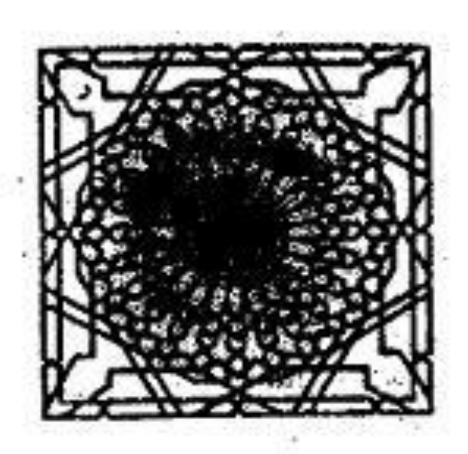
ترجمة أبى الفضل عياض بن محمد بن عياض اليحصبى السبتى وهو حفيد القاضى عياض . ص ١٧٨

ترجمة سليمان بن عمشيل بن يحي بن أحمد بن داود العاملي، مع الكلام على هذه الأسرة المالقية المنجيدة بنى عميثيل. وفي الكتاب تراجم لأكابرهم ص ١٩٠

ترجمة أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يحي البلوى المعروف بابن الشيخ، وهو مؤلف كتاب «ألف» بالشهير :

هذه نماذج فقط من عناوين التراجم المحتوى عليها هذا المؤلف القيم، وإلا ففى كل ترجمة من التراجم الأخرى فوائد جمة، وبؤسف لضياع قسمة الأول، وعسى الأيام أن توقفنا عليه، إذ لا نزال في كل سنة نكتشف ذخائر جديدة في خزاناتنا بالمغرب، مما كنا نعتبره مفقودا، وحتى مما لم نكن نعلم بوجوده. والمولى تعالى يوفقنا إلى الصواب والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد الفاسي
عضو المجمع



العربية فى تونس :

بين الفصحى والعامية

للدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة

أشار العلامة ابن خلدون منذ القرن الثامن للهجرة إلى طبيعة هذه اللغة التى نكتب بها ونتحدثها فى ديارنا التونسية . فقال فى القسم السادس والأخير من مقدمته فى الفصل التاسع والثلاثين حين تكلم على لغة أهل الحضر والأمصار لعهده وتميزها عن لغة مضر :

« اعلم أن عرف التخاطب فى الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل ، بل هى لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربى الذى لعهدنا ، وهى عن لغة مضر أبعد . فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذى يعدّ عند صناعة أهل النحو لحناً ، وهى مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار فى اصطلاحاتهم ؛ فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشىء للغة أهل المغرب ، وكذا أهل الأندلس معهما . وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما فى نفسه . وهذا معنى اللسان واللغة . وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم . وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمى . . . واعتبر ذلك فى أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق . أما إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ، ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل . فغلبت العجمة فيها على اللسان

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة الثلاثاء ١٢ من ربيع الآخرة ١٣٩٨ هـ = ٢١ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨م)

العربى الذى كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة . والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه . فهى عن اللسان الأول أبعد » .

وهذه الفقرة التى اقتطعناها من المقدمة هى أقدم نص وقفنا عليه يتعرض لموضوعنا ويحدد معالمه . فلا بدع إذا كان المرجع والمنطق لأكثر من درس هذه القضية من المستشرقين . فهو يضع الأصول الثلاثة للبحث :

أولا : قرب اللسان الأول لأهل الحضر والأمصار زمن فتحها وبعده بقليل من لغة مضر .

ثانيا : اختلاف العربية عربية الحواضر والأمصار بعد ذلك عن اللسان الأول واختلافها بعضها عن بعض فى اصطلاحاتها .

ثالثا : اختلاف لغة أهل إفريقية عن اللسان الأول بسبب الاختلاط بالأعاجم .

وهذه الأصول أو الجوانب الثلاثة أو قل هذه النتائج أو الحقائق التى انتهى إليها وأقرها ابن خلدون هى مع اختلاف الأسباب والطبيعة فيما بينها جد هامة قمينة بالبحث جديرة بالشرح والتعليل . ولو تناولنا الدراسات كل واحد منها بعينه مستقلا عن غيره لما كان ذلك كثيرا بجانب ما يمكن أن يكشف عنه من عوامل تاريخية وأسباب اجتماعية وسياسية ، وعناصر اقتصادية وحضارية وظواهر نطقية ولغوية ، وليس مثل ذلك بوسعنا فى هذه العجالة . ولكننا نكتفى بالإشارة إلى جملة من ذلك عند تعرضنا لتلك الأصول والجوانب كلها ، ونحاول قبل الحديث عن العربية بتونس بين الفصحى والعامية أن نمهد لذلك بكلمة قصيرة مقتضبة نتعرض بها إلى لغة أهل إفريقية قبل الفتح العربى الإسلامى ؛ ليتبين لنا بالمقارنة الدور الجليل الهام الذى لعبته العربية بإفريقية خاصة وبالمغرب عامة ، والاعتبار الكبير والمنزلة الرفيعة التى كانت للغة الضاد فى نفوس البربر كافة ، حضريّهم وبدويّهم من سكان المدن والسواحل والقرى أو من سكان النجاد والتلال والبوادى .

وبالرجوع إلى المصادر المختلفة المتعددة نجد أن البربر الذين انتشروا فى البلاد الممتدة من غربى النيل بواحة سيوا بمصر إلى المحيط الأطلسى بالمغرب الأقصى كانوا

يتكلمون لهجات بربرية متعددة تنحدر في جملتها من أحد الأصلين النوميدى أو الليبي لغة ماسينيسا ويوغرطة . وأن هذه اللهجات وإن اتحدت جنسًا متباينة فيما بينها بحيث لا يحصل التخاطب بواحدة منها ولا التفاهم عن طريقها بين من يسكن جبال نفوسة بطرابلس وبين من يعمر بلاد الريف بالمغرب. والبربرية وإن كتبت قليلا فى القديم كما تشهد لذلك بعض النقوش فإنها لم تكن لغة حضارية . ولحروفها شكل خاص كانت تتميز به . وربما وجدنا أثره ماثلا فى أبجدية التوارث «التفيناق» . ومما يشهد بضيقها ومحليتها وعدم وفائها بما يحتاج الإنسان للتعبير عنه من مشاعر وأفكار ركون ملك نوميديا البربرى يامبسال إلى اللغة الفينيقية لتحرير كتبه ، واعتماد الملك البربرى الآخر يوبا الثانى اللغة اليونانية فى رسائله ومؤلفاته .

ومهما يكن من أمر فإن عامة المواطنين من البربر المغاربة كانوا منعزلين أو فى حكم المنعزلين عن الحكام والسادة الذين ملكوا بلادهم وحكموها فى الجاهلية من فينيقيين ورومان وفندال وروم بيزنطيين ولكن هذا لا ينفى البتة أن الطبقة — الأرستقراطية من الحكام ورجال الإدارة والجند كانوا يتكلمون لغة غير لغة البربر هى الفينيقية فى عهد قيام دولة قرطاجنة واللاتينية فى عهد الحكم الرومانى .

وقد تساءل وليم مارسى عما يمكن أن تكون قد وجدته اللغة العربية من صراع مع بقايا الفينيقية واللاتينية بإفريقية والمغرب . فعرض للافتراض القائل بأن الفينيقية يسرت انتشار العربية فى بلاد البربر لاشتراكهما فى الأصل السامى . ورد هذا القول لخفته وعدم قيامه على حجج ثابتة . وتحدث عن اللاتينية التى نوه بها كلغة حضارة ودين ، واعتبر أن سلطانها كان فى هذه البلاد عظيمًا ، فبلاد المغرب أعطت لروما امبراطورًا كبيرًا هو سبتيم سيفير SEPTIME SEVERE ، وكاتبًا فائقًا هو آبولى APULEE ، كما أخرجت للمسيحية قديسين عظيمين هما ترتوليان TERTULIEN وأوجستان AUGUSTIN ؛ ولكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بأن اللاتينية زالت واضمحلت من ربوع

إفريقية والمغرب بهجوم الفندال فلم تبق إلا فى النقوش وما تكشف عنه الحفريات وأنها أخذت فى التقلص والفناء من منتصف القرن الخامس المسيحى . ورغم شهادة الإدريسى فى القرن الثانى عشر بوجود اللاتينية بالجنوب التونسى وأنها كانت مستعملة بقفصة فإن مما لا شك فيه أن هذه اللاتينية البربرية كانت ضعيفة محرفة لا تنتسب إلى لغة أوفيد OVIDE وفرجيل VIRGILE وسيسارون CICERON وأوجوستان AUGUSTIN. فهى لم تعد ولم تبق لغة حضارية تستطيع أن تثبت أو تصمد أمام لغة الغزاة العرب التى تحمل معها أدبًا وفكرًا وحضارة ودينًا .

وما أن تم فتح إفريقية والمغرب ودخل الناس فى دين الله أفواجا حتى قطع البربر كل صلة لهم بأمم غربى البحر الأبيض المتوسط ، وولوا وجوههم شطر الشعوب المشرقية العربية بمكة والمدينة ، ودمشق ، وبغداد ، والفسطاط . وقد كان هذا التحول دائمًا وقويًا سرعان ما شمل إفريقيا وما وراءها من المغربين الأوسط والأقصى وبلاد الأندلس. وامتزج العرب بالبربر وأورثوهم لغتهم ولقنوهم عقيدتهم وأشركوهم فى حضارتهم وأسباب عزتهم . ومن يعد إلى المصادر التاريخية يلاحظ أن تعريب إفريقية تم على مرحلتين : الأولى ابتداء من زمن الفتح فى القرن الأول للهجرة ، والثانية فى المائة الخامسة عند زحف بنى هلال وسليم .

ولم يكن التوطن والاستقرار للعرب الفاتحين فى المرحلة الأولى بغير المدن القديمة التى وجدوها بإفريقية أو بالمدن المستحدثة التى بنوها لأنفسهم مثل القيروان التى قال بشأنها مؤسسها عقبة ابن نافع : « مدينة تكون للمسلمين قيروانا وعزا للأبد » . وهكذا فإن الجنود التى أقبلت من الشام ومصر إلى شمالى إفريقيا فى عهد الأمويين وأوائل دولة بنى العباس ، والتى لم يكن عددها يقل عن مائة وخمسين ألف نفر مع من يتبعهم من نساء وأطفال وموظفين ودعاة استقرت كلها فى المدائن كما لاحظ ذلك ابن خلدون حين قال : « لأن الملك الذى حصل لهم يمنعهم عن سكنى الضاحية ويعدل بهم إلى المدن والأمصار » . وبالطبع أصبحت هذه المدائن

آهلة بمن دخلها من مضريين وقيسيين وعيميين وممن وفد إليها من مختلف القبائل اليمنية إلى جانب القرشيين والأنصار وعدد من جند خراسان . وعلى مدى قرن ونصف انتشر العرب في مراكز إفريقية التي اتسعت فشملت من الجنوب نصف طرابلس ومن الغرب ثلث قسنطينة . وتحولت المدن البيزنطية في شمال إفريقيا مثل باجة ومدينة تونس وحتى قابس في الجنوب إلى مدن عربية . وباتت هذه وأمثالها خاضعة لحركة تعريب جماعي امتد إلى المراكز الحساسة المتصلة بها والتي تحكم البلاد سياسيًّا واقتصاديًّا وتوجهها اجتماعيًّا. وأصبحت العربية بها جميعًا لغة الحوار وأساس الحضارة وأداة التعبير عن كل المشاعر والأفكار . وراع البربر الذين اختلطوا بالعرب إلى حد الامتزاج ما بلغة الضاد من روائع وما في القرآن من إعجاز . واتخذوا من نماذج الأدب الإسلامي والجاهلي أمثلة وصورًا يحاكونها ويتأدبون بها ، وبهرهم الإنتاج الأدبي والعلمي واعتدوا به تراثًا فخمًا . وحملهم التقدير للعرب والرغبة في الانتساب إليهم ولو ولاء إلى

تعلم العربية والتخرج على طرائقها وحذقها ، ثم التزامها وسيلة أداء ، والتزام ما يرتبط بها من مجموع الأذواق الجمالية والاتجاهات الشعورية العادات وأساليب التفكير . ساعد على تحقيق ذلك الدعاة والمعلمون والإرساليات الموجهة إليهم من المشرق قصد تعليم اللغة والدين . وقامت المدارس والمساجد بهذا المهم في العاصمة الجديدة القيروان التي أسس بها أول مسجد بإفريقية والمغرب وكذلك بالمدن الإقليمية مثل تونس حيث ازدحم البربر والرومان والخراسانيون بها مع العرب ، وجرى الحديث بينهم عربيا فصيحًا ، وظهر في عديد من المدن والأمصار الإفريقية جماعة من الشعراء والخطباء والعلماء والفقهاء . وشد أبناء إفريقية الرحلة إلى المشرق للاتصال بمالك ابن أنس إمام دار الهجرة رضي الله عنه ، أو للأخذ عن تلميذه ابن القاسم بمصر ، وذهبوا إلى البصرة وبغداد والشام وغيرها . ونفقت العربية لسان الدولة والدين وأصبحت لغة الشعب الذي يقطن المدن والأمصار وما يتصل بهما من الضواحي . وهي وإن اختلفت أحيانًا في

الحوار عن اللغة المكتوبة فبالتخفيف من الحركات والتسكين غالبًا لأواخر الكلمة .

ونحن وإن استطعنا الرجوع إلى كثير من النصوص والشواهد المدونة المكتوبة نتبين بها حقيقة انتشار هذا اللسان وظهوره ظهوراً كاملا على غيره فى هذه الديار فيما جمعه لنا المغفور له الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب فى كتابيه : الورقات والمنتخب التونسى ، والشيخ محمد النيفر من قبله فى كتابه عنوان الأريب فيما نشأ بإفريقية من عالم وأديب ، أو عدنا إلى ما دونه العلماء والفقهاء والخطباء والكتاب والشعراء من آثار تنطق بحذق أبناء إفريقية لهذا العهد حذقا تامًّا للسان العربى فإنا لم نقف على ما يشهد بمثل ذلك للحوار اليومى العادى الذى كان يدور بين السكان الأصليين وحاكمى البلاد ومسيِّريها من العرب ، بين التجار والموظفين والسواد من السكان فى المدن والأمصار بإفريقية .

وقد ذهب غير واحد من العلماء والمؤرخين إلى أن الفرق بين لغة الحوار واللغة المكتوبة فى ذلك الظرف لم يكن كبيراً ولا بعيدًا .

أما خارج المدن والأمصار فى القلال والنجاد والبوادى والمناطق البعيدة عن تلكم المراكز فإنا نعتقد أن العربية كانت مجهولة جهلا تامًّا ، أو على الأقل كان الحوار والحديث بغيرها بين البدو وأهل الريف من البربر ومن انضم إليهم من غير العرب من بقايا الأمم والشعوب التى كان لها بالسكان الأصليين ارتباط . ومن هذا يتضح لنا أن التعريب فى القرون الأربعة الأولى لم يشمل أطراف البلاد . وكان على الأعراب الذين زحفوا على إفريقية فى القرن الخامس أن يتموا ذلك ويضطلعوا به على الوجه الذى اقتضاه تفرقهم وانتشارهم فى كامل أنحاء إفريقية وخارجها .

قامت بهذا الزحف قبيلتان قيسيتان هما سليم وهلال جاءا من مصر إلى المغرب قصد الإطاحة بالنظام الزيرى والدولة الصنهاجية التى خلعت علنًا طاعتها وتبعيتها للدولة الفاطمية بالقاهرة . وقد كان بنو هلال الذين دخلوا إفريقية يمثلون فروعًا ثلاثة هى زغبة وأثباج ورياح . وقد انضم إلى هؤلاء وأولئك

الأعراب فلول من عديّ وجُشَم وعنزة وعدد من اليمنيين ينتسبون إلى معقل . دخلت هذه القبائل بأكملها يتبعها النساء والشيوخ والولدان . وكان عددهم يبلغ مليون نسمة . فعاثوا فسادًا بالقيروان . وبعد أداء مهمتهم التي جاءوا من أجلها لم يستقروا بالعواصم والمدن ولكنهم انتشروا في أطراف البلاد ، ومنها تسربوا إلى كثير من أنحاء المغرب . وخلال قرون ثلاثة تم تعريب البلاد التونسية كلها على أيديهم . ونحن لانحرف على التحقيق ولا نكاد نجزم بأن العربية الجديدة التي دخلوا بها وأشاعوها فيمن حولهم هي تلك العربية المكتوبة التي تحدثنا عنها أم هي عربية أخرى تتمثل في لغة هذه القبائل والعناصر المختلفة في لهجاتها وألسنتها . ولو صدقنا الروايات الشعبية التي تحكي لنا مغامرات بني هلال ورياح لوجدنا بينها وبين العربية نسبًا ولكنها بدون شك ليست هي العربية التي عرفناها في نصوص الأدب والشعر وكتب العلم والفقه .

ومن ذلك العهد فيما نحسب اختلفت اللغة العربية بإفريقية بين العربية المكتوبة المدونة أو الفصحى وهي عربية التدريس والتعليم والإنتاج الفكري والثقافة وبين العربية الدارجة العامية التي يتحدثها عموم الناس ويتكلمها حتى الخاصة في غير شئونهم الهامة ومواقفهم الرسمية . وربما سميت العربية الأكثر انتشارًا بين السواد من العامة « البربري » ؛ لأن المتكلمين بهذا اللسان في الأصل من البربر لم يبلغوا في النطق بها واستعمالها مبلغ المتكلمين « بالعربي » ؛ أي باللسان العربي من الفقهاء والعلماء والأدباء والقضاة والأئمة والعدول والمعلمين ونحوهم . ومما يؤكد ذلك إطلاق عامة أهل تونس إلى عهد غير بعيد وصف « الفقهي » هكذا بضم القاف على اللسان العربي الفصيح مقابلة له بالبربري أو العامية والدارجة للغة الحوار .

ومن الملاحظ أن العربية الفصيحة كانت وما تزال هي هي بين كل الأقطار والأمصار في البلاد العربية . فهي لغة القرآن ولغة الدين يتدارس الناس قواعدها ويبحثون قوانينها والتصرفات القولية فيها مع ما يروونه أو يكتبونه من روائع

الأدب والشعر بها . أما الدارجة العامية فهى مختلفة اختلافًا كبيرًا من قطر إلى قطر ومن مصر إلى مصر . فلغة الحوار بالمغرب تباين مباينة واضحة لغة الحوار بالمشرق لخضوع كل مجتمع للهجة تميزه بحسب اختلاط العربية فيه ببقايا اللغات أو اللهجات التى كانت مستعملة به . ولغة الحوار بالمغرب وإن اتفقت فى الجملة لكنها متمايزة بين أهل ليبيا وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى والأندلس . وذلك بقدر غلبة العجمة على اللسان وتمايز العناصر فى البيئة المتكلمة بالعربية فيها . فبحسب الهجرة والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يكون تفاعل الألسنة ، ويظهر أثر ذلك وإن اختفى فى الأكثر فى اللغة المكتوبة فيما تتداوله الألسنة ويستعمله العامة من كلام تعبيرًا عما فى نفوسهم وتصويرًا لخواطرهم وآرائهم .

ونحن بإفريقية أو تونس بعد أن شمل التعريب الكامل أطراف البلاد فى نهاية القرن الثامن أى بعد ثلاثمائة سنة من الزحف الهلالى تعرضت البلاد إلى حملات من الخارج ، وتلقت عناصر من المهاجرين الأندلسيين آوتهم ، أو من الزاحفين والمتسلطين كانت لهم مقرًا . وكان لتلك وهؤلاء أثر واضح فى لغتنا وما تجرى به طرائق الاستعمال عندنا

فالمهاجرون الأندلسيون وما انتقلوا به إلى إفريقية من صناعات وعادات وتقاليد والاحتلال الأسبانى وما تركه من آثار فى لغة الخطاب والحوار والفتح العثمانى وما صاحبه من أنظمة وأوضاع وترتيبات وأحوال — والعنصر الإيطالى أو الصقلى الذى لقرب الدار كان يتردد على الثغور والعواصم ويعمل فى المزارع وصيد البحر وصناعة البناء — والحكم الفرنسى الذى هيمن بنفوذه ومدارسه ومؤسساته ونظمه على البلاد ردحًا من الزمن كان لهم جميعًا أثر أى أثر فى اللغة الدارجة وفى الحياة المستحدثة المستجدة والمتطورة ، وكانت لتلك الفئات والأجناس المختلفة والمتعددة مع البقية القليلة من العنصر البربرى دخل كبير فى تشكيل العربية العامية بتونس بصورة يختلط فيها اللسان العربى

الفصيح بألوان الرطانات والاستعمالات الغريبة التي تنطق كلها بتلك النسب والعلاقات التي كانت وما تزال للعنصر العربي الغالب أو المستعرب من السكان بغيره من العناصر المعايشة له والممتزجة به.

ومن المناسب أن نلمع هنا إلى آثار هذه الألسن الأعجمية في لغة الحوار التونسي .

أما أثر البربرية التي لم تكن كما سبقت الإشارة إليه لغة حضارة وعلم وأدب والتي كتبت قليلا وبأحرف عربية من عهد ابن تومرت الذي استعملها لنشر عقيدته ومبادئه السياسية والإصلاحية بين عامة البربر في بلاد المغرب، فإن التجمعات السكنية المتحدثة بها لا تكاد تذكر بالبلاد التونسية وبالمقاطعة الغربية من الجزائر ووهران ؛ لأن نسبة الباقين من البربر بهما لاتتجاوز ١ ./. من عامة السكان . وهذا الوضع يختلف بالطبع عن النسبة المرتفعة لهم ببقية بلاد المغرب ؛إذ تبلغ تجمعاتهم بطرابلس ٢٣ ./.من السكان وبقسنطينة ٢٧ ./. – وبالجزائر ٣٤ ./.– وبالمغرب الأقصى ٤٠ ./. . فلا بدع إذن إذا كانت الكلمات البربرية المستعملة في العامية الطرابلسية والقسنطينية والجزائرية والمغربية أكثر من التي نجدها بدارجة وهران أو تونس . ولا بدع أيضًا إذا كانت بجبال نفُوسة وجبال أوراس وبلاد القبائل وبالريف من بلاد المغرب وبجبال الأطلس جماهير متميزة تتحدث إلى اليوم اللسان البربري . وإن اختلف هذا اللسان اختلافًا كبيرًا من جهة إلى أخرى، بحيث لا يكاد أصحاب المناطق المتباعدة المتكلمة به التوصل إلى التفاهم عن طريقه وإن شعروا بكونهم يتكلمون لغة واحدة وينتسبون إلى أصل واحد .

واللسان البربري بتونس كنا نسمعه من ثلاثين سنة بين الدويريّة من المستوطنين للعاصمة وضواحيها ،أو يتراطن به الخومّس من الجرابة كما نقول في تونس وهم أهل جربة من الخوارج . ويمكننا بسهولة أن نحدد المناطق المتحدثة بالبربرية فيا بينها وبالدارجة مع بقية الناس في جنوبي البلاد شرقي مدينة قفصة بتماقرت والسند وشمالي مطماطة بزوارة، وتمزرت ، وبجزيرة جربة بباجيم وقلالة

وصلدويفش والماى ومحبوبين وسدريان .

ومازلنا إلى اليوم فى اللسان التونسى نستعمل استعمالا شائعًا كلمات بربرية مثل :

آبْزيز – عند زواوة وبجاية – جراد .

بُوِيْزِيز – عند الشاوية – صَرصر .

تَبْرُورى من أبْرُورى ويقال : تَبْرِيرو برَد .

علوش من تغـلاش ، أعلوش ج يعلوشن – خروف ، خرفان .

قَرطاس من أقَرْطاس من أصابه القرع – أقرع .

قَرْطَطوُّ يقال : بُوقرْططو وأقرْطَطُّو – فَراشة .

فَكْرون – أفُكَر ، أيَفكر ج أيفْران ، أفكر الماء ، أفكر الصحرى – سلحفاة .

قَرْجُومة أكَرْزُوم تكرزمت تكرجومت – مقدم العنق .

قطوس – قتوس – أكطوس ، ياطوس – قط .

كركر – كركور – كتلة من الحجارة المقدمة بجنوب المغرب ، وتسمى بها قرية بالساحل التونسى ، وهى أيضًا لقب عائلى .

أما الكلمات الأسبانية التى نقلها المهاجرون الأندلسيون إلى إفريقية فى عهد الدولة الحفصية فهى على نوعين : منها ما هو عام وهو كثير نذكر منه على سبيل المثال الألفاظ التالية :

بَالَه Pala مجرفة – رفش .

روشْكة rosca لولب .

شِبْرِلّة من شِرْبِيل Servilla حذاء نسائى على شكل « بلغة » صغير . جميل الصنع – ويصنع من الجلد الملون من القطيفة مطرز .

شِرلّيه Cerraja قفل .

قَجَر Cajon درج .

كريطة Carrita عربة – مركبة تجرها دابة .

كنباص Compas آلة ضبط ، بوصلة ميزان موسيقى ، فكر يقود ويدير .

كياس Calles طريق معبد ، شارع .

ومنها ألفاظ اصطلاحية تستعمل عند العمال المخصصين بصناعة الشاشية لم

نقف بعد على الكلم الموافقة لها في اللغة الأسبانية مثل :

شنشار : تسمى به شوكة الكرضون التي قطعت من نصفها .

كنبوتش : عود من الكرضون اليابس رقيق تثبت به البوصات الخمس .

ومنها وهو كثير الألفاظ الإصطلاحية المتداولة حتى اليوم بين أهل صناعة الشاشية والتي أمكننا أن نضبط بصورة دقيقة أصولها الإسبانية وذلك مثل :

أباكار	Acabar	إتمام – إنجاز المرحلة الثانية من ندف الشاشية بالكرضون
أفينار	Afinar	إحكام – المرحلة الثالثة والأخيرة من ندف الشاشية وتكون بكرضون خاص ، وكلمة أفينار وصف يلزم حالة واحدة مفردًا وجمعا تقول : شاشية أفينار، شواشي أفينار .
بازويلا	Bazuila	حلقة خشبية صغيرة تجعل قاعدة لقطع الكرضون الخاص التي تشد إليها في تماسك الواحدة فوق الأخرى في شكل أسطواني .
باطان	Batan	معمل التلبيد ، تغسل به الشواشي بالماء الساخن – والصابون وتوضع في قوالب خشبية
بانكو	Banco	مكان لصانع الشاشية يجلس به ويضع أمامه الالات التي يستخدمها في عمله .
بتتور	Batidor	عصا كعصا الشرطي وأطول منها قليلا تضرب بها الشاشية لتنظيفها .
بترون	Patron	قطعة من الجلد السميك على شكل الشاشية توضع هذه فوقها عند الصنع وتعطيها الشكل المطلوب .
بذير	pared	حائط الشاشية – ارتفاعها .

برقميلو	Perqamino	قطعة من جلد الماعز مدبوغة تحفظ بها الشاشية بعد صنعها وقاية لها .
بروكة	Bronca	السلك الحديدى الذى تثبت به الأجزاء التى يتألف منها البضاطورش ، وهى الشاوش والبزويلة والقصبة أو عود العناب .
برينشة	Prensa	مكبسة خشبية بها ألواح كثيرة يسمى الواحد منها تبليقة ومغزلان . وتشد بلولبين بأعلاهما ثقب يدار بقروطى .
بضاطورش	Batidous	مشط ، آلة تلين شعرة الصوف بعد ندف الشاشية بواسطة القبنيثة .
بلادا	Bilaba	مجموعة الشواشى التى يحتوى عليها الباطان .
بورة	Borra	مجموع ما يفصل من أشعار الصوف أو ما يقصّ منها عند صنع الشاشية وشمنيار البوردى، وهو ما يفصل بالنقص من حرف الشاشية بعد صبغها وصنعها .
بوردى	Borda	حرف الشاشية .
بوطار	Botar	المرحلة الأولى من مراحل ندف الشاشية .
بى	Pié	ولى القطع الخمس من الكرضون الذى يتألف من البضاطورش وأكبرها حجماً . والواحدة من القطع تسمى بوصة .
بينسيج	Pinzos	ملقاط .
تبليلة	Tablila	واحد الألواح الموجودة داخل البرينشة .

تريميذو	Trésmédio	القطعة الرابعة من الكرضون .
تكليلش	Téjerillas	مقص خاص يقطع به الكرضون والشمنيار .
ثواركو	Tuérco	ثقب بأعلى اللولب الذى يشد البوينشة .
دوميذو	Dosmedo	القطعة الثانية من القطع الخمس من الكرضون وتسمى أيضًا الثانية .
شوبو	Hisopo	مرشة زيت يدهن بها حديدتا المقص .
شينتو	Ascientio	المكان الخاص بالصانع الواحد ويكون أمامه .
طريحة	Tarea	مايعين للصانع عمله فى وقت محدود ، وهى فى هذه الصناعة مجموعة ١٢ شاشية .
فوندة	Funda	ورق مقوى يوضع على بذير الشاشية لوقايتها من الخرم .
قروطى	Garrote	مضغط .
كبيتة	Copete	خصلة شعر – وهنا خصلة من حرير تثبت بوسط أعلى الشاشية ، ويشدها كبيتش وهو فتيلة صغيرة من حبل صوفٌ ملبد .
كبيسة	Cabeza	المعلم والقطعة الخامسةوهى العليا من الكرضون –كبيسة بانكو Cabeza-Banco رئيس الصناع
كرديتة	Cardita	قطعة من جلد بها مسامير معدنية ينقى بها الكرضون من البورة .
كرضون	Cardo	نبت بأعلى سوقه شوك تتخذ منه منادف لإثارة شعرات صوف الشاشية بعد تلبيدها ، والكلمة عامة مستعملة فى اللغات الرومانية كلها .
كروصان	Cruzar	حرف نصف الشاشية .

كروضو	Crudo	الشاشية بعد تلبيدها بالباطان وقبل صنعهاوالكلمة وصف يلزم حالة واحدة إفرادا وجمعًا .
كريل	Carril	مجموعة الشواشي عددها ٢٤
كواترو	Cuatro	الجزء الواقع بين البذير وحرف الشاشية .
كوارتيش	Cuartel	قطعة من جلد ضأني صقيل توضع في الشاشية بعد إكمال صنعها لتكون ملساء ناعمة .
كورنيلتة	Cornilla	سقف الشاشية .
كوكان	Cojel	قطعة من الجلد يضعها العامل على ركبته تساعده على صنع الشاشية بعد صبغها .
لبديش	el envés	داخل الشاشية .
لمّيتة	Laminita	آلة تشبه المبرد يثقب بها الكرضون .
ماصو	Mazo	مطرقة خشبية تلبد بها الشاشية .
ميذو	Médio	القطعة الثالثة وهي الوسطى فى الكرضون .
هاص	Haz	الجانب الخارجي للشاشية .

أما الاستعمالات التركية وحتى الفارسية التى نجدها مشتركة بين البلاد العربية التى خضعت قديماً لدولة الخلافة العثمانية ، فإنا نقف منها بتونس على مجموعة من الألفاظ قد يكون رسمها والنطق بالكثير من بينها مختلفين بعض الشيء عنهما فى مصر والشام ونحوهما . ومن أمثلة ذلك :

روشَن Rusen المكان البارز الفخم .

زِنْبَراك : دافع يصنع من المعدن .

صَارْمِيّة : رأس مال .

طارمة Taem قبة ، سقف ، تستعمل فى تونس للدلالة على نوع من الخزائن أو الدرج المثبتة بالجدار .

كَنّار : حاشية النسيج .

ومن التركية الألفاظ التالية :

أغا Aga الأسرة. لقب عائلي بعونس.

ألاى Alay قوة عسكرية والقائم عليها

ميرالاى Miralay من مير الفارسية عن العربية أمير .

سْطَا : أو سْتَة Usta الماهر من الصناع وأهل الحرف . تستعمل الكلمة بكثرة بمدينة صفاقس .

أونباشي Unbaşi كلمة مركبة من باش بمعنى رأس وأون بمعنى عشرة رأس العشرة .

بازين – بازينة : نوع من الطعام يصنع من الدقيق والزبدة والسكر .

باش Baş رأس – رئيس – آمر .

باشا :لقب تركي ملكي ، عسكرى ،وربما كانت الكلمة محرفة عن بشبه Başe الأخ الكبير .

بالك : بلكية : أخذت من الفارسية وتتكون من بل العربية وكيه التركية التي تعتبر أداة احتمال ومعناها فى الاستعمال العادى لعله .

براسيا : براسية : كراث .

بُرْقَدان : فى التركية باللام تكتب بالحروف القديمة بورتقال – فاكهة من الحوامض كانت تستورد من البرتقال فسميت به .

بريك ، بوراك ، نوع من العجين محشو باللحم والبيض أو بغيرها يقدم فى أول الطعام .

بشرف : Peşrev محرفة عن الفارسية وهي اصطلاح موسيقى يطلق عليها مايعرف بـ « التقسيم » وقبل الفصل الأصلى «والسماعى » الأخير

بِشْق : بجق – حديدة يستعملها الحذاء لقطع الجلد . وحديدة يقص بها نوع من الحشيش : « تبغ كان يزرع بتونس يعرف بالتكرورى والكيف » .

بُشمار : محرفة عن برشمان وبرشم وهى كلمة من أصل تركى فارسى يراد بها الطرز الحريرى الذى يكون بالجبة أو البرنس .

بكباشى : بكباشى وبنباشى Binbaşi كلمة مركبة من بيك أو بين بمعنى ألف وباشى وباش ، رأس الألف أو قائد الألف .

بلهوان : بهلوان ـ شجاع مصارع قوى البنية .

بهار : نوع من التوابل .

بوسطاجى : بوسطة + جى ـ موزع البريد .

بوغاز Bogâz الموضع الضيق من كل شىء ،ويطلق على الممر الضيق بحرا : المضيق .

بَىْ : باى ـ بك : Bey لقب تركى يطلق على الوالى ـ الحاكم للبلاد : وللمرأة يقال بيّة ، وفى الأصل بايا ، وهما بدل أفندى وخانم .

تارزى : ترزى ـ من الفارسية درزة خياطة . الخياط لقب عائلى بتونس .

ترسانة : Terşane محرفة عن العربية دار الصناعة .

جمباز : جنباز ـ جانباز Ganbaz اللاعب بحياته المجازف بروحه : نوع من الرياضة البدنية .

خازوق : kazik الوتد . كلمة تستعمل فى الدعاء على الإنسان بالشر .

خردة : Hurda من كل شىء أصغره ، ما صغر من السلع ، مقصورة فى التونسية على الأشياء المستعملة القديمة .

خَزِنْدار : خازندار Hazinedar أمين الصندوق . لقب عائلى بتونس .

خُشَاف : خوشاف ـ شراب الزبيب الجاف ـ وبتونس شراب السفرجل .

خوجة : Hoca خواجا ـ المعلم ـ المدرس ـ الأستاذ من رجال الدين . القارىء للقرآن ـ لقب عائلى .

دُغرى : الذهاب رأسا ـ صدق .

رِنقة : Ringa زنكة نوع من السمك Hereng

سراية : سراى : القصر الملكى الفخم .

شِيشة : Şişe الزجاجة . القارورة . والقارورة الخاصة بتدخين التنباك .

صادة : سادة ـ بسيط ـ غير مركب غير مزوق ـ بلا سكر عند الحديث عن القهوة .

طاقم : مجموع آلات وأدوات .

طاوة : طابة ـ مقلاة .

طرشى : Turşu الحموضة ،يطلق على المخللات .

عنبر : من العربية نبر ـ أنبار ، مكان تحفظ فيه المواد الغذائية ، بيت التاجر Ambar .

فِنجال : فى التركية منقولة من الفارسية بنكان الكأس المخصص للقهوة أو الشاى .

قازان : kazzan قدر كبيرة واسعة من النحاس يطبخ فيها المقادير الكثيرة من الطعام .

قازيق : kazik نفس كلمة قازوق ولكنها تستعمل بهذه الصورة للمعنى المجازى الدسيسة القديمة . الحيلة . الخدعة .

قمرق : المكس – الإدارة التى تتولى قبض المكس .

قفطان : قميص فوق .

قهوارطى : قهوالطى ما يتناول الصباح مع القهوة .

قِيش : قايش : جلد يسن به الحلاق موساه .

كاغد : kagit عن الفارسية Kagez ورق .

كراكوز : قرة كوز – وأصلهـا فارسى karogoz .العين السوداء – الشخص الأول فى لعبة الخيالاتية .

أما اللغة الإيطالية فإن أكثر ما دخل منها فى الاستعمال فى اللسان التونسى ألفاظ الحرف والصناعات التى كان يشارك الإيطاليون وأهل صقلية فيها ، أوالكلمات « اليومية » المتصلة بالتقاليد وأنـواع الطعام ولبيانذلك نعرض المجموعة التالية :

بالانسى	Balance	باخرة صيد .
بالانكو	Balanco	حاملة الأثقال – رافعة .
بالطو	Palto	معطف .
برودو	Brodo	حساء .
بيشى ليمونى	Pescelimoné	نوع من السمك أصفر اللون .
جرمان	Germano	شرمان – كلمة من أصل جرمانى تعنى بط .
جرناطة	Giornata	اليوم – ما يدفع من أجرة اليوم عن العمل .

روبافيكا	Robavecchia	الأثواب أو الأمتعة القديمة .
ريكامو	Ricamo	طرز بالإبر وشبيك مخرّم .
ستيفالى	Stivali	جزمة .
سقالا	Scala	سلم – تنظر إلى الأصل التركى « أسكلة » تستعمل للدلالة على خشبة توضع جسرًا للنزول من الباخرة إلى البر .
سكمبرى	Sgambri	نوع من السمك الأزرق يسمى بالفرنسية ماكرو .
صالصة	Salsa	مرق يعد من عصير الطماطم .
طاولة	Tavola	مائدة مرتفعة – منضدة .
فاما	Fama	شهرة – ذيوع صيت .
فانتازيّا	Fantasia	زهو سببه التميز بأنواع من الثراء الفكرى أو المادى .
فطشاطا	Facciata	واجهة .
كارطا	Carta	ورق .
كومودينو	Comodino	منضدة صغيرة توضع جانب السرير بغرفة النوم
لُمْبارا	Lampara	آلة إضاءة تستعمل فى الصيد البحرى .
لَمْبا	Lampada	مصباح – سراج .
مَقْرونة	Macheroni	أكلة إيطالية معروفة .

أما اللغة الفرنسية فقد كان استعمالها أكثر، وليس تأثيرها محصورًا فى ميدان واحد من الميادين، كغيرها من اللغات الأصلية أو الدخيلة . ولسوف نحاول الحديث عن ذلك مفصلا . ولكننا مع هذا نشير إلى أن الذين لم يدرسوا الفرنسية ولم يقرأوها تجرى على ألسنتهم كلمات كثيرة انتقلت إليهم بحكم الممارسة

اليومية أوالعمل فى بعض المصانع أوالقطاعات الكلمات المستعملة فى قطاع السيارة عند عامة الناس، مثقفهم وعاميّهم العارف بالفرنسية منهم والجاهل بها .

ويمكن أن نمثل لذلك بالألفاظ الواردة فى القائمة التالية وهى مفردات اخترناها من

آر بر	Arbre	جذع .
آكس	Axe	محور .
آكسيلارتار	Accélerateur	دواسة البنزين – مسرّع – معجل .
أمبرياج	Embrayage	دافع المحرك .
أمورتيسار	Amortisseur	رادع .
أنتان	Antenne	صارية .
باترى	Batterie	البطاريّة – المشحن الكهربائى.
بانس	Pince	مقبض .
بريكيه	Briquet	مقدح .
بلوك	Bloc	الجهاز بأكمله .
بواتا فيتاس	Boite à Vitesse	صندوق السرعة .
بوبين	Bobine	ملف كهربائى .
بونباوو	Pompe A eau	مضخة الماء .
بيستون	Piston	مكبس .
تانبور	Tambour	طبل .
تركتور	Tracteur	جرار .
تروفيزار	Rétroviseur	مرآة يرى فيها الناظر خلفه .
تولا	Tôle	صفيحة حديد .

ديلكو	Delco	آلة تجميع الكهرباء .
دمارار	Demarreur	مطلق .
دينامو	Dynamo	الدينم .
رديتار	Radiateur	المبرد المشعاع .
ريزرفوار	Rèservoir d' essence	خزان البنزين .
سترتار	Starter	مطلق ذاتي أو تلقائي .
سندريا	Cendrier	وعاء الرماد .
سيسبانسيون	Suspension	تعليق .
سيقما	Segment	قطعة الدائرة .
شاسي	Chassis	هيكل السيارة .
شاميز	Chemise	قميص .
شمبرار	Chambre à Air	الإطار الداخلي لعجلة السيارة ـ الأنبوبة .
فار	Phare	الوهاج .
فانتيلاتار	Ventilateur	مروحة .
فران	Frein	كابح .
فولن	Volant	مقود .
فيدانج	Vidange	تخلية ـ تفريغ .
ڤيس بلاتيني	Vis Platiné	لولب مصفح .
فيلتر	Filtre	مصفاة .
فيياز	Veilleuse	آلة الإنارة الخافتة .
قرقبو	Garde-Boue	الواقي من الوحل .

كبوط	Capote	غطاء .
كربيراتار	Carburateur	المبخّر .
كوروا	Courroie	سير – ج – سيور .
كريك	Cric	مرفع .
كلينياتار	Clignateur	الإشارة الضوئية .
كنتار	Compteur	عدّاد .
كوبراسار	Compresseur	ضاغط .
كوتشو	Caoutchouc	مطّاط .
كولاس	Culasse	مغلاق – قلنسوة المحرك .
مال اريار	Malle–Arrière	صندوق المؤخرة لنقل الأمتعة .

ولاتكمن صعوبة دراسة العامية التونسية فى هذا الخليط من الكلم والاستعمالات المختلفة الأصل والجنس، بقدر ما تظهر كبيرة فى تحديد طريقة النطق عند أهل تونس وأهل المغرب عامة . وأول من جابهته بعنف هذه الصعوبة المستشرقون . فقد كان الفرنسيون الذين يرغبون فى الاستقرار بشمال إفريقيا أو زيارته أيام الاحتلال الأجنبي، ويودون الاحتكاك بأهله والتعامل معهم بعد حفظهم لمجموعة من الكلمات تزيد أحيانًا على خمسمائة لفظة يتعذر عليهم فى أحيان كثيرة الفهم والإفهام، بسبب وعورة النطق أو تشابهه أوتشاكله لما يكون بين الألفاظ من اشتراك مرة وتجانس أخرى . ولما ينبهم من المعانى بسبب الخطأ فى الترقيق والتفخيم لبعض الحروف . وقد مثل بعضهم لهذه الصعوبة بالكلمات التالية :

أمان – من الأمن ، وأمان بتفخيم الميم = كيف يمكن ؟

أَمين ـ خبير ، وآمين ما يقال عند الدعاء .

بابا ـ مفخَّمًا أَبى ، مرقَّقًا بابُه .

باش ـ سوف ، باش : كساء سميك تغطى به مختلف الأمتعة .

برد ـ أحسَّ بالبرودة ، وبَرَّد من برد أى استعمل المبرد .

بِلاَّ ـ أمر بوضع الشيء فى الماء ، وبالله : قسم .

تاب ـ من التوبة ، وطاب ـ نضج .

حرام ـ بتدقيق الراء قطعة من النسيج توضع على الرأس وتسدل من الطرفين . وحَرام ـ ممنوع شرعًا .

دَوا = دواء ، ضوا ـ ضياء .

راجل ـ رجل واحد ، راجِل ـ يعنى بها جنس الرجل .

رَبّى ـ إلَهى ، وربِّى : حبر اليهود .

زَرْب ـ أسرع وجَرَب ـ مرض بالجرب ـ الجرب : المرض .

صُوم ـ سحر ، وصُوم أمر بالصوم .

فِرز ـ انتن ، وفَرج = العاقبة .

فِرش ـ بسط الثوب ، وفَرْش ـ سرير .

مُكْرا ـ أَجّر ، كره ـ لم يرض .

كَلّا ـ أكل ، وقلا ـ قلى .

لبابا ـ هو وسط الخبز الغير الناضج . لبابا ـ لأبى . الأولى بترقيق الباء والثانية بتفخيمها .

لِلاّ ـ ما يقال عند نداء السيدة ، ولله ما ينسب لله .

مَرّة ـ للواحدة ، ومُرة ضد العذب .

نْسَا ـ جمع امرأة ، ونْسا : جنس . نْسَا : نَسِى .

ولّى ـ بمعنى أمر ، ووالله ـ قسم .

ومن ثم أقبل المستشرقون ومن تبعهم من أبناء تونس وسائر بلاد المغرب من أصحاب الدراسات الألسنية على تحديد الكلم وضبط طرق النطق بها بحسب الأقاليم والجهات والمدن والقرى . وهم بعد إقرارهم بما بين اللغة العامية بالمشرق واللغة العامية بالمغرب من الاختلاف والتباين الذى يبرز بصورة واضحة فى قلة الحركات أو اختصارها ، كما فى خرج وسمعت وكتب وتفضّل . فهى عند أهل المشرق مسكّنة

الأواخر فى الاستعمال ، محركة بحركاتها الطبيعية فى بقية الأحرف كما فى الأصل الفصيح . وهى لدى المغاربة مسكّنة الأوائل بتوهم حركة سابقة فى الأكثر كسرة ، وتشريك الحرف الأول بعد السكون الطارئ عليه فى الحركة مع الحرف الموالى له فنقول : اخْرَج واسْمَعت واكْتِب وانْتَفَضل . وكذلك بعد إيرادهم الكلمات المشتركة بين أهل المغرب ، والمستعملة خاصة بشرقيه ، والمتداولة فحسب بالبلاد التونسية تعمقوا دراسة اللغة واللهجات داخل القطر التونسى مفرقين بين ما يستعمل من ذلك بالعاصمة أو بالمدن والقرى المتصلة بها ، وبين ماهو من خصائص الاستعمال والتعبير عند البدو الرحل .

وبقصد إنارة الباحث وتمكينه من تصور ذلك ، أحببنا أن نعرض عليه نماذج وأمثلة لكل هذه الاستعمالات .

فمن الكلم المشتركة فى الاستعمال بين عامة سكان المغرب كلمات متنوعة مختلفة الأصول مثل :

انزاص — اجاص

اكحل — أسود

ازعر — أشقر

برح — رفع صوته

بَرّاد — إناء يطبخ فيه الشاى

بلاّرج — نوع من الطير

بِيتَر — نوع من التين

بكُوش — أبكم

بَزّوله — ثدى

تَرّاس — أعزب — راجل

تَبْروری — برد

تِرْفَاس — نبت مثل البطاطس

تْغَشّش — غضب

جُرّة — أثر الأقدام .

جْرَان — ضفدع

جُغْمة — جرعة

حَلْ — فتح

حَرْقُوس — مادة نبتية تحرق حتى تصبح سائلا أسود تزين بها المرأة بوضع نقط منها فى وجهها أو خدها أو على حاجبها .

خمّم — فكر
خَطّ — نقص
خْدِم — اشتغل
رومى — نصرانى
زْرِب — أسرع
زْوَا — العصفور ، زقا
زَايْلة — دابّة
زَرْدَة — مأدبة
دَشْرة — قرية
سَلَّك — خلّص
سيّق — أراق الماء بكثرة قصد التنظيف
ساسا — سأل
سَرْدوك — ديك
مَتْلُوم — سلّم
سْخُون — حار
شْكَارة — كيس
شَاقُور — فأس صغيرة
شَارب — شفة
شَلْغُوم — شارب
صب المطر — نزل
صَوّر — حصل

صُمعَة — صومعة
صَبّاط — حذا
طاب — نضج
طَيّب — أنضج — طبخ
علّوش — خروف
عَرْش — فخذ القبيلة
عَتْروس — ذكر الماعز
فلُوس — مال
فَرطاس — أقرع
فكرون — سلحفاة
قد — يكفى
قَرجُومة — أول العنق
قْدِم — قضم
قُطاية — ظفيرة الشعر
كحّ — سعل
كاف — ربوة
كْرَم — تين
كَرْموس — تينة
مَلْف — نوع من النسيج له ظهر وبطن أملس
مِشماش — مشمش
هْدَر — تكلّم ، صوت الجمل

هَجَّالة — أرملة

وَلَّى — صار

وِجْه — طلقه نار

ومن الكلمات المتداولة بشرق المغرب والمشتركة فى الاستعمال بين سكان البلاد التونسية وطرابلس وقسنطينة .

بَرّا — اذهب

بصَّر — داعب

بُرْقُدَان — برتقال

ثِنيَّة — طريق

جُرْمان — بط

حَيْرِمْا — دُوبّما — حَذْما = حلما — حالما ، عندما

خْنِب — سرق

راح — ذهب

سانية — بستان

سِفِنارية — جزر

قطوس — قط

لِينْ — حتى

نْغَر — غضب

ومن الاستعمالات الخاصة بالبلاد التونسية :

بَرشة — كثير

بِرْشِق — ولد الماعز

بَرْكُوس — الواحد من الضأن دون الكبش وفوق الخروف

بَعْبُوص — ذيل

بُوش — فارغ

قم — تُبدل فى بعض الجهات الثاء فاء فيقال : فُم = موجود

ماثَمَّاش — غير موجود

جحْفَا — المحمل الذى تركبه المرأة وتستعمل فى بعض المجتمعات بحمل العروس خاصة

حَجَّم — حلق — زيّن — حَسَّن

دُولاش — تجوال

رْتاح — استراح

زاده — مع ذلك

سُطُوش — محفظة

سُورِيَّة — قميص

شَيَّع — رافق

صُوَّة — البرّية

صِيد = أسد

ضَبُّوط = إبط

طَرْبُوشَة = جيب كبيرة بأعلى البرنس

غَشّير = طفل

فَرْخ = صغير، للحيوان وغيره

قْدِيم = قضم

كَدْرون = كساء من صوف يلبس

خاصّة بالساحل التونسى

كَرْهَبة - كراهب = سيارة - سيارات

كَرُومة = قفا العنق

كشْطَة = عمامة

مُرْشانة = حبل المظفّر وتطلق مجازا

على المال القليل

مُنْقالة = ساعة

نُوض = قم

هَنْشِير = مزرعة

وِزْرَة = نسيج من صوف يرتديه

الأعراب

وْفَا = انتهى

أما التفريق بين لغة سكان العاصمة ولغة القرى ولسان أهل البادية فإنه يحتاج إلى نظرة خاصة مزدوجة ترجع من ناحية إلى الكلم ومن أخرى إلى طريقة النطق بها .

فمن الكلمات المستعملة بعاصمة تونس :

آش = ماذا أى شىء. باش بأى شىء، سوف. علاش - لأى شىء. كيفاش - كيف. لم لاش - لأى شىء . لواش - لماذا . مداش - من أجل ماذا

أولادف ن = قبيلة

إيجا + أقبل

بْجَدِك ولاّ تْفَدْلِكْ - أجادٌ أنت أم تهزل ؟

برْشة = كثير

بالِك = ربما

بَرْكة = كفاية

بِسْيِيف = قسرا

بكْرى = أول الوقت وقبل .

بِلِّى = مهما

تَوّا = الآن

حَبْ = أراد

حُوتْ = سمك

خْزَر = نظر بحدّة - حدّق

دْخَل = دخل

راوْمِزّال = لو

زربية = بساط

زعما = هل

ساق = قدم

شْتَا = مطر

شَاشِيَّة = قلنسوة ــ غطاء الرأس

طلَّع = صعد

عْمَل = عمل

قَدْ قَدْ = تماما

كِيف = مثل ، عند

لْبارح ــ أمس

هْبَط = نزل

هُونِي = هنا

يِزِّي = يجزى ــ يكفى

بِاسِر = كثير :وتستعمل عند بدو الجزائر .

وقد يحصل فى النطق بكثير من الكلم فرق مبناه اختلاف المتكلم بها رجلاً كان أم امرأة . فولو كلمة بَيْن بَيْن ،وزَوْج والثْنين ، وزَيْنَب ، وعيْن ، تبدل الحركة السابقة لحرف العلة الساكن فيها حركة تجانس الواو أو الياء التى تصير مدًّا لتلك الحركة ، فيقول الرجل :بين بين ، زُوج ، اثْنِين ، زِينب ،وعِين . وتنطق المرأة التونسية وكذلك أهل مدينة صفاقس بهذه الكلمات على الوجه الفصيح الصحيح .

ولسنا فى هذه المناسبة العارضة والزمن القصير بقادرين على أن نضع قانونا يضبط أحوال النطق والتصريف للكلم فى العامية التونسية ،ولكننا نكتفى فقط فى هذا العرض بالإشارة إلى مجموعة ملاحظات تُعين على تصور الأوجه المستعملة والطرائق المعتمدة فى النطق بمختلف جهات البلاد التونسية .

فسكان المدن والحواضر والقرى يبدلون الجيم زاياً فى مثل : جوز : زوز : ثمرة ، وزوز أيضا بمعنى بعل والثنان ، وفى جاز يقال :زاز بمعنى دخل ،وفى جنس يقال : زنس .

ويحذفون الألف من أداة التعريف أو الجنس، وربما حذفوا الألف واللام كليهما؛ يقولون: عَلْفرس: على الفرس. عشَسطح: على السطح. مِلْباب: من الباب. مِدْدار: من الدار.

ولهم بالنسبة للضمائر المتصلة كتاء الخطاب الساكنة آخر الفعل الماضي حالة واحدة للمذكر والمؤنث؛ تقول: نزلتْ: أنتَ وأنتِ، وتستعمل التاء والواو لجماعة المخاطبين ذكورا وإناثا بصورة واحدة؛ تقول: نزِلْتو: أنتم وأنتنّ:

وكذا الحال بالنسبة لواو الجمع مفردة في مثل: نزلوا، حالة واحدة: هم وهنّ. وتتحد الصيغة أيضا في الأمر للمفرد مذكرا ومؤنثا، يقال: انزل، له ولها. أما مع الضمائر المنفصلة فإن لضمير المخاطب المفرد حالة واحدة للمذكر والمؤنث: إنتو. وهناك حالتان مع ضمير المخاطب المنفصل إذا كان جمعا، ذكرا أو أنثى يقال: أنتم وأنتوما.

أما ضمير الغائب المفرد فهو يختلف بين المذكر والمؤنث، فيقال للأول: هو وللثاني: هي. وفي حالة الإضافة تقلب الها واوا في المذكر، فتقول: متاعو، بدل متاعه، وتبقى على حالها بالنسبة للمؤنث فتقول: متاعها، كما في الفصيح. ولضمير الجمع صيغتان يستوى فيهما أيضا المذكر والمؤنث وهما: هم وهوما.

أما كاف الخطاب فإنها تكون بصيغة واحدة للمذكر والمؤنث؛ حالة الإفراد متاعك، وحالة الجمع متاعكم.

وفي اسم الإشارة تقترن هاء التنبيه بلام ال، أو بألف ذلك، بدون ذكر الذال فيقولون: هالكتاب، في هذا الكتاب. وهاكلوليد. ويختلف هذا الاستعمال بالطبع عما هو شائع بسائر بلاد المغرب من مثل قولهم: هذا الولد – هاذاك الولد – هاذيك البنت – هاذوك الأولاد – ذاك الولد ذوك الأولاد – وذيك البنت.

أما شأنهم مع الفعل فإن لهم تصرفات خاصة به في الماضي والمضارع والأمر.

فهم يهملون صيغة انفعل للمطاوعة ويعوضونها بصيغة فعل مقترنة بتاء لاحقة أوله، تقول في فعلْ: حرق – حاز – بدل

انحرق وانحاز : تحرق وتحرقت ،وتحاز وتحازت .

ويحولون صيغة فعلّ فى مثل ابيضّ واحمرّ وفى مثلها فى يبس إلى افعالّ ابياضّ واحمارّ وايباسّ .

ولصيغ المضىّ فى النواقص حالة واحدة فإذا اقترن الفعل بضمير الغائب المؤنث للواحد وهو التاء،أو بعلامة الجمع وهى الواو، فإنك تقول فى :

نسى	نسات	نساو
مشى	مشات	مشاو
ربّى	ربّات	ربّاو
قاسى	قاسات	قاساو
تعرى	تعرّات	تعرّاو
تلاقى	تلاقات	تلاقاو
استحلى	سْتحلات	سْتحلاو

وتضعف التاء علامة التأنيث الساكنة آخر الفعل الماضى عند اتصالها بكاف الخطاب أو بها الغائب المنقلبة واواً فتقول فى :

ضربت ضربْتِتك = ضربتك .

سلمت سلمِتْتو = سلمته

وفى الفعل المضارع يبدلون حرف المضارعة للمتكلم الواحد وهو الهمزة بحرف المضارع على الجمع ، ويضيفون حالة الجمع واوا آخر الفعل،ويقولون فى اخرج :نخرج،وفى نخرج : نخرجو

وفى مضارع يستفعل الأجوف يقولون فى مثل يستفيد: يستفاد،وفى مضارع يستفعل الناقص يقولون فى مثل يستحلى : يستحلا .

ويحتفظ المضارع الناقص وكذا الأمر بالألف أو الياء فى آخره عند اقترانه بواو الجمع يظهر ذلك فى مثل :

مشى	نِمْشِيو	إمْشِيو
ربّى	يربيو	ربيو
قاسى	نقاسيو	قاسيو
نسى	نتساو؟	نْساو
تعدّى	نتعداو	تعداو
تلاقى	نتلاقاو	تلاقاو
ستحلى	يستحلاو	سْتحلاو

أما فعل الأمر فإن العامية التونسية لا تجرى فيه على قواعد التصريف العربية تقول فى :

ضرب يضرب إضرب
ضرْب يضْربَ أضْرَب
رمَى يرمى إرم
رمى يرمى أرم
شرب يشرب إشرَب
شرب يُشرُب أشْرُب

فإذا نظرنا إلى الأسماء فى الاستعمالات اليومية باللسان التونسى فى العواصم والمدن والقرى وجدنا ماكان منها على زنة فَعْل أو فُعْل أو فِعْل يتغير النطق به إلى فْعَل وفْعُل مالم يكن ناقصًا تقول فى قَبْر : قْبَر وفى طِفل : طْفُل وفى قُفل :قْفِل ، فإذا كان ناقصًا بقى على صورته العربية الفصيحة كما فى مشى وزهو وجدى .

والمصادر فى الدارجة التونسية تأتى على وزن فَعْلان كدَخْلان ،من دخل دخولا ،وحَلّان من حلّ بمعنى فتح ، ووَفْيان من وفى بمعنى انتهى ، وطَوْيان من طوى .

أما الجموع فإن منها ما يكون على أفعلة كما فى أقْلِمْة جمع قلم ،وأمْغِصْة جمع مغص .

أما جموع الأسماء أو الصفات الدّالة على علة أو لون فإنها تكون على زنة فْعُل أوفْعِل مثل بْيُض خمُر كَحُل عْوُر عْمِى طْرُش

وتأتى جموع الاسم الثلاثى المؤنث على زنة فعالى ، كما فى قصعة : قْصاعى – إبرة : أبارى – قفلة :قْفَالى – كسوة : كْساوى – زربية زْرَابى .

ومن الأوصاف ما يكون على زنة فْعُول مثل سْخُون لساخن ، وهْشُوش لهش .

ويجمع حلو الذى مؤنثه حلوة على حْلُوِّين بتشديد الواو .

ونلاحظ بالنسبة لأسماء الفاعلين والمفعولين مما زاد على الثلاثى حالات خاصة بهذا اللسان . فهناك صيغة واحدة لاسم الفاعل والمفعول ،وهى مْفَعَّل تقول مْكمَّل ومْسمّى .

وفى صيغ أسماء الفاعلين والمفعولين والمصادر التى من زنة فعلّ أو تفعّل الناقصين تنسجم فى النطق بالكلمة حركة المقطع الأول مع حركة المقطع الثانى ، تقول فى معرّى :مْعِرّى ،وفى مُتعَدّى مِتْعِدّى وفى تَسْمِية تِسْمِية . فإذا اتصلت حركة الفتحة بحرف لهوىّ أو مفخم فإنها تنقلب ضمة كما فى مْرُبّى وولّى وفى تَنْقِية تُنْقية .

ونفس القاعدة تنطبق على أسماء المفعولين النواقص، تقول فى مبلى :مِبْلِى، وفى مقلى : مُقْلِى وفى مصلى، مُصْلِى .

وإذا اقترن اسم الفاعل المؤنث المفرد بكاف الخطاب أو هاء الغائب المنقلبة واوًا ضعّف تاء التأنيث من آخره تقول : قاتِلَتُه = قاتْلِتُّو ـ مُحاذِيتُك = محاذِيتِّك ومحاذيته = محاذِيتّو ـ مقابلتك = مقابِلتّك ـ مقابلته ـ مقابِلتّو .

ومن الأسماء والأوصاف ما يقترن فى اللسان التونسى بلواحق من أصل تركى تكون فى أول الكلمة مثل باش، أو فى آخرها مثل جى، أوفى الأول والآخر كما فى الأمثلة الموالية :

مُصْرُفْجِى = مبذر .

كَافُورجى = شديد الكفر .

قَرباجى = السائق الذى يحمل القربة ويقال فى المغرب : قرّاب .

بَلاغْجى = صانع البلغة « النعل » ويقال فى المغرب : بلايغى .

بَاش مفتى = رئيس المفتيين أو كبير أهل الشورى .

باش كاتب = رئيس الكتاب .

باش قَمّار = كثير لعب القمار .

باش زُوفرى = كبير المستهترين أخلاقيا .

بَاش طبُجى = رئيس الطبجية المستعملين للمدفع .

وقد تحصل مفارقات فى الاستعمال فى المكان الواحد كعاصمة تونس بين المتكلمين للسان الواحد، من أصحاب العقائد المختلفة كالمسلمين واليهود، ومن أجل الإفصاح عن ذلك نعرض الأمثلة والاستعمالات الآتية :

(م)	(ى)	(ف)
جربوع	زربوع	جرد
جرح	زرح	جرح
زلق	جلق	زلق
سرق	شرق	سرق

(م)	(ى)	(ف)
شرب	سرب	شرب
شرط	سرط	شرط
شطح	سطح	رقص
شنق	سنق	شنق
صْلُح	صْلح	صلح
طُرَز	طْرُز	طرز
عْطَش	عْطُش	عطش
ياسر ـ برشة	ياسر	كثير

	(م)	(ى)	(ف)
ضمير المخاطب الفرد المنفصل	أنت ـ أنتيا ـ أنتينا	أنت	أنتَ ـ أنتِ
ضمير الغائب للجمع المنفصل	هوما	أوهان	هم
ضمير المخاطب للجمع المنفصل	أنتوما	أنتومان	أنتم ـ أنتن
ضمير المتكلم للجمع المنفصل	أحنا	إحنا	نحن
ضمير الغائب المتصل	جابوه	جابوو	جاءوا به
لإشارة للقريب	هذا ـ هذايا	آذا	هذا
الإشارة للبعيد	هذاكما هاذو ـ هذوما	آدو ـ آدومان	أولاء أولائك
للاستفهام عن الشخص	آشكونو ـ آشكونى	آشكون	مَنْ
للاستفهام عن الشيء	آما ـ آنا	آما	أى

	(م)	(ى)	(ف)
العدد	مية	ميًا	مائة
	ميتين	مَيْتين	مائتان
الظرف	ثم — فم	تَم	ثمة
السؤال عن المكان	وِين	وايْن	أين
	وينى — وينهى	واين واينيها	أين هى
كلمة	فى عوض	فى عاوض	عِوض
	عاد	بَقى	بقى
	ماعاتش	مابقاش	لم يبق
علامة التثنية	كتابين — مروحتين	كتابيْن — مروحتين	كتابان — بيْن مروحتان
علامة الجمع	المسلمين	مسلماين	مسلمون — مسلمين
كلمة مختومة بيين	يلين	يلياان	يلين
جمع الكلمة المختومة بيان	عطاشة — عاطشين	عاطشين إلا فى عار وجاف فله الصورتان للجمع	عطاش — عطاشى
جمع صبية	صبايا	صبيات	صبايا
جمع أخ	اخوة ونحوها	خوات	اخوة وغيرها
جمع موتى	موتى	مايتين	أموات — موتى
جمع على أفعلة	ألقمة	غير موجود	أقلام

	(م)	(ى)	(ف)
كلمة	عاى ــ عيان	عيّان	متعب
كلمة	وتالبارح	أول بارح	أول أمس
الفعل الناقص اليائى فى المضارع للمتكلمين	نمشيو	نمشيبو	نمشى
فعل أمر	آمَر	امار	أمر ــ مر
فعل	زوز	زوز ــ زواز	ادخل
فعل	صيّر	صيّر ــ صيّار	صيّر
تعجب	منظفو	مانظفو	ما أنظفه
كلمة	هانى	غير موجودة	ها أنا
	مانى	غير موجودة	ما أنا

فإذا فارق المتتبع لتطورات وأحوال هذا اللسان « الدارجة التونسية » بالعاصمة وضواحيها ،وذهب متوغلا فى القرى البعيدة عنها والمدن المنتشرة بأنحاء الجمهورية لاحظ أن هنالك اختلافًا بينا من جهة إلى جهة ،ومن منطقة إلى أخرى ،فنى كثير من القرى تبدل الفتحة كسْرة فى النطق بأواخر الكلم أسماء كانت الكلم أو أفعالا وذلك كما لى :

ت تونس	ق قرية	ف فصيح
ما	مى	ماء
مشى	مشى	مشى
نسى	نسى	نَسِى

وأكثر ما يسمع ذلك بجهة الوطن القبلى .

وتقلب الياء ألفا لينة فى أواخر الكلم وذلك فى مثل :

ت تونس	ق قرية	ف فصيح
اللى	اللا	الذى
تقليها	تقلاها	تلقينها

وهذا ببلاد الساحل كثير .

أما فى البوادى فأنت فى أحيان كثيرة أمام ألفاظ جديدة وصور تعبيرية مخالفة لما عهدته أو سمعته بالحواضر والمدن والقرى ويظهر ذلك فى مثل هذه الكلمات

بادية	تونس	فصيح
آمس	البارح	أمس
بغى	حبّ	أراد
تعال ـ أرواح	ايجا	تعال أقبل
خش	دخل	دخل
دار ـ دنا	عمل	عمل
رقا	طلع	صعد
شبح	شاف	بصر
ظهر	خرج	خرج
كبوس	شاشية	قلنسوة مايلبسه الرجال فوق الرأس
كراع	ساق	قدم ـ رجل
لَمّد	جمع	جمع
نَوْ	شتا	مطر
هنى	هنا	هنا
هود ـ حاتُر	هبط	نزل
وَلّع	شَعّل	أشعل ـ أوقد

وأشهر ما يتميز به اللسان فى البوادى التونسية ويختلف به عن أهل المدن والقرى النطق بالقاف المعقّدة كما فى :

ڤول ـ قول ـ قل .

ڤلب ـ قلب ـ قلب .

حڤرنى ـ حقرلى ـ احتقرنى .

ويفرق البدو تفريقًا واضحا بين المذكر والمؤنث فهم وإن كسروا الهمزة من إنتَ الضمير المنفصل للمخاطب يفتحون التاء للمذكر ويكسرونها للمؤنث . ويبرزون هذا الفرق واضحا فى الأفعال فيقولون شِبت المستعملة للمذكر والمؤنث بتاء ساكنة فى الاخر عند أهل المدن والقرى شبتْ بتسكين التاء للمذكر وشبتِ ـ

بكسرها للمؤنث وفى مثل الأمر من زاد يقولون للمذكر زِيد وللمؤنث زيدى وفى الأمر من تَحيّر تَحيرْ للمذكر وتحيرى للمؤنث .

ونلاحظ اختلافًا فى استعمال الأفعال يبدو فى مثل :

مدينة	بدو	فصيح
تتجاراو	تتجارُو	تتجارون
تنقات	تنقِت	تنقت
تنساو	تِنسُو	تنسون
تهناو	تهنو	تهنوا
خلاو	خلّو	خلّوا
ستحلات	ستحِلت	استحلت
مشات	مِشت	مشت
مشاو	مشُو	مشوا
نسقيو	نِسقُو	نسق
يجيو	يَجُو	يجيوون-يأتون

ولهم فى الأفعال الماضية وفى أسماء الأفعال المقترنة بهاء الغائب المنقلبة واوًا صورتان فى النطق ، وكذا المقترنة بكاف الخطاب

	—	
جاءت بك	جابتتك	جاباتك
جاءت به	جاباتو	جاباتا
سلمته	سلماتو	سلماتا
قتلته	قتلاتو	قتلاتا
مقابلة لك	مقابلتك	مقابلاتك
مقابلة له		
مقابلته	مقابلاتو	مقابلاتا

ويعود البدو إلى الصيغة الفصيحة فى الأسماء الثلاثية التى على وزن فعْل وفُعْل وفِعْل وكذا فى جموع الأسماء والأوصاف الدالة على الأمراض والألوان :

تِبن – قبر – قُفل – حُلو – حُمر – عُور – عُمى – بِيض ويقولون فى التصغير لـ :

	ت	ب
كبش	كبّيش	كبيش
رأس	رويس	روِيس
مفتاح	مفتيح	مفتِيح
كرموصة	كريمصة	كريميصة

ومن جموعهم ماهوعربى فصيح كمفاتيح وحوانيت ودكاكين مقابل مفاتح وحوانت ودكاكن فى لسان أهل الحضر .

ومن جموعهم أيضًا ما يكون على زنة المؤنث السالم بزيادة الألف والتاء أومايكون بزيادة الألف والنون كما فى قولهم أكباش سَمينات - أيام ياسرات - جمال - وردان .

ولهم صيغ فى الجمع لاتكاد تستعمل فى المدن كصيغة فعل وفعل وفعلّ مثل قولهم سُبق جمع سابق وشُرف جمع شارف وجرّم جمع جارِم وبقِرة جمع بقرة وغِربة جمع غراب وعِقِبة جمع عقاب ويستعملون لجمع الجمع صيغة مختلفة كما فى فرسان يقولون فراسِ وفراسين وفى نسوان نساوين وفى تيران توارين .

وطريقة النطق بالبوادى ليست واحدة هى أيضًا بل هى مختلفة بحسب اختلاف المناطق كالاختلاف فى المدن والقرى الذى أشرنا إليه بحسب الجهات .

وأبرز المناطق للقبائل و « العروش » وهى بطون القبائل فى البلاد التونسية اثنتان :

الأولى : تمتد أواسط البلاد من شمال الشط إلى مجردة وتشمل من القبائل الهمامة والفراشيش وماجر وجلاص وأولاد عيار وأولاد بوغانم ودريد .

والثانية : تمتد فى الجنوب مسايرة للساحل إلى حدود ليبيا من جهة - وتمتد إلى حدود الجزائر متصلة بسوف جنوبًا وتالة شمالا من جهة أخرى وتشمل هذه المنطقة الثانية عددًا كبيرا من القبائل هى ورغمة والمرايف ونفزاوة وعكارة والحمارنة وبنوزيدوقاطنو واحات قابس والهوازية ، و العاربة ونفات والمثاليث والسوامى وأولاد سعيد وهذيل ومثعد وخمير .

فإذا رمزنا إلى أصحاب المنطقة الأولى بـ (أ) ولأصحاب المنطقة الثانية بـ (ب) أمكننا أن نلاحظ الفروق الآتية فى النطق بين أهليهما :

فصيح	(أ)	(ب)
آخِر	آوخر	آخُر
بقرة	بقرة	بُقرة
ربطت	ربطت	رُبطت – رِبطت
عتبة	عتِبة	عِتبة
عربي	عربي	عُربي
فرسه	فرسو	فرسا
قتلوه	قتلوه	قِتلوه
كلبه	كلبو	كلبا
امرأتي	مرتي	مرتي ويرتي
يأخذ	يوخذ	يأخِذ
يأكل	يوكل	يأكِل

ويأتي اسم الفاعل واسم المفعول بصيغة واحدة عند أهل المنطقة الأولى كما في مسمي لمسمي ومسمي ويفرق بين الاسمين عند أهل المنطقة الثانية الذين يقولون في اسم الفاعل من ربّى مربي وفي اسم – المفعول منه مربى .

وتقترن كلمة بعض أمام ضمير الجمع عند (أ) يقولون بعضاهم وضمير الجمع للغائب عند (أ) : هم وهوما وعند (ب) همّ وهنن ويفرق أصحاب المنطقة الثانية بين المذكر والمؤنث تفريقًا واضحا كما في بيتك للمذكر وبيتك وضربك وضربك للمذكر وضربك وضربك للمؤنث وربما أبرز نون النسوة كما يقول المرازيق بيتكن وجيتن في بيتكن وهذا اللسان مع اختلاف اللهجات فيه قد مسه تطور كبير وكان مرة ضعيفًا ممتهنا مردودًا وأخرى مؤيدًا محتفلا به مقصودًا .

كان اللسان الدارج لغة العامة دون الخاصة .. وكان هؤلاء لا يستعملونه الا في الحوار وللضرورة . وإذا كانت الفصحى هي التي سادت في الأول لكونها لغة القرآن والدين والدرس والعلم والأدب والفكر ، وكانت تمثل وحدها بتونس لغة الحضارة والرقي والمعرفة فإن اللغة الدارجة إزاءها كانت بدون شك وفي نفوس المتحدثين بها لا تسمو إلى مكانها ولا تبلغ شأنها. ولاتستطيع أبدامزاحمتها خاصة بالمعاهد العلمية والمساجد مثل جامع الزيتونة ومراكز التعليم الديني الإسلامي ومجالات الوعظ والتوجيه وعند الأئمة ولدى العدول والقضاة والمحامين وكل

الإدارة التونسية . كانت الفصحى، المميز الفارق بين العالم والجاهل والمتقدم والمتأخر . وكان الحديث بها شرفا وكمالا يحاول كل التونسيين أن يناله ويحصل عليه لو انتشرت المدارس وعمت دور المعرفة والعلم أطراف البلاد .

فالدارجة إذن لم تكن تكتب أو تقيد إلاعند القليل وفى القليل من الأحيان والمناسبات . ولم يكن يعنى بها غير طائفة من الغربيين والمستشرقين . فلما احتاج إليها الساسة ،إما لجهل بعضهم بالعربية وعدم ممارستهم السابقة لها ، وإما لتحقيق التوعية الشاملة ومخاطبة كل فئات الشعب باللسان الذى تفهمه واللغة التى تستطيع الحوار والمناقشة بها- وقف رئيس الدولة إلى جانب الدارجة واعتمدها وسيلة خطاب جماهيرى مقدرا فيها أقرب وسائل الإبلاغ . وهكذا أصبحت الاجتماعات الحزبية التى تنعقد لا تعتمد فى الأكثر غير العامية ، وظهرت إلى جانب حصة نشرة الأخبار والتعليق عليها باللسان الدارج ببرامج الإذاعة حصص الأدب الشعبى ، وعنيت وزارة الثقافة بتكوين لجان تجمع تراث الأدباء من أزجال وأمثال ونحوها ، وعقدت المسابقات بين شعراء الملحون ، كما كانت تعقد بين شعراء الفصحى وحدهم . ولكن ذلك مهما نما وزاد لم يكن ليكتب للدارجة قدرة وشرفا أو يحلها من عامة الناس ، وفى قرارة نفوسهم ، المحل الذى يريده لها دعاة العامية الزاعمون أنها لغة البلاد ، وأنه لا حاجة معها إلى الفصحى العربية .

والملاحظ مع ذلك أن تطور الحياة والأوضاع بعد الاستقلال :

أولا : بنشر المعرفة وتكوين المدارس وإقامة المعاهد فى كل مكان بالمدن وبالمراكز والقرى وبالمناطق الريفية النائية .

وثانيا : باستعمال مختلف وسائل الإعلام وانتشار أجهزة الالتقاط لعديد الإذاعات .

وثالثا : بالبرامج الثقافية والخلايا أو الشبكات التى تعمل جاهدة من أجل تقريب الكتاب من القراء والمطالعين فى كل مكان ، والتى يفرض عليها نشاطها أن تتحدث أحيانا كثيرة بالفصحى وبالفصحى

فقط خاصة فى المناسبات الدينية واللقاءات الفكرية والأدبية .

غيرٌ من أحوال الدارجة فتقاربت لهجاتها ، وتبدل الكثير من ألفاظها وتهذبت مادة واستعمالا ، وانصرف العديد من الناس عنها بحكم التعلم إلى استبدال أحد اللسانين العربى الفصيح والفرنسى بها لتغير اهتماماتهم وارتقاء أوضاعهم ومفارقتهم لأوساطهم التى نشأوا فيها ودرجوا بها إلى أوساط أخرى تختلف وتتميز عنها تماما . وهكذا إلى جانب الدارجة المهذبة الجديدة فى الأكثر والمهجورة فى الأقل يجد التونسى نفسه أمام مشكل لغوى أشد حدة من السابق تتنازعه أسبابه وتتمزقه دواعيه . فهو فى صراع آخر فى أكثر أوقاته وخارج المحيط العام الذى يضطره قليلا إلى استعمال الدارجة ، إما منصرف إلى التكلم بلغته القومية : العربية ، لغة دينه وقرآنه وبنى جلدته ، وإما إلى الحديث باللسان الفرنسى الذى يحمل إليه كل مستجد من الحياة وكل ماله عميق الأثر فى نفسه من ألوان الثقافة والفكر والحضارة .

والتحقيق أن الناس وإن بدوا ممزقين وموزعين بين اللغتين الحضاريتين العربية الأصيلة والفرنسية الدخيلة فى تونس منقسمون فئات ثلاث :

أما الأولى فهى التى لا تعرف غير الفرنسية . وهذه بحمد الله صنف قليل من التونسيين لا يكاد يذكر . تخرّج من مدارس الاحتلال الأجنبى التى أقيمت إثر انتصاب الحماية بالبلاد التونسية فراعه وبهره مااللغة القوى الدخيل من رُواء وكمال وعزة . وذهب يعلن أن هذه اللغة وحدها هى العملية وأنها تستجيب دون غيرها لكل مقتضيات الحياة وتطوراتها وما يمسها يوميا من تقدم آلى وتقنى ورقى حضارى . فهو يحتقر العربية ولا يتكلمها لجهله المطبق بها . وإذا تحدث إلى من لا يعرف الفرنسية كان مقتصدا جد مقتصد يستعمل كلمات قليلة عامية على اشمئزاز وضيق ، وإذا خلص من دواعى هذا القول عاد إلى تفاصحه بغير العربية . كنت تجد ذلك عند الكثير من أفراد هذه الفئة وخاصة النساء والفتيات المتعلمات

اللاتى يجرح كرامتهنّ ويشين تقدمهنّ للكلام بغير الفرنسية .

وأما الفئة الثانية فقد درست العربية والعربية وحدها . فوجهت إليها عنايتها وتضلعت بها وقامت عليها ؛ فهى المتمسكة بشرف الفصحى الداعية لها المفارقة لغيرها وقد قصرت هذه الفئة عن مشاركة غيرها فى أسباب التقدم الحضارى والفكرى إلا أن يأتيها ذلك عن طريق المترجمات . وما ينقل إلى العربية عن روائع الأدب الغربى والفلسفات والآراء والأفكار الأوروبية .

وأما الفئة الثالثة فهى أكثر المتعلمين ببلادنا بالأمس القريب . تلقت معارفها وتخرجت من المدارس الفرنكو عربية ومن المعاهد الثانوية والمدارس العليا . كانت تلقن كل المواد بالفرنسية ولا يكون لها من حظوظ دراسة العربية إلا زمن قليل جدا وفى أوقات متميزة لهذا الغرض إلا من كان له منها بمحيطه الخاص أو بيئته من يعينه على إكمال ذلك النقص وتعليمه العربية . وهذا العنصر الذى تتكون منه الفئة الثالثة فى مجموعها وإن ادّعى معرفة اللغتين العربية والفرنسية بعيد جدا عن إتقان إحداهما ، فاقد للقدرة على استعمالهما استعمالا سليما وفصيحا . فهو كلما خانه التعبير باللغة التى يتحدث بها ركن إلى الثانية مستنجدا ومستعينا للوفاء بما يروم الإعراب عنه . ولغلبة اللسان الفرنسى على هذا الصنف كان أكثره لا يرى عن الفرنسية حولا ولا يرضى بها بدلا .

ومن هذين الصنفين الثانى والثالث تكون غالب المثقفين التونسيين فصدرت عنهم كتب ودراسات ومقالات وأشعار باللسانين العربى والفرنسى .

وكانت العربية التى يكتبون بها والتى نقرأها فى الصحف والمجلات وما نشر قبل الاستقلال تنطق بعدة ظواهر .

منها استعمالات فصيحة مهجورة فى غير تونس كتأنيث السلم وورود أين بمعنى حيث

ومنها ألفاظ اصطلاحية خاصة ، كالتعبير للتعليب . والتسويغ للكرا ، والفصول للمواد ، والقار للدائم .

ومنها إستعمالات معدول بها عن الأصل الثابت الفصيح كحَجَّر بدل حَجَر ، وأطرد بدل طرد ، واقتبل بدل استقبل وأبهر محل بهر ، وصلوحية مكان صلاح ورصيفة موضع زميلة ، وشاح بدل جفّ ، والوسق عوض تصدير ، وتوريد بدل استيراد .

ومنها ما يشهد للتأثر بالفرنسية وهذا كالذى شاع فى الغالب عن أقلام المترجمين من مثل استعمال وقع فى نحو قولك : المسألة التى وقع بحثها ، والجريدة الناطقة ، ولفائدة السلم مكان من أجل السلم ، والنسبة لكونغو وطوجو والكترون بنحو كنجولى وطوجولى والكترونية .

ونحن إلى جانب هذه الملاحظات المتعلقة بالعربية المكتوبة اليوم بتونس والتى هى كما هو الحال فى كثير من البلاد العربية ، تسمووتنضج وتقوى وتضعف فتمثل الصراع الذى أشرنا إليه بين اللغتين وبين الفئات المنتسبة أو المنتصرة لها حالات عامة شعبية ومواقف خاصة صدر عنها مسئولون .

أما الحالات العامة فتظهر فى الشعور القومى قبل الاستقلال بوجوب الأخذ بالفرنسية والاعتماد عليها كلية لبناء المستقبل ، ثم فى التحول عن هذا الشعور تدريجيا إلى وجوب إتقان العربية لغة الإسلام والعرب جميعا ، ولزوم استعمالها أكثر فى الحياة اليومية والإدارية والعلمية والفكرية من أجل بلوغ مراكز القيادة والريادة فى الغد الأفضل .

وأما مع المسئولين فقد لاحظنا لدى الفئة الثانية القائمة على شرف الفصحى وخدمتها تحويلا فى برامج التعليم بجامع الزيتونة وبمعهد الخلدونية بتونس ، وباللخمية بصفاقس . وذلك بإدخال العلوم المختلفة الرياضية والطبيعية ونحوها فى مناهج الدراسة وتلقينها للتلامذة والطلاب باللسان العربى الفصيح ، مقيمين بذلك الدليل العملى على أن اللغة العربية ليست كما يزعم خصومها صعبة معقدة لا تواكب التطور ، وتعجز عن الوفاء باحتياجات العصر . وهكذا أمكنت الكثير من الطلبة بعد حصولهم على شهادة التحصيل العصرى أو شهادة البكالوريا العربية من الالتحاق بالكليات العلمية بالجامعات العربية فى المشرق :

ولا حظنا إثر ذلك حركة ردّ فعلٍ لدى ثانى وزير للتربية القوميق بتونس فى عهد الاستقلال، فقد كان مع حبه العربية وتعلقه بها واعتداد بمقدرته فيها يسره ألا يتكلم بين خاصته ومن حوله إلا بالفرنسية . ويرى بحكم إجادته للغتين ، وهو أمرٌ كما ذكرنا قليل جد قليل ، أن الحاجة ماسة إلى ازدواجية اللغة وازدواجية التعليم ، وقد نادى بذلك وخطط له فى سياسة تونس التعليمية وصرح به لبعض الصحف قائلا :

«إن الازدواجية فى اللغة تبدو من الناحية النفسية البيداجوجية نوعا متميزا من التكوين ، هو بدون شك أصعب . ولكنه أثرى؛ إذ الازدواجية فى اللغة تعنى مضاعفة فى الثقافة وفى نوعية التفكير وفى الشعور والتخيل وفى أبعاد الفكر . كما هى مضاعفة للشخص ذاته ،

وأمام هذه المكاسب نقدم على اختيار الازدواجية مواجهين كل الصعوبات ومتغلبين بسهولة عليها . ويتأكد أن نضيف إلى ذلك أن الازدواجية فى اللغة مثل للتكوين الصحيح ؛ متى انتهت بصاحبها الآخذ بها إلى حصيلة غنية من ثراء اللغتين والثقافتين ، فهى لا تشكل أبدا خطر محو الشخصية القومية ، بل التى على العكس تعطى تلك الشخصية كل أسباب التحدي والتفتح والتطور فى ظل العالم الحديث

ومضت سنين على هذه التجربة التى انتهت إلى نتائج سلبية غير سارة ولا مقبولة . ونادى كثير من رجال التعليم بالتعريب وتشكلت لجان من أجل توحيد المصطلحات بين أبناء المدارس فى كامل بلاد المغرب . وانتصرت أخيرا هذه السياسة ، وبدأ التعريب فعلا فى المدارس والمعاهد والكليات . وإنا لنرجو للفصحى فوق ذلك مظهرا .

محمد الحبيب ابن الخوجة
عضو المجمع

مصادر ومراجع البحث

المالكى : رياض النفوس

ابن خلدون : المقدمة

إبراهيم السامرائى : العربية التونسية . مجمع اللغة العربية بدمشق ، جانفى ١٩٦٤

عبد العزيز بن عبد الله : معجم السيارة ،

اللسان العربى ، مجلد ١١ جزء ٢ عام ١٩٧٤

محمد صلاح الدين الكواكبى : الكلمات الدخيلة على العربية الأصيلة . مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق جويلية ١٩٧٣ – جان ١٩٧٦ .

محمود تيمور : معجم ألفاظ الحضارة .

Baocouche (T). Un specimen de contact linguistique : la langue des mécaniciens R.T.S.S. 8. 1966 .

Cahiers du C.E.R.S.S. serie linguistiques 2. 1969

Travaux de phonologie divers de Djemmal, Gabès, Mahdia.

Cantineau (J) : Analyse phonologique du parler Arabe d,El Hamma de Gabès. Bulletin de la Société linguistique de Paris T. 47, 1951.

Cohen (D). 1.- Etudes de linguistique Sémitique et Arabe.

2.- Le Parler Arabe des Juifs de Tunis Etude Linguistique T.2.

Dozy (R) Supplémentaux Dictionnaires Arabes.

Garmadi (S). 1.- Les problèmes du plurilinguisme en Tunisie - (Renaissance du Monde Arabe).

2.- Quelques faits de contact linguistique Franco-Arabe en Tunisie R.T. S.S. 8 - 1966.

Marçais (W). 1.- La langue Arabe I la Diglossie Arabe

2.- La langue arabe dans l'Afrique du Nord

3.- Comment l'Afrique du Nord a été arabisé

4.- La langue Arabe.

(Articles et Conférences Paris 1901).

5. Les Parlers Arabes et Berbères.

in. Initiation à la Tunisie.

6. Quelques observations sur le Dictionnaire.

Pratique arabe - française de Beaussier.

Marçais (W) et Farès (J) Trois textes Arabes d'El Hamma deGabès.

Saada (L) Le Langage des fommes tunisiennes in mélanges Marcel Cohen .

العربية أمس واليوم

للأستاذ عبد الله كنون

من الكلمات الحكيمة التي كثيراً ما تجرى على لسان علمائنا قولهم: «من كثر علمه قل اعتراضه» وتنطبق هذه الكلمة على كل من يحشر نفسه فيما لا إلمام له به من مسائل العلم واللغة والأدب، فيسيء إلى نفسه وإلى الناس بما يظهر من جهله وخطله، وما يثيره من بلبلة في الرأي وخطأ في الحكم. ومن هذا القبيل الحملة التي يشنها بعضهم على اللغة العربية باتهامها بالقصور عن مجاراة التطور العصري الحاصل في العلوم والفنون، حتى أصبحت في عداد اللغات الميتة كاللاتينية واليونانية القديمة. والمعتدل من هؤلاء من يقول: إنها لغة أدبية لا تصلح للعلم، فعلى العرب أن يصطنعوا إحدى هذه اللغات الأجنبية التي برزت في مجال التقنية والحضارة الحديثة؛ كي يسايروا ركب الأمم المتقدمة وإلا بقيت بـــلادهم بمـــعزل عن التطور والرقي المنشود. وأثرت هذه الدعاية في كثير من قادة الفكر ورجال العلم عندنا، فادعوا أن تلقين العلوم بالعربية غير ممكن، وأصروا على بقاء الجامعات في العالم العربي ـ وخاصة الكليات العلمية منها ـ جامعات أجنبية اللغة إلا ما ندر منها.

والذين لم يتجرؤوا على اتهام اللغة العربية ذاتها بالقصور سلكوا طريقاً آخر للهدم والتشكيك في قدرتها على أداء رسالة التنوير والتثقيف للشعب العربي الأمي التي هي رسالة كل لغة حية، فقالوا: إن حرفها بعيد كل البعد عن الاستجابة لهذه الرسالة، فهو غير مشكول وبسبب ذلك يقع القارئ العربي في كثير من اللبس ولا يفهم المعنى المراد بسهولة. وأن عليه أن يفهم قبل أن يقرأ قراءة صحيحة، فصار الحرف غاية بعد أن كان وسيلة، ومن ثم فما على العرب إلا أن يستبدلوا بحرفهم هذا الحرف اللاتيني المضبوط الذي لا يجد القارئ صعوبة في قراءته؛ لأن الحركات التي تشكله هي من صميم كتابته وتخطيطه.

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة الخميس ١٤ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨ هـ = ٢٣ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨ م)

ولعل هؤلاء — ولاأتهم أحدا — إنما يقومون بدور الطليعة للآخرين فى هذه المعركة الحاسمة التى يريدون أن يقضوا بها على اللغة العربية القضاء المبرم .

ومن غير أن أقول جديدا فإن دعوى قصور اللغة العربية عن مواكبة التقدم العلمى والحضارى فى العصر الحديث ، جدير بها أن لاتسمع لمخالفتها للواقع ولأن ماضى هذه اللغة يكذبها ... فالواقع أنه منذ انبثاق عهد النهضة بوطننا العربى فى مطلع هذا القرن ، والعربية تؤدى وظيفتها على أكمل وجه فى الميدان العلمى والأدبى على السواء ، فقد نقلت إليها روائع الفكر والفن من الأدب الأوروبى على اختلاف لغاته من فرنسية وألمانية وإنجليزية وروسية وإسبانية وإيطالية ، وغيرها ، ولم تضق ذرعا بشىء منها . واطلع القارئ العربى من خلال الترجمة على الأعمال الأدبية لنبغاء الكتاب والشعراء الغربيين وكذا على الكتب الرائدة فى الفلسفة والاجتماع والتاريخ لأعلام الفكر المعاصر ومن قبلهم من عصر النهضة الأوربية إلى الآن .

ولم يكن حظ العلم والمعرفة الصحيحة بأقل من حظ الفلسفة والأدب . فبعض جامعاتنا تدرس العلوم باللغة العربية . والمتمكنون من علمائنا وضعوا مئات الكتب ،إن لم أقل آلافها،فى فروع العلم المتنوعة باللغة العربية ، وهذا إلى عشرات المعاجم المختصة بالطب وفنونه والطبيعة وأسرارها، بحيث يصح القول إن لغتنا الضادية تسير مع نهضتنا جنبا لجنب . وأننا لانتقدم خطوة فى سبيل التطور الفكرى والعلمى إلا وتكون اللغة أمامنا آخذة بزمامنا لاتفتقدها فى مرحلة ولامجال .

ولغة هذا شأنها لاتكون ميتة ، والعربية لن تموت أبدا حتى يموت العرب كلهم لاقدر الله ،ولذلك فإن تشبيهها باللاتينية أو اليونانية هو من باب المغالطة . ذلك أن هاتين اللغتين غير ميتتين ، والدليل على ذلك أن اللغات الأوربيةالكبيرة مازال تستمد منهما،وترجع إليهما تلتمس عندهما أسباب النمو والحياة ، فإن أريد بموتهما أنهما أصبحتا غير مستعملتين فى التخاطب والكتابة ، فإن ذلك صحيح . والسبب بسيط وهو تخلى أهلهما عنهما ، فكيف يقال إن العربية لغة ميتة وأهلها لايبغون بها بديلا ، وهم يبذلون فى سبيل نموها وازدهارها النفس والنفيس ، وقد حققوا من ذلك أغراضا بعيدة ومايزالون يعملون على إحلالها المحل اللائق بهم بصفتهم أصحاب رسالة وبناة حضارة وخير أمة أخرجت للناس .

نعم إن مايهدف إليه أولئك الخصوم هو جعلها فعلا مثل اللاتينية واليونانية بحمل أهلها على نبذها واصطناع لغة

أجنبية عنهم كالإنجليزية فى المشرق والفرنسية فى المغرب ، بأمل التطور والتقدم وذلك إن أرادوا أن يسلكوا الطريق القاصد والسبيل اللاحب .

على أن دعوة أخرى مدسوسة كثيرا مايروجها الخصم بينهم ، وهى ترمى إلى الغاية نفسها . ومن المؤسف أن يتبناها بعض أبناء العرب، ويتساقوا فى حبلها جاهلين أو عارفين بما تؤدى إليه من تقسيم الأمة العربية ، وفصم هذه العروة الوثيقة التى تجمع بينهم ، وأعنى بها الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى وذلك هو ماحصل للغة اللاتينية بالضبط حين تحولت لهجات الشعوب المتكلمة بها إلى لغات فماتت هذه اللغة موتا معنويا ، وحلت تلك اللهجات محلها فصارت الأمة الواحدة أمما متعددة ، وما يفرق بينها أكثر مما يجمع ، وأخصه اللغة .

ويشهد ماضى العربية الزاخر بالفتوحات العلمية والفلسفية والأدبية أنها لغة حية متطورة باستطاعتها أن تحتوى جميع أنماط الفكر الإنسانى ، وتستوعب كل قضايا المعرفة الكونية من علوم رياضية وطبيعية تجريبية وتطبيقية ، وقد تفتحت على ثقافات الأمم والشعوب التى سبقتها ، وحضاراتها ، فأخذت منها كل صالح نافع وأضافت إليها ما ابتكرته وأبرّت به على تراث العالم القديم فما قصرت ولا عجزت عن مطلب أو مرام .

بل كانت اللغة الأولى فى العالم ، وكانت الأمم والشعوب المعاصرة لها تقتبس منها وتستنير بها ، وتعتبر أدبها هو الأدب وتفكيرها هو التفكير ، حتى ارتفعت الشكوى فى بعض بلاد الغرب من إقبال شبابها على اللغة العربية وهجر لغتهم القومية هذا على حين أن الانتقال إذ ذاك كان من عربية مقصورة على بعض أغراض الحياة التى تقتضيها ظروف العزلة المفروضة على جزيرة العرب قبل الإسلام : فكيف الآن والعربية تجر وراءها هذا التاريخ الحافل بالمد العلمى والأدبى ، وأبناؤها يعملون ويكدون ليل نهار فى خدمتها ودفع الضيم عنها ؟

وإذا تبين أن دعوى قصور اللغة العربية فى المجال العلمى لا نصيب لها من الصحة ، فإن دعوى أنها لغة أدبية غير علمية كذلك لاتصح ، ضرورة أن اللغة إذا كانت ناجحة أدبيا فلابد أن تنجح علميا . لأن المادة العضوية للغة هى الأدب فهو الذى ينميها ويمدها بنسمة الحياة . وليست هناك لغة علمية لا أدب لها . ويكفى العربية دليلا على رسوخها فى مجال العلم أن مفرداتها ومصطلحاتها العلمية تشيع فى لغات أكثر الأمم تفوقا فى حلبة العلم والتكنولوجيا وهى مما اقتبسته منها فى عصر النهضة الأوربية ولم تجد عنها غناء حتى الآن . بل إن بعض العلوم إنما يعرف باسمه العربى فى جميع اللغات وهو علم الجبر ، ومن الغريب أن يدعى

هؤلاء على اللغة العربية ما ادعوا، وعندنا من يقول: إن من المشكلات التي تواجهها العربية تعدد المصطلحات العلمية التي نشأت من اختلاف المجامع اللغوية وأساتذة الجامعات فيما يضعونه من أسماء متعددة للمصطلح العلمي الواحد، وهذا على ما فيه أعظم حجة لخصب اللغة العربية وعطائها الجزيل، وقلت: «على ما فيه» لأني أرى في هذا القول مبالغة كبيرة ، فالتعدد المزعوم لا يزيد على ٥ إلى ١٠ ٪ من المصطلحات الموضوعة وهو علامة صحة أكثر منه علامة ضعف؛ فإن بعض المصطلحات التي يقع فيها خلاف تحتاج إلى فترة من الزمن تخضع فيها للتجربة والاختبار . وعندها يفرض المصطلح المختار نفسه. وعلى أي حال فواقع اللغة العربية ليس كما يتقول الخصوم ، بل هو في ازدهار مستمر بفضل الجهود المبذولة من أبنائها المتفانين في خدمتها ، حتى إن بعض المصطلحات العلمية الجديدة تتعدد وتتكرر لاختلاف نظر واضعها . وهو أمر شبيه بما وقع لأوائلنا في عهد الترجمة الأسبق . فإن منهم من كان يجنح للتعريب ولو في الكلمات الواضحة الدلالة بالعربية، فيقولون: (أرتماطيقي) في الحساب (وفيزيقي) في الطبيعة، وما أشبه ذلك، ولكن البقاء دائما إنما هو للأصلح .

ونخلص للكلام على الحرف العربي الذي اتهم بما اتهم به ، فإنه بحسب نظر الفنانين الأجانب من الرسامين والمتخصصين في أعمال الزخرفة يعد من أجمل الخطوط أو أجملها على الإطلاق ، حتى إنهم من فرط الإعجاب بأوضاعه وأشكاله المنسجمة مع المعمار العربي الرائع يحلونه محل التصوير الذي لم يعن به العرب لتحريم الإسلام له . ويجعلون إبداعهم في النقش والكتابة مقابل ما فاتهم من الإبداع في التصوير والتمثيل.

هذا من حيث الشكل ، وأما من حيث الفائدة فلا ننسى إشادة المستشرق الفرنسي «لويس ماسينيون» بالحرف العربي وتوصيته للعرب بتمسكهم بحرفهم الذي لا يعدله حرف آخر ؛ وهي الحقيقة التي لا مرية فيها، فإن كثيرا من الحروف العربية لا يوجد لها نظير في الحرف اللاتيني الذي يراد استبداله بالحرف العربي، ومنها الحاء والضاد والظاء والعين والغين والقاف . ومهما عدل هذا الحرف أو ذاك ليصبح دالا على المراد منه فإنه يبقى بعيدا عن النطق الحقيقي لمنويه العربي . ناهيك بأن عدد الحروف اللاتينية أقل من الحروف العربية .

وأما أن القارئ العربي يلزمه أن يفهم الكلام قبل أن يقرأه قراءة صحيحة : فإن هذه سفسطة مردودة على أصحابها : وأي كلام لا يحتاج إلى الفهم ليقرأ قراءة صحيحة، فالإنسان في حالة الشرود الذهني يمر بسطور عديدة، بل بصفحات من غير أن يعرف كيف قرأها لأنه لم يفهمها، وليس كل كلام يفهم بمجرد قراءته ولو كانت القراءة صحيحة.

فالواقع أن الحملة على العربية سخيفة بقدر ما هي دنيئة، ولذلك فإنها وإن أحدثت بعض

البليلة فى بعض الأفكار لم تنل من العربية الشامخة إلا كما يناله قرن الوعل من الصخرة الصماء .

ولست فى حاجة إلى بيان مافى الحرف اللاتينى من نقص واشتباه كثيرا ما يفضى إلى الارتباك والخطأ فى كتابته وقراءته ، فالكاف مثلا فى الفرنسية له ثلاثة أحرف أحدها مركب من حرفين ، والسين كذلك له حرفان أحدهما هو إحدى صور الكاف ثم تارة هو سين وتارة زاى وتارة مضعف ، ولكن يقرأ سينا مع عدم التضعيف . وقل مثل ذلك فى حرف الهاء الذى يركب مع الباء فيصير فاء ، وبذلك يصبح للفاء حرفان ، ويركب مع الحرف الذى يستعمل كافا وسينا فيصير شينا . ولا صورة للشين إلا هذان الحرفان . ثم تارة هو يكون زائدا لا نطق له وتارة رافدا للحركة وهلم جرا . والياء وإن كان لها حرف مخصوص إلا أنه يستعمل حركة أيضا ، ويعبر عنها تارة بحرف الجر مع لامين وتارة بحرف الجيم والنون وهو من أغرب ما يرى .. ولا أستمر فى ذكر هذه العجائب لأنكم تعرفونها ، ولكن المتهجمين على الكتابة العربية يتجاهلونها . ويكونون كالجمل الذى لا ينظر حدبته ويتعجب من حدبة أخيه !

أضف إلى هذا أن الكتابة اللاتينية عبارة عن ثلاثة خطوط لابد للقارىء من أن يتقنها جميعا ، وهى أولا خط اليد ، وثانيا حروف المطبعة ، وثالثا حرف التاج فى خط اليد وفى المطبعة . وبين هذه الخطوط فروق كثيرة لا تعرف إلا بالممارسة وطول المعاناة .

وإذن فان ما يؤخذ على الحرف العربى إنما هو قل من كثر مما يؤخذ على الحرف اللاتينى الذى يراد استبداله به سواء فى صورته أم فى إفادته وما دام المدار على التمرين وكثرة التعهد والتلقين ، فإن ما ينقصنا نحن العرب هو الرجوع إلى الخط الذى سار عليه أسلافنا فى تعليم اللغة لأبنائهم ولأبناء الشعوب التى دالت لهم من غير العرب . إنهم لم يكونوا يعلمونهم النحو ابتداء كما نفعل اليوم . فالنحو هو ضابط اللغة ، وإذا لم تكن عند المرء حصيلة من اللغة فأى شىء يضبط ؟

كان القرآن أول ما يحفظه الناشىء كلا أو بعضا ، وكانت النصوص الأدبية الأخرى مثل المعلقات وخطب بلغاء العرب وأشعار الفحول من شعراء العصر الأموى والعباسى هى الزاد الذى يدخره الناشىء للإنفاق منه طول حياته فى مجال التعبير ، وإنما الكلام من الكلام ، ويأتى النحو بعد ذلك مع بقية العلوم وهذه الطريقة هى المتبعة فى تلقين اللغات عند غيرنا ، ولا سيما منها ما كان اعتماده على النطق أكثر من اعتماده على القواعد . ومع أن الشكل قد يعصم من اللحن ، ولكن اللسان إنما يجرى على ما سبق له النطق به . ولذلك يبقى الشكل فى بعض المراحل من التعليم وفى بعض المفردات والجمل فقط . مما يستعان به ، وليس هو العمدة ، فلنكثر من القراءة ولنكتف من النحو بما تقضى به الضرورة ، علما بأن القواعد تُنسى ، ولكن استقامة اللسان على النطق لا تعتريها آفة .

ولنا في الذين أخذوا بهذه الطريقة خير مثال، ونذكر منهم الأستاذين مكرم عبيد في مصر وفارس الخوري في سوريا، وهما غير مسلمين، ولكنهما كادا يكونان من حفاظ القرآن لكثرة قراءتهما له وتعهدهما لتلاوته فأصبحا بذلك من أبلغ الخطباء العرب وأفصح الناطقين بالضاد ، وغيرهما من المشايخ والأساتذة كثير .

وتحضرني هنا كلمة للإمام مالك قالها في غير ما نحن فيه ولكنها واردة علينا أيضا وهي قوله : «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» أي بالمحافظة على أصالتها، فكل إصلاح لا يتوخى معنى الأصالة والانطلاق مما انطلق من بناة كياننا الأولون، يجب أن نحذر منه ونعلم مسبقا أنه إنما يهدف إلى إضعاف مقوماتنا، ومحو شخصيتنا، ليسهل عليه استتباعنا فيما بعد .

وإني أعتبر العمل الذي نقوم به في هذا المجمع والمجامع الموازية له هو السبيل الوحيد لكمّ الأفواه المتقولة وإبطال الدعاوى المتجنية : وكلما سرنا في هذا الطريق قرّبنا المسافة المبلغة إلى الغاية المطلوبة . فعلينا أن لا نتلفت إلى المشاغبين والمعوقين ولو بالرد عليهم ، فإن أعظم رد هو هذه القوائم التي تقدمها مختلف لجان المجمع كل عام بمئات المصطلحات وعشرات المقررات .

وإني لذلك لا أستحسن شغل الأساتذة الأعضاء بتناول الإشكالات والإيرادات التي يوجهها الخصوم إلى اللغة العربية ، وجعلها الموضوع الأول للبحوث التي يقدمونها للمجمع . فكم من بحث لغوى اصيل يفوتنا بانشغالهم بهذه الموضوعات الممجوجة المملولة التي إنما يريد أصحابها بطرقها في كل مناسبة أن تتكرر من أجل أن تتقرر ومن عادات السادات معاداة المعادات .

عبد الله كنون
عضو المجمع



فجر الجغرافية العربية

للدكتور محمد محمود الصياد

تكونت لدى العرب الحاسة الجغرافية قبل أن تكون لهم جغرافية . فقد كانوا في وطنهم الأول أهل بادية ، ينتجعونها بأرؤسهم وأموالهم ، وما كان لتجعتهم أن تبلغ غايتها إلا إذا عرفوا دروب الصحراء ، ومعالم الأرض ، ومهاب الرياح ، ومساقط الغيث . وما اهتم قوم بالتمييز بين معالم سطح الأرض اهتمام العرب بمعالم بيئتهم ، فامتلأت لغتهم بألفاظ معبرة عن الفروق الدقيقة بين صور هذه المعالم . فالأرض مثلا :

إذا اتسعت ولم يتخللها شجر فهي البراح ،

فإذا كانت مع الاتساع مستوية فهي الخبت ،

فإذا كانت مع الاتساع والاستواء بعيدة الأكناف فهي السهب والسبسب ،

فإذا كانت مع الاتساع والاستواء والبعد لا ماء فيها فهي الفلاة والتنوفة ،

فإذا كانت مع هذه الصفات لا يهتدى فيها للطريق فهي اليهماء ،

فإذا كانت تبيد سالكها فهي البيداء ، وكنوا عنها بالمفازة تيمنا ،

فإذا لم يكن بها شيء من النبت فهي المرت والبلقع ،

فإذا كانت غليظة صلبة فهي الحيزوم والجلد ،

فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل فهي البرقة والأبرق ،

فإذا كانت مطمئنة فهي الجوف ،

فإذا ارتفعت فهي النجد ،

فإذا جمعت الارتفاع والصلابة والغلظ فهي المتن والقدفد ؛

وهكذا من مئات مظاهر سطح الأرض ، لاتترك العربية واحداً منها إلا وضعت له مصطلحا برأسه . وهو أمر لا نعرفه في أي لغة أخرى .

(*) ألقى المحاضر هذا البحث في محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة السبت ١٦ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨هـ = ٢٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨م)

وكان العرب القدامى من أكثر الناس معرفة بالرياح والمطر ، وغيرهما من ظاهرات الجو فوضعوا لها الأسماء الصادقة الدلالة .

فللرياح تفصيلها ،

وللسحاب درجاته ،

وللمطر أوصافه ،

وللبرق ترتيبه ،

وجمعوا هذا كله تحت ماسموه بالأنواء ، وهو ما نعبر عنه اليوم بالمناخ . حقيقة أنهم أخطأوا فى تفسير هذه الظاهرات فنسبوها إلى طلوع كوكب أو اقترانه بآخر ، حتى قال قائلهم :

إذا ما البدر تم مع الثريا

أتاك البرد ، أوله الشتاء .

ولا ضير عليهم فى ذلك ، فما كانت الأسباب لتعنيهم بقدر ما تعنيهم النتائج الملموسة التى يديرون عليها شئون حياتهم ، وهكذا عرف العرب عن بيئتهم كثيرا من الحقائق الجغرافية بفطرتهم دون أن تكون لهم جغرافية ، وأصبح فى كلامهم مادة جغرافية غزيرة خليقة بأن يهتم بها الدارسون .

وهكذا ظهرت البادرات الأولى للجغرافية العربية ، مروية على ألسن الناس ، وإن لم تسجل فى كتاب حتى انتهت الجاهلية وظهر الإسلام فى القرن السابع الميلادى ، وكان ظهوره مما يحفز على الاهتمام بالجغرافية . فهو دين يدعو إلى التفكر فى خلق السموات والأرض ، ويرى فى هذا ضربا من العبادة وبعض العبارات الشرعية تتطلب إلماما بطرف من الفلك والجغرافية . والحج إلى البيت الحرام فريضة على من استطاع إليه سبيلا ،

وقد أصبح الحجاج من أطراف البلاد يتجمعون فى مواسم معلومة فى مدن بعينها . ويسيرون فى قوافل قاصدين مكة المكرمة وهى رحلة تحتاج إلى معرفة بالطرق ، ومنازل القبائل ، وموارد الماء .

ولم يمض قرنان من الزمان حتى كان الإسلام قد شرق حتى بلغ حدود الصين ، وغرب حتى انتهى إلى سواحل بحر الظلمات ، وعندما انتهى عصر الفتوح واستقرت الدولة الإسلامية ، أخذ المسلمون ينصرفون إلى العلم ، وكان لخلفاء بنى العباس مساهمة مشكورة فى تشجيع البحوث العلمية . وعن طريق الترجمة التى نشطت فى عهدهم وقف العرب على كنوز التراث الهندى والفارسى واليونانى ، وكان من هذا الأخير كتابان لكلاديوس بطلميوس السكندرى Claudius Ptolemaius الذى عرفوه باسم بطليموس القلوذى . وهما كتاب «جغرافيا» وكتاب «المجسطى» Majestet أى الكتاب الأعظم ، وكان تيار الفكر الجغرافى القديم قد توقف عند هذين الكتابين اللذين وضعا فى أواسط القرن الثانى الميلادى . ويتناول الأول الأماكن المعروفة وتحقيق مواضعها بحسب ما بلغه علم ذلك الزمان ،

أما الآخر فرسالة فى الفلك تقع فى ثلاثة عشر فصلا . وقد أعجب العرب بالكتابين ، فكان أول ما كتبوه فى الجغرافية يعتمد عليهما .

ولهذا كانت الجغرافية الفلكية والرياضية هى أولى الفروع التى استأثرت باهتمام الجغرافيين العرب . فنقلوا عن المدارس القديمة وأضافوا الكثير من عندهم . فأخذوا عن المدرسة الهندية فكرة « الأرين » . وعن الفرس « الأزياج » التى منها « الزيج البهلوى » أو«زيج شهريار » وعليه اعتمد محمد بن موسى الخوارزمى ، وأبو معشر جعفر بن عمر البلخى فى وضع جداولها الفلكية . وعن اليونان أخذوا التقسيم السباعى للربع المعمور من الأرض . ومنذ بداية القرن التاسع الميلادى أخذ المذهب اليونانى فى الانتشار حتى أصبحت له الغلبة قبل أن ينتصف القرن.

وأصبح هو المؤثر الحقيقى فى الجغرافية الرياضية العربية . وحتى ذلك العهد لم يكن لفظ جغرافية قد دخل فى معجم اللغة العربية دلالة على علم بذاته ، بل كان يطلق علماً على كتاب بطلميوس . وكان المسعودى فى كتابه «التنبيه والإشراف » أول من أدخله فى اللغة كمصطلح فقال « الجغرافيا هى قطع الأرض » وكان المسعودى موفقا فى تعريف المصطلح، فى القاموس قطع الشئ قطعا ، فصله وأبانه . وكان « إخوان الصفاء » فى حدود ما نعرف هم الذين أطلقوا لفظ جغرافيا على علم برأسه . فقد وردت عبارة « علم الجغرافية » لأول مرة فى رسائلهم المعروفة ، وفسروها بأنها «صورة الأرض» . ثم أخذ اللفظ يشيع من بعدهم دالا على علم.

ولم يلبث العرب أن انصرفوا عن الجغرافية الرياضية والفلكية بالتدريج إلى فروع أخرى من الجغرافية ، كتبوا فيها فصولا ممتعة أثرت الفكر الجغرافى بعامة ، بما اشتملت عليه من إضافات مبتكرة .

وشهد النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) مولد مدرسة جغرافية عربية أصيلة بدأت بالجغرافية الوصفية، ولكنها فى وصفها للأقاليم لم تغفل الجوانب الجغرافية الأخرى . فكتب ابن خرداذبة (٢٠٥ — ٣٠٠هـ — ٨٢٠—٩١٢م) كتاب « المسالك والممالك » الذى يعتبر أول مصنف كامل يصلنا فى الجغرافية الوصفية . وكتب اليعقوبى « كتاب البلدان » الذى جمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلاد الإسلامية فى عصره نتيجة لأسفاره الطويلة . وكتب « ابن رسته » كتاب « الأعلاق النفيسة » . وكتب معاصره «ابن الفقيه» كتاب « البلدان » الذى يقال إنه كان يتألف من خمسة أجزاء فى أكثر من ألفى صفحة . وقد فقد الكتاب فلم يصلنا سوى مختصره الذى صنفه على بن حسن الشيرازى فى عام ٤١٣هـ—١٠٢٢م .

ولم يكد يهل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حتى كانت المدرسة الجغرافية العربية قد رست قواعدها . وظهر عدد من أعلام الجغرافيين ، منهم أبو زيد البلخى صاحب كتاب « صور الأقاليم » وهو أقدم كتاب جغرافى عربى مزود بالخارطات، أو هو فى الواقع أطلس البلاد الإسلامية ، توضح خارطاته بعض الشروح . وكان من بين هؤلاء الأعلام: الاصطخرى ، وابن حوقل والمقدسى

وغيرهم . وظهر من بعدهم عدد كبير من الجغرافيين يطول بنا الحديث إذا نحن أردنا أن نستعرض مؤلفاتهم ، خاصة وحديثنا مقصور على الجغرافية العربية فى عصورها الأولى . وحسبنا هنا أن نتناول ما أضافوه من جديد إلى فروع المعرفة الجغرافية .

لقد عنى العرب بالجغرافية الطبيعية ، وهى إحدى الشعبتين الرئيسيتين للجغرافية ، تتناول الأغلفة الثلاثة : الغلاف الصخرى Lithosphere والجوى Atmosp here والمائى Hydrosphere فدرسوا أشكال سطح الأرض ، وأرجعوا تجوية الجبال إلى فعل أشعة الشمس المستمر ، ونظروا إلى الأمطار والأنهار كعوامل أساسية فى الحت والإرساب. وبحث إخوان الصفاء موضوع التغيرات الجيولوجية الكبرى ، وما يتم بالتدريج من تحول فى تركيب الغلاف الصخرى ، وذهبوا إلى أن حرارة الشمس تحطم صخور الجبال إلى أحجار صغيرة وحصى ورمال ، وتحمل المطر ومياه الأنهار الجارية هذا الفتات إلى البحار والمحيطات ، وتعمل الرياح العاتية على بعثرة الفتات فى قاع البحار طبقة فوق طبقة ، ومع مضى الزمن يؤدى ارتفاع هذه الطبقات إلى تكوين الجبال :

« ومثلما تبنى الجبال فى أعماق المحيط ، يرتفع البحر ويفيض على السهول حتى تصير بحارا ، ويصير البحر يابسا مع مرور الأيام وعلى سطح الأرض التى برزت من البحر يتساقط المطر ، وتتكون مجارى الماء التى تحمل معها التربة والرمال »

ومعنى هذا أن العرب فى عصر مبكر أدركوا مفهوم الجيومورفولوجيا Geomorphology التى نعدها علما حديثا ، وليس فيها من حديث سوى الاسم . وأنهم عرفوا دورة التعرية Cycle of erosion قبل أن يقول بها وليم موريس ديفز William Moris Davis فى القرن العشرين .

وقد اعتقد العرب كذلك فى التغيرات التى تعترى العلاقة النسبية بين اليابس والماء ، وارجعوها إلى التغير فى مواقع النجوم فى جوانب القبة السماوية ، مما يؤدى إلى تغير فى جوانب الأرض بالنسبة لأشعة الشمس . وعندما تسقط الأشعة على أرض جديدة فإن نشاطها الهدمى والبنائى يتحول معها ، وبهذا يفسرون تحول الأرض إلى بحر ، ثم تحول البحر إلى أرض مرة أخرى . لقد كانوا لا يزالون متأثرين بالجغرافية الفلكية ، فذهبوا هذا ا لمذهب فى تفسير التبادل بين اليابس والماء ، ذلك التبادل الذى يرجعه الجغرافيون المحدثون إلى حركات باطن الأرض الرأسية منها والأفقية ، ومع أنهم كانوا يدركون الطبيعة الحارة لباطن الأرض ، فانهم لم يتصوروا أن حركات هذا الباطن يمكن أن تؤدى إلى تغير كبير فى أشكال سطح الأرض .

وقامت دراسة العرب للغلاف الغازى على أساسين هما : دراسة الظاهرات الجوية فى إقليم بعينه ، ودراسة التوزيع الجغرافى لمعدلات عناصر الجو ، وهذا يعنى أن أن الجغرافيين العرب هم الذين وضعوا أسس التمييز بين علم الطقس Meteorology وعلم المناخ Climatology . ولكنهم فى دراستهم للغلاف الغازى كانوا متأثرين بالنظرية اليونانية التى تجعل منه طبقات بعضها فوق بعض ، فقالوا بوجود طبقات ثلاث هى عندهم :

١ – طبقة الأثير : وهى أعلى الطبقات ، وأقربها إلى القمر ، وهى شديدة الحرارة للغاية .

٢ – طبقة الزمهرير : وهى الطبقة الوسطى وتتميز ببرودتها القارسة .

٣ – طبقة النسيم وهى أقرب الطبقات إلى الأرض وأكثرها اعتدالا فى حرارتها . وهم فى تقسيمهم هذا لا يختلفون عن أحدث النظريات العلمية ، فهواء سطح الأرض يبرد بالتدريج مع الارتفاع ، حتى إذا ما وصل إلى حد معين عادت الحرارة إلى الارتفاع مرة أخرى فى الطبقة التى يطلق عليها العلماء المحدثون اسم التروبوبوز Tropopause . ولكنهم أخطأوا فى تفسيرهم للتغيرات التى تطرأ على أحوال الجو حين ربطوها بالكواكب.

ورغم تقسيم الجغرافيين العرب الغلاف الغازى إلى طبقات ، فلم يفتهم أن يؤكدوا أن هذه الطبقات وإن تميزت عن بعضها البعض ، فإن الهواء يستطيع أن يتوغل فيها جميعاً .

وقد أدركوا حقيقة أن سطح الأرض يتعرض لأشعة الشمس بنسب تختلف بحسب موقع المكان من الشمس ، فكلما ضاقت زاوية ميل الأشعة قلت درجة الحرارة التى تبلغ أقصاها مع الأشعة العمودية ، وأثر هذا فى اتجاه الرياح وكمية المطر . والمطر فى نظرهم يسقط عندما يتصاعد بخار الماء بسبب تسخين الشمس حتى إذا ما وصل إلى طبقة الجو البارد ، تكاثف وثقل وزنه بعد أن كان خفيفا وتساقط مطراً أو ثلجا أو بردا ، وهم يرجعون بأسباب الرياح إلى تصاعد الهواء المرطوب ، وإلى توزيع الجبال التى تتحكم فى توجيه الرياح .

ويفرقون بين أربعة أنواع من الرياح هى : « ريح الشمال » التى تهب عن يسارك حينما تولى وجهك نحو مطلع الشمس ، و « ريح الجنوب » التى تهب عن يمينك ، أما الريح التى تستقبلك من مطلع الشمس فهى « القبول » أو « الصبا » وريح الغرب هى « الدبور » . وقد أدرك المسعودى حركة الرياح الموسمية واختلاف هبوبها من فصل إلى فصل وهى الرياح التى حرفت اللغات الأجنبية اسمها من موسمية إلى Monsoon

وكان مما يدعو إلى الإعجاب أن يدرك المقدسى أن نصف الكرة الجنوبى يتكون

معظمه من الماء بخلاف نصفها الشمالى الذى يتركز فيه اليابس ، وهو أمر لم يلتفت إليه علماء الغرب إلا بعد حركة الكشوف الجغرافية ، وقد فهم البيرونى حركة المد والجزر ، وربط بينها وبين أوجه القمر كما يقول العلم الحديث تماماً . وكان لا يستبعد أن يكون النصف الغربى من الكرة الأرضية معموراً كنصفها الشرقى وهذا قبل أن تكتشف الأمريكتان بعدة قرون .

وفى أول عهدهم بالدراسات الإقليمية درس العرب الأرض على أساس الأقاليم السبعة التى نقلوها عن اليونان ، وهى نطاقات هندسية تمتد من الشرق إلى الغرب ، محددة بدوائر العرض . ولم يبدأ العرب تقسيمهم من خط الاستواء ، بل بدأوه من خط عرض ١٦° شمالا وانتهوا إلى خط عرض ٥٠° شمالا . ويختلفون فيما بينهم اختلافاً يسيراً فى تحديد عروض كل إقليم ، ولكن جغرافيى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، أخذوا يعدلون عن هذه الطريقة ، ويتخيرون مناطق صغيرة كوحدات جغرافية متميزة . فيقول الإصطخرى فى مقدمة كتابه والمسالك والممالك : « أما بعد ، فقد ذكرت فى كتابى هذا ، أقاليم الأرض على الممالك وقصدت بها بلاد الإسلام ، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها ، ولم أقصد الأقاليم السبعة التى عليها قسمة الأرض ، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة بصورة » ، ويذهب ابن حوقل هذا المذهب ، وهكذا يفعل المقدسى .

والواقع أن اتخاذ المنطقة كوحدة جغرافية أكثر صلاحية للدراسة الإقليمية ، فهى جزء من الأرض واضح التحديد يختلف عن الأجزاء الأخرى فى ظروفه الطبيعية أو الحضارية أو الاتنولوجية ، ثم يقسم هذا الجزء إلى أقسام ثانوية ، فنجد الإصطخرى يقسم بلاد فارس على أساس المناخ إلى قسمين : « فارس الشمالية أو الصرود وفيها أماكن يبلغ من شدة البرد فيها ألا ينبت عندهم شىء من الفواكه » ، وفارس الجنوبية أو الجروم « وبها ما يبلغ من شدة الحر ألا يبيت عندهم شىء من الطيور ؛ والصروم كلها صحيحة الهواء ، والجروم يغلب عليها فساد الهواء وتغير الألوان . أما المقدسى فيتخذ شكل السطح أساساً لتقسيم بلاد الشام إلى أقاليم .

وطريقة هؤلاء الجغرافيين الأوائل فى معالجة الجغرافية الإقليمية لمنطقة ما تتناول ناحيتين : الأرض والناس ؛ فيدرسون الأرض على أساس موقعها وما بها من جبال وأودية وأنهار وسهول وصحارى وما إلى ذلك. ويدرسون الناس على أساس طعامهم ولباسهم . ومعتقداتهم الدينية ، ونظمهم الاجتماعية ، ونشاطهم الاقتصادى فى الإنتاج والتجارة .

وهم يهتمون أساساً بالهيئة الطبيعية Physical landscape للمكان سواء كان أم إقليماً ،

فيدرسون مظاهره الطبوغرافية، ولا يغفلون الظروف المناخية . فالمقدسى مثلا بعد أن يقسم بلاد الشام إلى أقاليمها التضاريسية يتحدث عن المناخ فيذكر أنه معتدل بصفة عامة إلا فى ذلك الجزء الذى يقع فى المنطقة الوسطى من الإقليم فيما بين الشارات والحولة ، فهذه هى المنطقة الحارة التى يزرع فيها النخيل. ويلاحظ على مناخ العراق أنه متقلب. فبغداد وواسط والبلاد فيما بينهما قد تكون لطيفة المناخ فى وقت وسرعان ما يصبح مناخها غير محتمل ، أما الكوفة فعلى النقيض تماماً ، وتسود فى البصرة حرارة عالية ، ولا يكون الجو معتدلا إلا عندما تهب ريح الشمال . هذه النظرة تبين بوضوح أن شيئاً من الاهتمام كان يوجه إلى تفهم الأحوال المناخية ، ولكنهم كانوا — يتجاهلون العوامل الأساسية فى المناخ والأسس التى تعتمد عليها .

واهتم الجغرافيون العرب بالهيئة الحضارية للإقليم Cultural landscape . فنجد الإصطخرى وهو يتحدث عن فارس يصف ملابس أهلها ويقول : « إن الكتاب يلبسون الدراريع والعمائم . فإن لبسوا تحت العمائم قلانس ، جعلوها خفية توقى الوسخ ولا تظهر» أما الملوك فإن لبسهم الأقبية ، وربما لبسوا الدراريع التى هى أوسع فرجة ، وأعرض جربانا من دراريع الكتاب » .

وهكذا يفعل المقدسى فى حديثه عن سكان بلاد الشام .

ولقد اهتم أصحاب الجغرافية الإقليمية بوضع مصورات للبلاد التى وصفوها ، وهى مصورات كان الهدف منها فيما يبدو توضيح طرق المواصلات الرئيسية ، والمدن الكبرى ، والجبال والأنهار والبحيرات وحدود الممالك ؛ ولم يكن لمصوراتهم قياس رسم خاص . وكانت الاتجاهات توضع عادة على هوامش الصورة ؛ وعلى عكس الخارطات الحديثة كان الجنوب دائماً فى أعلى الخارطة .

وقد اشتملت كتب التراث الجغرافى العربى على كثير من النواحى الاقتصادية فنجد فيها معلومات غزيرة عن موارد المياه ، وشئون الرى ، وتوزيع الغلات الزراعية ، والثروة المعدنية ، والصناعات ، وتجارة الممالك الإسلامية .

ولما كان الرى يلعب دوراً بارزاً فى الاقتصاد الزراعى وبخاصة فى الأقطار الإسلامية التى يقع معظمها فى مناطق جافة أو شبه جافة ، فقد عنى الجغرافيون العرب بهذه الناحية ، فنقرأ لابن حوقل وهو يتحدث عن البصرة قوله : « وذكر بعض المؤلفين من رواة الأخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبى بردة ، فزادت على مائة ألف نهر وعشرين ألف نهر ، تجرى فى أكثرها الزواريق ، وكنت أنكر ما ذكروه من هذا العدد ، حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ، فربما رأيت فى مقدار رمية سهم عدداً من

الأنهار صغاراً تجرى فى جميعها السميريات. ولكل نهر اسم ينسب به إلى صاحبه الذى احتفره ، أو إلى الناحية التى يصب إليها ، ويفرغ ماءه فيها . فجوزت أن يكون ذلك كذلك ، فى طول هذه المسافة وعرضها ولم استكثره » .

وكان الري فى فارس مشكلة خطيرة يعنى المقدسى بشرحها ، فيذكر أنه فى الجزء الشرق من البلاد حيث لا توجد أنهار ذات أهمية ، كان من الضرورى أن يجمع ماء المطر والمياه الجوفية حتى لاتضيع قطرة منها ، ويذكر أن فى نيسابور قنوات تحت الأرض تجرى بالماء ، ويظهر بعضها فوق السطح بالقرب من المزارع والمدن والقصور. ويشير إلى أعمال الرى التى أنشأها عضد الدولة ابن بويه ، بين شيراز وإصطخر ، فقد أقام على النهر سداً يرفع الماء إلى خزان تروى منه القرى مزارعها .

ويعطى الجغرافيون العرب معلومات قيمة عن توزيع الغلات الزراعية وعن الثروة المعدنية ، والصناعات القائمة فى ديار الإسلام ، والطرق الرئيسية التى تربط بين أطرافها . فيتحدث الإصطخرى عن بلاد ما وراء النهر وأن بها « من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم من الأسلحة والأدوات . وبها معدن الفضة والذهب والزئبق الذى لا يقاربه فى الغزارة والكثرة معدن فى سائر بلاد الإسلام » .

ويشير « ابن حوقل » إلى مناجم الذهب فى وادى العلاق بأرض مصر ، ومناجم الفضة فى خراسان والجبال وفارس وبلاد ما وراء النهر . ولا يكتفى بذلك بل يشرح الطريقة المتبعة فى استخراج بعض أنواع المعادن كالنوشادر من جبال اليتم فى أرض ما وراء النهر .

وكان من بين الفروع التى عنى بها الجغرافيون العرب جغرافية المدن . فقسموا المدن إلى خمس فئات : عاصمة الدولة ، والقصبات الإقليمية ، والمدن الإقليمية ، والضواحى ، والقرى . والقصبة الإقليمية كما عرفوها مدينة كثيرة السكان بها وال أو عامل ، وتنفق على الخدمات العامة من مواردها الخاصة ، ومن أمثلتها دمشق والقيروان وشيراز .

وتختلف المدينة عن القرية فى أن الأولى بها منبر . وهم فى دراستهم للمدينة يركزون بصفة خاصة على موقعها ، ومن المدن التى تقع فى واد تحيط به التلال يذكر المقدسى مكة فى جزيرة العرب ، وعمان فى بلاد الشام ، وإصطخر فى فارس . ويتحدث الجغرافيون العرب عن المدن التى تدين بأهميتها لوقوعها على طرق التجارة ، فيذكرون منها بغداد والموصل وسيراف وغيرها . ولا يغفلون أهمية الموقع الاستراتيجى فيذكر المقدسى آمد وأنها ترجع إلى موقعها الحصين وقلاعها ، ثم يقارن بينها وبين أنطاكية بأسوارها وأبوابها

وقلعتها التى بنيت على الجبل . كذلك تحدثوا عن المدن التى اكتسبت شهرتها لعوامل دينية فيقول المقدسى عن بيت المقدس إنها تقع فى سهل يحشر فيه الناس يوم الحساب ، ويضيف أن مكة والمدينة لها الأفضلية على سائر المدن لوجود الكعبة فى الأولى وقبر الرسول فى الأخرى .

ومن النواحى التى عنى بها الجغرافيون فى دراسة المدن موارد مياهها فيقول الإصطخرى عن سمرقند إنها كثيرة المياه « فلم ير خانا أو زاوية فى شارع أو ميدانا إلا وقد رتبت فيه السبل للمياه المثلجة . . . . ولها ماء جار يدخل إليها فى نهر رصاص وهو نهر قد بنيت له مسناة عالية من حجارة يجرى عليها الماء ، ووجه هذا النهر رصاص كله » .

ويقول اليعقوبى إن المدن الشمالية فى فارس مثل قم ونيسابور بها نظام للماء الجوفى تحمله الأنابيب إلى مساكن المدينة، ويقول المقدسى إن بمكة ثلاثة خزانات تملأها مياه القنوات التى أمرت بحفرها السيدة زبيدة امرأة هارون الرشيد من بستان بنى عامر . والكتابة الجغرافية العربية غنية بالإشارات إلى وصف المساكن والدور فيذكر الإصطخرى عن آمل أن « الغالب على أبنيتها الخشب والقصب وهى كثيرة الأمطار شتاء وصيفاً، وسطوحها مسنّمة لذلك » .

وكانت البيئة وأثرها على الإنسان من الموضوعات التى احتفل بها الجغرافيون العرب ويبدو هذا واضحاً فى كتاب « الحيوان » للجاحظ ، وفيها كتب المقدسى والمسعودى والبيرونى وغيرهم . وقد فهم العرب العلاقة بين الإنسان وبيئته على أساس مزدوج . فقال علماء الهيئة إن الإنسان جزء من الكون، ومن ثم تتحكم فى مزاجه وطباعه الكواكب المسيطرة على الإقليم الذى يعيش فيه، ولكن فريقاً من الجغرافيين خرج على هذا الرأى وإن لم ينكره تماماً ، ففسر العلاقة بين الإنسان والوسط الذى يعيش فيه على أساس اختلاف مظاهر البيئة الطبيعية وبخاصة مظاهر السطح والمناخ وموارد الماء ، وكان المسعودى من رواد هذا الاتجاه ، يتناول مظاهر البيئة بالتحليل ، ثم يحاول أن يتبين أثرها على الإنسان وحياته .

لقد أدرك المسعودى أهمية الماء والغطاء النباتى ومظاهر السطح كعوامل تؤثر فى الحياة البشرية فكتب « وقد تختلف قوى الأرضين وفعلها فى الأبدان لثلاثة أسباب : كمية المياه التى فيها ، وكمية الأشجار ، ومقدار ارتفاعها وانخفاضها ، فالأرض التى فيها مياه كثيرة ترطب الأبدان ، والأرض العادمة للمياه تجففها . وأما اختلاف قوتها من قبل الأشجار فإن الأرض الكثيرة الأشجار التى فيها ، تقوم لها مقام السترة فلهذا السبب لاتسخن ، والأرض المكشوفة من الأشجار ، العادمة لها ، حالها على عكس حال الأرض الكثيرة الأشجار . وأما اختلاف قواها من قبل علوها وانخفاضها ، فلأن الأرض العالية المشرفة

فسيحة باردة ، والأرض المنخفضة حارة وميدة » .

ويحاول المسعودي أن يفسر قيام المدن وتحديد مواضعها بالعوامل الجغرافية المحيطة بها ، ويرى « أن أصناف اختلاف البلدان أربعة : أولها النواحي ، والثاني الارتفاع والانخفاض، والثالث مجاورة الجبال والبحار، والرابع طبيعة تربة الأرض » ، ثم يشرح أثر هذه العوامل في البلدان : « فارتفاعها يجعلها أبرد وانخفاضها يجعلها أسخن » ويختلف جوها باختلاف موقعها من الجبال : « فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية ، وإنما تهب فيه الريح الشمالية فقط » وعلى العكس من ذلك إذا كان الجبل من ناحية الشمال . ولموقع البحر من البلد أثره : « فإذا كان البحر من ناحية الجنوب كان ذلك البلد أسخن وأرطب. وإن كان من البلد في الشمال ، كان ذلك البلد أبرد وأيبس » كذلك لطبيعة التربة أثرها. «فمتى كانت تربة البلد صخرية جعلت البلد أبرد وأجف، وإن كانت جصية جعلته أسخن وأجف ، وإن كانت طينية جعلته أبرد وأرطب » .

ويعتقد الجغرافيون العرب في أثر المناخ على الإنسان ، فذهب ابن رسته إلى«أن سكان العروض الوسطى كأهل بابل وما جاورها قد اعتدل مزاجهم ، ولطفت بنيتهم وبشرتهم لأن الشمس لا تكون قريبة جداً منهم ، ولا بعيدة للغاية عنهم ، وإنما هي في موقع وسط وهذا هو سر الاعتدال » .

ويقول المسعودي وهو يتحدث عن أهل الربع الشمالي من الأرض « وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنجة وما جاورهم من الأمم . فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ، فغلب على نواحيها البرد والرطوبة ، وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم... وجفت طباعهم ،وتوعرت أخلاقهم ، وتبلدت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم ، وابيضت ألوانهم حتى أفرطت، فخرجت من البياض إلى الزرقة ، ورقت جلودهم ، وازرقت عيونهم أيضاً فلم تخرج عن طبع ألوانهم ، وسبطت شعورهم ، وصارت صهبا لغلبة البخار الرطب ، ولم تكن في مذاهبهم متانة وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة » .

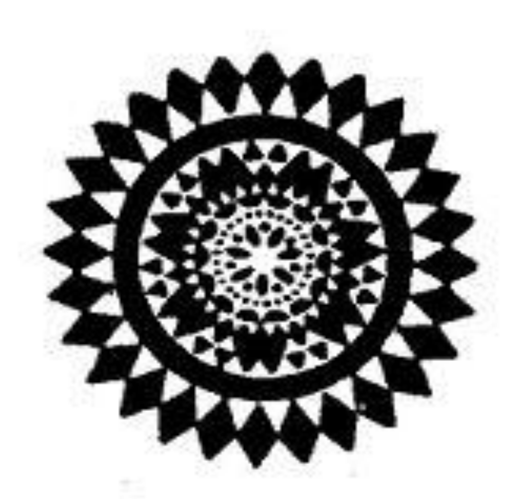
ويرى المسعودي أن الترك الواغلين في الشمال ، فلبعدهم عن مدار الشمس«استرخت أجسامهم ، ولانت فقارات ظهورهم ، وخرزات أعناقهم ، حتى تأتي لهم الرمي بالنشاب في كرهم وفرهم ، وغارت مفاصلهم لكثرة لحومهم ، فاستدارت وجوههم ، وصغرت أعينهم » أما الزنج وسائر الأحابش وغيرهم من سكان الجهات الاستوائية « فقد اسودت ألوانهم ، واحمرت أعينهم وتوحشت نفوسهم ، وذلك لالتهاب هوائهم وإفراط الحر في نضجهم ، حتى تحرقت ألوانهم ، وتفلفلت شعورهم » .

ويذهب المسعودى إلى أن الإنسان يتأقلم فى بيئته الجديدة ، ويكتسب صفات غير التى كانت له ، ويضرب مثلا بجماعة من شعب آمور الترك أوغلوا حتى بلغوا حدود الهند ، فأثر فيهم مناخ البيئة الجديدة وأصبحت بشرتهم أقرب إلى الهنود منها إلى الترك.. ولا يقتصر التأقلم على الإنسان بل يتعداه إلى النبات والحيوان ، فشجر جوزالهند لم يكن عند المسعودى سوى نوع من نخيل التمر نقل إلى الهند فأكسبته البيئة الجديدة خصائصه المميزة . كذلك الحيوانات يغلب طبع كل أرض على لونها « فالحرار السود والأغوار و حشها إلى السواد ، ووحش الرمال البيض إلى ذلك اللون ، فإن كانت الرمال حمراء فوحشها عُفْر وهو لون التراب ، وكذلك وحش الجبال من الأروى وغيرها يكون من ألوان تلك الجبال ، إن حمرا ، وإن بيضا وإن سودا » .

واضح إذن أن الجغرافيين العرب فى القرنين الثالث والرابع للهجرة قد اهتموا بالجغرافية فى شعبتيها الرئيسيتين : الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ونجحوا فى تفهم كثير من المسائل وتفسيرها ، ولكنهم أخفقوا فى بعض الأحيان ؛ وما كان إخفاقهم عن نقص فى إدراكهم بل لأن الوسائل العلمية وطرق البحث لم تكن قد تقدمت إلى الدرجة التى هى عليها الآن . وقد ترك هؤلاء الجغرافيون الأعلام تراثاً خصباً من العلم والمعرفة لا يزال مجهولا لدى الكثيرين ، وحرى بنا نحن الجغرافيين المحدثين أن نقلب فى هذا التراث لنكشف عن أصالته ونبعث فيه الروح من جديد .

محمد محمود الصياد

عضو المجمع



بين اللغات العاميّة واللسان المدوَّن

للأستاذ الشاذلى القليبى

قال أحمد أمين فى كتابه «زعماء الإصلاح فى العصر الحديث» ما يلى :

« ولعل من أهم المشاكل التى تواجه العالم العربى الآن استخدامه لغتين : عامية وفصيحة ، والفرق بينهما كبير ، يستعمل إحداهما فى البيت وفى الشارع وفى المجالس ، ويستعمل الأخرى فى الكتابة والقراءة . ولم تنجح أية محاولة فى التقريب بينهما . وهذا أضعف من اللغة الفصحى لأنها لم تكتسب الحيوية التى تأتى من طريق الاستعمال اليومى ، وأضعف اللغة العامية لأنها لم تستفد مما ينتجه الأدباء والشعراء .

ولا تزال المشكلة عويصة تتطلب الحل من المصلحين » .

فى هذه الفقرة ، على اقتضابها ، وضع للمشكلة اللغوية التى يواجهها العالم العربى اليوم :

ولعل من المفيد أن ننطلق من هذا النص لوضع القضية الرئيسة ، وتفريع المشاكل الناجمة عنها .

فأول ما ينبغى أن يلاحظ استعمال أحمد أمين لفظ « عامية » بالإفراد ، وهو يتكلم عن العالم العربى بأسره . والواقع أن لكل بلد عربى عامية خاصة به . فنحن أمام ثنائية لغوية ، فى كل بلد ؛ ولكننا ، فى مستوى العالم العربى ، نواجه ثنائيات متعددة ، لأن الفرق بين اللهجات العامية كبير ، وربما تعذر معه التفاهم لأول وهلة .

ثم إن الثنائية بين العامية والفصحى ، فى كل بلد ، بحسب وجوه الاستعمال : فالعامية للحياة اليومية ، والفصحى للثقافة . والحياة اليومية خاصة بكل قطر ، بينما الثقافة العربية مشتركة بين سائر البلاد العربية . وبذلك نجد ، فى طى التقسيم الذى ذهب إليه أحمد أمين ، التمييز بين ما اصطلح علماء

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات الدورة الرابعة والأربعين (جلسة السبت ١٦ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨ هـ - ٢٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨م)

اللغة المحدثون على تسميته باللفظ اليوناني ، dialektos ، أى لغة التخاطب ، Koinédialexis, أو Koiné فقط ، اختصاراً — أى اللغة المشتركة التى تستعمل فى أغراض معينة ، ثقافية كانت أو غيرها .

ويشير ، بعد ذلك ، أحمد أمين ، فى إيجاز بليغ ، إلى عواقب هذه الازدواجية اللغوية القائمة فى العالم العربى : فالفصحى انتقصت حيوية ، والعامية بقيت بمعزل عن شؤون الثقافة .

أما أن هذه الازدواجية هى من أهم المشاكل التى يواجهها العرب فى هذا العصر ، كما جاء فى كلام أحمد أمين ، فلا بدّ من التذكير بأن هذه المشكلة قديمة قدم العالم العربى — وإن هى أصبحت ، فى عصرنا هذا المشكل الرئيسى الذى تتوقف على حله نهضتنا الثقافية والاجتماعية . فى كثير من النصوص القديمة إشارة إلى هذه الظاهرة ، وأهمها ما كتبه ابن خلدون فى المقدمة [1] .

وقد يكون من المفيد استعراض آراء ابن خلدون فى هذا الباب حتى ننطلق منها فى علاج ما بين العامية والفصحى من علاقات.

فاللغة العربية كان يتناقلها العرب من جيل إلى جيل ، بفضل ما يسميه ابن خلدون : « الملكة » ، وهى شبيهة بالطبع ، تحصل بالتلقين المباشر ، عن طريق السماع والتعود ، منذ الصغر .

على أنه يؤخذ من بعض أبواب المقدمة نظرية خاصة بدرجة فصاحة اللسان العربى ، منذ العهد الجاهلى . فكانت « لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم . ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل ، وخزاعة ، وبنى كنانة ، وغطفان ، وبنى أسد ، وبنى تميم . وأما من بَعُدَ عنهم من ربيعة ، ولخم وغسان ، وإياد ، وقضاعة ، وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة ، بمخالطة الأعاجم » [2].

ثم إن هذه الملكة فسدت ، بعد الإسلام ، باختلاط العرب بالأعاجم ، حين استولى العرب على العراق والشام ومصر وإفريقية والمغرب .

ولما كان القرآن والحديث بلغة مضر ، وهما أصلا الدين والملة ، « خشى انغلاق الأفهام عنهما ، بفقدان اللسان الذى تنزلا

(١) ابتداء من ص ١٠٤٠ — الطبعة اللبنانية .

(٢) ص ١٠٤١ — ١٠٤٢

به . . . فاحتيج إلى تدوين أحكامه ، ووضع مقاييسه ، واستنباط قوانينه » .

ويميز ابن خلدون بين لسان الجيل العربى العائش بعيداً عن المدن الكبيرة ، وإن اختلط بالأعاجم بعض الشئ ، ولغة الأمصار التى اشتد فيها تأثير العجمة ، بسبب تكاثر الاختلاط .

أما لغة الجيل العربى الذى يعيش بعيداً — بعدا متفاوتا — عن الاختلاط بالعجم ، فإنها ؛ فى نظر ابن خلدون ، لا تختلف اختلافا جوهريا عن لغة مضر .

ويحدثنا صاحب المقدمة عما يسميه « لغة أهل الجيل العربى الذى بعهدنا » ، فيحلل العلاقة بينها وبين لسان مضر على النحو التالى :

فاللغات كلها ملكات . والملكة ليست « بالنظر إلى المفردات ، وإنما (هى) بالنظر إلى التراكيب . فإذا حصلت الملكة التامة فى تركيب الألفاظ المفردة ، للتعبير بها عن المعانى المقصودة ، ومراعاة التأليف الذى يطبق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع : وهذا هو البلاغة »[1] .

ورغم أن هذا النص يؤخذ منه حصر الملكة فى التراكيب ، فإن سياق الكلام عند ابن خلدون يدل على أن مرد البلاغة والبيان — ومعناهما عنده واحد — إلى الألفاظ ، فى دلالتها على معان بأعيانها ، وإلى التراكيب ، فى أحوالها وكيفية تأليفها .

وعلى هذا التحليل يبنى الكاتب مقولة هامة ، كان ينبغى أن يكون له شئ غير قليل من الجرأة ليصدع بها فى عصره :

« وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد . ولا تلتفتن فى ذلك إلى خرفشة النحاة ... حيث يزعمون ... أن اللسان العربى فسد ، اعتباراً بما وقع فى أواخر الكلم من فساد الإعراب »[2] .

فالملكة التى كانت لأهل قريش تغيرت ، فى نظر ابن خلدون ، ولكنها لم تفسد . والذى فسد إنما هو الإعراب ، وهو « بعض من أحكام اللسان[3] » . ودليله على ما ذهب إليه أن « الكثير من الألفاظ لم تزل فى موضوعاتها الأولى » . ثم إن طرائق التعبير وسنن التبليغ موجودة ، بدليل وجود الخطيب المصقع والشاعر المفلق ، فى الجيل العربى المتأخر .

أما لغة الحضر فى المدن ، فيقول عنها صاحب المقدمة إن « عرف التخاطب فى الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ، ولا بلغة أهل الجيل — يقصد الجيل العربى الباقى على بداوته — بل

---

(١) المقدمة — الطبعة اللبنانية — ص ١٠٤٠
(٢) المصدر السابق ص ١٠٤٣
(٣) كان ابن خلدون يميل إلى استعمال كلمة « لسان » كلما قصد الحديث عن « لغة مضر » أو ما نسميه اليوم بالفصحى .

هى لغة أخرى ، قائمة بنفسها ، بعيدة عن لغة مضر ، وعن لغة هذا الجيل العربى . . . وهى عن لغة مضر أبعد »(1) .

ويحلل خصائص هذه اللغة الحضرية فيراها قائمة على « ملكة ممتزجة » ، أى هى مزيج من ملكة اللسان العربى ومن ملكة اللسان العجمى . وابتعاد لغة الحضر عن لغة مضر القديمة بحسب اختلاطهم بالأعاجم : « فمن خالط العجم أكثر ، كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلى أبعد »(2) .

وينظر ابن خلدون فى اللغات الحضرية نظرة علمية مجردة ، شبيهة بما يذهب إليه علماء اللغة فى هذا العصر ، فيلاحظ :

أولا : أنها تختلف باختلاف الأمصار : فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشىء للغة أهل المغرب ، وكذلك للغة أهل الأندلس .

ثانياً : أنها لغات قائمة بنفسها قادرة على « تأدية المقصود والإبانة » . وهذا معنى اللسان واللغة . وفقدان الإعراب ليس بضائر لها »(3) .

وفى هذا الباب أيضاً ، سبق صاحب المقدمة عصره بقرون ، فنظر إلى اللغات نظرة علمية ترتكز على مفاهيم واضحة دقيقة ترجع الأمور إلى إطار النسبية الاجتماعية ، وتقيّمها بحسب ما لها من وظائف فى حياة البشر :

— وإن كان علماء اللغة المحدثون ، يرون أن نظرة ابن خلدون إلى اللغة نظرة تطورية ، تبحث خصائص اللغة حسب تطورها التاريخى . وهم لايرتاحون إلى هذه الطريقة ، ويفضلون عليها النظرة « التزامنية » — على حد تعبيرهم — أى نظرة وصفية تحلل نظام اللغة وهياكلها فى فترة محددة .

ولئن أعجبنا بتفلسف ابن خلدون فى تحليل أحوال اللغة وأطوارها، وخاصة بنظريته المتعلقة بما يسميه « لغة التخاطب فى الأمصار وبين الحضر » ، فإن لنا ، فى عصرنا هذا ، شواغل لم تكن فى عصر ابن خلدون : وهى تخص بناء المجتمعات العربية على أسس أصيلة وعصرية ، معاً . ونعتقد أن للثقافة — بأوسع معانيها — فى هذا العمل دوراً أساسياً ، فى تطوير الأوضاع الذهنية والاجتماعية. والثقافة أداتها الأولى إنما هى اللغة .

وقضية اللغة ، فى نظرنا ، قضية رئيسية . وبحسب طريقة مواجهتنا لها ، تتكيف مواقفنا الثقافية والحضارية .

ونود ، فى هذا الصدد ، أن نقدم بعض الملاحظات .

* * *

---

(1) المصدر السابق ص ١٠٤٧ .

(2) المصدر السابق ص ١٠٤٧ . وكان ابن خلدون يميل هنا إلى استعمال كلمة «لغة» .

(3) المصدر السابق ص ١٠٤٧ .

فعلى فرض أن اللغات المحلية قادرة على البلاغة والبيان ، كما يقول ابن خلدون ، فإنا نعتقد أن لا خيار اليوم ، أمام الشعوب العربية غير الفصحى . فهذا اختيار مبدئى لا مناص منه لكل الشعوب الناطقة بالعربية ، وذلك لأسباب جوهرية ، كثيراً ما وقع التعرض لها منذ قيام الخصومة بين أنصار الفصحى والمتعصبين للعامية ، منها أن الفصحى صلتنا المباشرة بالدين والملة ، وأن الفصحى هى التى تربطنا بالتراث الثقافى العربى ، وبما لنا من تاريخ منذ أربعة عشر قرناً .

أما السبب الذى أريد أن أؤكد أهميته فيتمثل فى الدور السياسى الذى تضطلع به الفصحى اليوم ، إذ هى اللحمة التى تشد الشعوب العربية ، بعضها إلى بعض : بدونها تتضاءل وشائج القربى بينها ، وبفضلها ، إن هى أحسنت استعمالها ، وأحكمت أيضاً تصريف سائر شئونها ، يمكن أن تؤلف مجموعة ذات بال ، فى المجال الدولى ، على الصعيدين الثقافى والسياسى .

فالعاميات تفرق ، بينما الفصحى تجمع .

بل إنه يمكن القول أن الجامع المشترك بين العرب اليوم ، مشرقاً ومغرباً ، إنما هو هذه اللغة الفصحى ، التى يسميها ابن خلدون اللسان المدون[1] ، والتى بقيت قائمة الذات ، عبر العصور وتقلبات التاريخ ، أربعة عشر قرناً ، دون فساد ولا تغير ، وإن هى تطورت تطوراً بلا انقطاع .

وتلك من معجزات هذا « اللسان المدون » أن استطاع أن يثبت فى أحكامه ومقاييسه ، مع التطور فى أحواله والتجدد فى كيفياته ، بحسب ما تقتضيه شؤون الفكر والعلم والمجتمع . ولئن كان أسلافنا ، فى صدر الإسلام ، حرصوا على تدوين هذا اللسان ليكون « دوما وسيلة إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله »[2] فإن لنا ، فى هذا العصر ، إضافة إلى الاعتبار الدينى ، اعتبارات ثقافية وحضارية وسياسية ، لا تحدو بنا فحسب إلى جعل هذا اللسان المدون فنا محفوظا وعلما مكتوبا»[3] ، فلا يعدو أن يكون بذلك وقفا على الخاصة ، لا شأن فيه للعامة ، وإنما هى تحدو بنا كذلك إلى إحيائه ، حتى يصبح وسيلة اتصال بين العرب كافة إضافة إلى كونه أداة إبلاغ لشؤونهم الفكرية والعلمية والاجتماعية جميعاً ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الاستعمال اليومى ، بحسب رأى أحمد أمين .

(١) المصدر السابق ص ١٠٤٤ .

(٢) ص ١٠٤٤ .

(٣) ص ١٠٤٤ .

ولا بد ، لبلوغ هذه الغاية ، من إجماع العرب على خطة تجعل الجهود متضافرة ، والأهداف متناسقة .

وبلوغ الغاية المنشودة أمر من الصعوبة بحيث لايتطلب فقط الاتفاق فى التصريحات الرسمية ، بل يقتضى أيضاً ، وفى الدرجة الأولى كامل الإخلاص فى العمل ، من أجل تحقيق هذه الغاية .

وليس ذلك على العرب بعزيز ، ومجموعات غيرنا ، فى أوروبا ، استطاعت أن تتجاوز لغاتها المحلية إلى لسان مشترك بينها ، استعملته فى مختلف الأغراض الإدارية والتعليمية والثقافية ، حتى انتشر إشعاعه تدريجياً ، وكاد يعم سائر مجالات الحياة . وإنما على على هذا النحو كان ارتقاء الفرنسية والإنكليزية والألمانية إلى وظيفة اللسان المشترك ، فى أصقاعها الأصلية ، بأوروبا .

والمنهج الذى نعتقد ضرورة اتباعه فى مستوى العالم العربى كافة ينطلق من العناية باللسان المدون وباللغات العامية ، معا ، باعتبار مالهذه وذاك من تأثير ، وما ينبغى أن يكون لكل منها من دور .

أما اللسان المدون فهو اليوم ، كما لاحظه أحمد أمين ، مقصور — أو يكاد — على شؤون الأدب والثقافة العامة . وهو لايزال ، هنا أو هناك ، يواجه عقبتين لابد من تذليلهما : فمنا من لايزال يتردد فى اتخاذ العربية لغة لكل الشؤون الإدارية والاقتصادية لتغلب المصادر الأعجمية التى عنها نأخذ الفنون الإدارية والاقتصادية ، ومنا أيضاً من لايعتقد أنه فى إمكاننا أن نعلم كل العلوم الصحيحة باللسان العربى . وهذا وذاك من رواسب ما أشار إليه ابن خلدون من ولع المغلوب بالاقتداء بالغالب ، حتى فى اقتباس لسانه ، اعتقادا منه أن لغته قاصرة عن الإبلاغ .

وهذه النظرة إلى العربية ناشئة عن الوضع الحالى لثقافتنا ، وكذلك عن جهل أكثر المثقفين العرب بما كان للعربية من باع فى العلوم العقلية والرياضية والطبيعية ، حين كان العرب فى طليعة الحركة الحضارية فى العالم .

فلئن غلب على ثقافتنا ، منذ عصر النهضة ، العناية بالأدب ، إضافة إلى علوم الدين ، فإن كتب العلوم القديمة تشهد بما بلغته لغتنا من مران فى أداء دقائق المعانى فى كل باب . وليس من السهل أن نرجع إليها الآن قدرتها كاملة على القيام بهذا الدور ، بعد الكبوة التى أصابت الحضارة العربية قرونا متوالية .

ولكن لامناص للمجتمعات العربية من بلوغ هذا الهدف ، وإلا بقيت فى درجة من القصور والتبعية مهينة .

فإن أردنا بلوغ هذا الهدف فى أقرب الآجال ، فلابد من شرطين متلازمين :

لابد من تكوين العلماء العرب القادرين ، لاعلى مجرد الاحتذاء ، بل على البحث والابتكار ؛

ولابد ، فى الآن نفسه ، من تلقينهم اللغة الفصحى منذ نعومة أظفارهم ، حتى تربّى فيهم ملكتها ، فتقارب فيهم الطبع والسليقة .وتكون لهم القدرة على استنباط الاصطلاحات الجديدة ،واستشفاف ما ينبغى استشفافه من الأصول القديمة .

ولا نتوصل إلى تصيير الفصحى سليقة، حقا ، فى الأجيال الناشئة ، إلا بتقريب الشقة بين اللسان المدوّن ولغة التخاطب ، فى كل قطر من الأقطار العربية .

فيكيف نقرب اللغات المحلية من اللسان المدّون ؟

جوابنا الذى لا نتردد فيه هو أن نتخذ من لغة الكلام سلما إلى اللسان المدون ، لاستعماله ، بما ينبغى من مرونة وتدرج .

ينبغى أن نلاحظ أن لغة الحضر فى تغلب مطرد على لغة البدو ، فى أكثر البلدان العربية .

ثم إن لغة الأمصار ، هذه ، تختلف ، من قطر إلى قطر ، اختلافا كبيراً ، أحيانا ، كما لاحظ ذلك ابن خلدون :

ولكن الذى يسترعى اهتمامنا اليوم هو أن وسائل الاتصال العصرية بين الشعوب قد ساهمت فى التعريف بالكثير من اللغات المحلية .

ولا بد من الإشارة إلى المكانة التى أصبحت تحتلها لغة القاهرة ، من بين سائر لغات الأمصار العربية .

وهنا أود التوقف لحظة عند هذه الظاهرة لتحليل أسبابها .

فلا شك أن لمصر ، منذ قيام النهضة العربية والإسلامية ، منزلة خاصة ، تعززت بما كان للقاهرة ، فى الثقافة والفنون ، من دور مرموق ، مماجعل القاهرة كعبة القصاد،سواء للرحلة السياحية فى طريق الحج ، أو للرحلة الدراسية فى طلب العلم ، أو للرحلة السياسية ، بالنسبة إلى عدد من رجال الكفاح التحررى أوالنضال السياسى ، ولا أستبعد أن يكون كل ذلك قد أوقع فى الأذهان أن لغة القاهرة هى اللغة المثلى فراموا تقليدها :

ثم إن الوسائل السمعية البصرية الجديدة أكدت دور مصر وإشعاع لغة القاهرة وذلك ابتداء من الأسطوانة التى نشرت الأغنية المصرية ، ثم تلتها السينما ، فالإذاعة فالتلفزة ، فأصبحت كل الآذان ، فى مستوى النخبة وفى مستوى الجماهير على السواء ، تتلقى مختلف ، الإبلاغات ، الثقافية والفنية والسياسية ، عن طريق لغة القاهرة .

ثم إن الدور السياسي الذى اضطلعت به مصر منذ عشرين سنة ، وما استتبع من توافد الطلبة من كل الأصقاع ، للدراسة بالجامعات المصرية ، ثم وجود مركز الجامعة العربية ، وانعقاد أغلب الندوات والمؤتمرات العربية بها ، لا شك أن كل ذلك جعل العاصمة المصرية مركز الدائرة العربية ، وعزز إشعاع اللغة القاهرية ، حتى أصبحت ، بصورة ضمنية — شعورية أولا شعورية — لغة الاتصال بين مختلف الوفود العربية ، إذا هى اجتمعت فخشى بعضهم أن لا يُفهم عنه جيدا ، إن هو استعمل لغته المحلية .

والحق يقال : إن هذه الأسباب كلها ما كانت لتكفى لإحلال لغة القاهرة هذه المنزلة ، لولا جمال متأصل فيها ، ولطف فى النغم ، وظرف فى تأليف الكلمات وتركيب الجمل ، وميل واضح إلى تحريك الساكن والتزام ما لا يلزم من الضم أو الكسر ، يكسب اللسان المصرى راحة فى التنفس لا نظير لها فى سائر الألسن العربية .

ومما يلاحظ فى لغة القاهرة تأثرها المتزايد باللسان المدون .

وهى ظاهرة لا تخلو منها بقية لغات الأمصار العربية ، ويمكن إرجاعها إلى مستويين :

مستوى الألفاظ : فعدد متزايد من ألفاظ الفصحى تنتقل إلى اللغات المحلية ، وخاصة منها مفردات الحضارة ، وذات المعانى المجردة .

ثم مستوى الصيغ الصرفية والتراكيب النحوية ، وجملة من الأنماط والهياكل ، للتعبير عن صيغ فى التفكير جديدة ، وإن كان هذا أوضح فى لغة الطبقات المتعلمة .

ومما يلاحظ فى هذا الصدد أن المثقفين كثيراً ما يعدلون عن الصيغ المألوفة فى اللغة العامية ، إلى صيغ مقتبسة من اللغة الفصحى ، وأحيانا من اللغات الأجنبية ؛ ومنهم تنتشر هذه القوالب فى الأوساط المجاورة .

وهذه الملاحظة تجرنا إلى توسيع النظرة إلى بقية العوامل التى يمكن أن نركز عليها العناية ، فى تهذيب اللغات الشعبية ، وتقريب الشقة بينها وبين اللسان المدون — رغم ما قد يخشى عليها من تناقص مصادر الطلاوة والتلقائية فيها .

فللتعليم الدور الأساسى ، فى تهذيب العامية . وبقدر ما تنتشر المدارس الابتدائية والثانوية تتسع رقعة اللسان المدون ، وتتقارب الصلة بينه وبين اللغة المحلية ، وبالتالى بين مختلف اللغات المحلية فيما بينها ، فى العالم العربى .

ثم إن تأثير الصحافة والإذاعة والتلفزة فى تقريب الفصحى من كل فرد عربى ، يعزز دور المدرسة ، فى كل الأوساط الاجتماعية . وهذا معروف لا يحتاج إلى زيادة شرح .

ولكنى أودّ أن أؤكد عاملا آخر ، لعله لم يحظ بما هو به جدير من الاهتمام : فالاجتماعات العمومية ، سواء فى نطاق النقابات ، أو الأحزاب ، أو غيرها من المنظمات ذات الصبغة الشعبية ، كثيراً ما نلاحظ أنها تساهم فى إبراز لغة جديدة ، شعبية من حيث أنها مفهومة لدى الخاص والعام ولكنها قد تناولها العمل والتهذيب ، ودخلتها مفردات وصيغ وقوالب ، فأكسبها ذلك مرانا وقدرة على الأداء ، دون أن يضعف من حيوتها التى بها نفاذها إلى النفوس . وهى لغة عربية سقط منها الإعراب ، ولكنها فى أغلب أحوالها ، لا تعتريها العجمة التى يتعذر معها التفهم لمن ليس من مصرها .

ولئن كان تهذيب اللغات المحلية وسيلة هامة من وسائل تقريب الشقة بين اللغة العامية واللسان المدون ، فإن لكيفية استعمال اللسان المدون تأثيراً فى انتشاره ، وسهولة استعماله .

فالذى استقيناه من تجاربنا ، سواء داخل الهياكل التعليمية ، أو فى نطاق أجهزة الثقافة والإعلام ، أو أثناء الاجتماعات العامة ، هو أنه يمكن تكييف الفصحى على مستويين :

فصحى للكتابة ، وهو مايسميه ابن خلدون اللسان المدون ؛

وفصحى للتخاطب ، وهى كيفية خاصة لاستعمال اللسان المدون تنفى عنه ماقد يبدو متكلفا ، أو غريبا ، فى أغلب أحوال الحياة الخاصة والمواقف الاجتماعية .

ووجود مستويات مختلفة فى استعمال اللسان المدون ليس بأمر جديد ولاهو بدعة ، وإنما هو واقع مألوف ، فى عصرنا هذا على أقل تقدير . فمن الواضح ، مثلا ، أن « الفصحى » تختلف اليوم باختلاف الأجيال : فللشيوخ لغة ، وللشبان لغة ولاشك أن الزيتونى والأزهرى والقروى يستعملون لغة هى من نواح متعددة ، متميزة عن لغة خريجى الجامعات العصرية .

ثم إن المتأمل فيما ينشر بالبلاد العربية من كتب ومجلات وصحف ، يلاحظ فى استعمال الفصحى ، بمختلف الأقطار ، فروقا جزئية ، ولكنها واضحة ، تكفى أحياناً لمعرفة القطر الذى ينتسب إليه المطبوع ، اعتماداً على استعمال مفردات معينة ، أو تراكيب وقوالب ، لا تُعهد فى غيره .

ويمكن أن نحدد ملامح لسان التخاطب هذا ، المنبثق من الفصحى ، فى مستوى المفردات ، ومن حيث الإعراب والإلقاء .

أما من حيث الألفاظ ، فالذى لاحظناه فى لغة أهل تونس — وقد أشار إلى مثله زميلنا الكبير الأستاذ عبد الله كنون بالنسبة إلى لغة الحديث فى المغرب الأقصى — أن جانبا كبيرا من ألفاظ اللغة العامية هو من اللسان المدون ؛ لا أن المثقفين فى

حروف متزايد عن كل لفظ مألوف عن كل لفظ مألوف فى العامية، إما للجهل بمصدره ، أو من باب الاستهجان لكل ما يمت إلى العامية بسبب .

ونعتقد أن ذلك مما يزيد فى انغلاق الفصحى عن سواد الشعب ، فينبغى ، على العكس من ذلك ، تخير الألفاظ العربية المستعملة فى اللغات العامية ، واجتناب ماسواها عند الإمكان . مع مراعاه قواعد الذوق والبلاغة .

ثم إنه يحسن ، فى لسان التخاطب ، أن لانحجم عن الألفاظ الأعجمية التى فرضتها الحضارة الحديثة ، وهو عين ماسلكه أسلافنا فى القرون الأولى ، عند اختلاطهم بالأعاجم ليأخذوا عنهم أصول العلوم القديمة وأنواع المرافق الحضارية .

وبقدر ما نرى عدم الإحجام عن اقتباس المفردات الأجنبية الضرورية ، فإنا نعتقد أنه من واجبنا أن نكيفها وننحتها نحتا يجعل اللسان العربى يتقبلها عن طواعية .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، وليس هذا موضع الخوض فيها . ولكن ليتضح « بساط الحال » ، — كما يقول ابن خلدون — نشير ، فى الحالة الأولى ، إلى حرص بعض أنصار الأصالة على استعمال عبارة « الإذاعة المرئية » ، مثلا ، بينما جمهور الناس فى البلاد العربية يستعملون اللفظ الأجنبى ، ونشير فى الحالة الثانية إلى إدخال كلمه تليفزيون بوزنها الأجنبى دون تغيير . مع استثقال اللسان العربى لكلمة فى مثل هذا الطول . وقد شاع فى تونس استعمال لفظ « التلفزة » الذى يبدو أرشق وأقرب إلى طبيعه اللسان العربى .

وفى خصوص الاقتباس من اللغات الأجنبية ، نعتقد أنه بقدر ما يتأكد اقتباس كلمات الحضارة ذات المدلول المادى ، فإنه يحسن فى أغلب الأحوال ترجمة المفردات الدالة على معان مجردة ومن أمثلة ذلك ماشاع فى المشرق من استعمال كلمة « كوادر » التى تعنى فئة المسيرين فى الصنائع أو الإدارة ، بينما كان من الأفضل اتخاذ كلمة : إطار « ج » إطارات للدلالة على نفس المعنى .

ثم إنه لامناص أحيانا من استعمال كلمات من اللغة العامية ، وإن كانت نسبتها إلى الفصحى غير واضحة . ونحن نفضل ذلك عند الاقتضاء ، على الركون الى ألفاظ غريبة يصعب اعتيادها وتداولها .

أما ثانية ملامح الفصحى المبسطة ، فعدم التزام حركات الإعراب ، تخفيفا للنطق واستبعاداً لكل مايؤكد مغايرة اللسان المدون للغة الكلام ، فى أذهان الجمهور ، وكذلك تسهيلا على أغلب الناس أن يستعملوها دون خوف من اللحن ، قد يؤول إلى الحصر والكبت .

أما الميزة الثالثة التى ينبغى أن تتوفر فى الفصحى الدارجة ، فتخص الإلقاء وكيفية الأداء . فإنه يتعين فيها الحرص على لهجة الكلام المعتاد ، فى بساطة نطقه ، وحيوية تراكيبه ، مع التمسك بالذوق الصحيح والطبع السليم اللذين يجعلها صاحب المقدمة من شروط البلاغة والبيان .

* * *

ونرى استعمال «فصحى التخاطب» فى مواطن اجتماعية معينة ، فى مقدمتها معاهد التعليم. فلقد لاحظنا أن لغة المعلم فى الابتدائى بل فى الثانوى — وحتى فى العالى أحيانا — لاتبعد عن العامية بكثير ، خاصة إذا كانت المادة متصلة بالعلوم الرياضية أو الطبيعية . لذلك نعتقد أنه ، كلما تعذر على المعلم استعمال اللسان المدون فإنه ينبغى أن يجتهد فى استعمال «الفصحى الدارجة» حتى ترسخ فى نفوس الناشئة ملكه اللسان الفصيح ، على مر الأعوام .

ثم إن من أهم المواطن التى يجب فيها استخدام فصحى التخاطب ، برامج الإذاعة والتلفزة ، التى كثيراً ماتتأرجح بين عامية مطبقة وفصحى مغلقة ، مما قد يفقدها مسحة الحيوية أو لطف العبارة .

ولقد نلاحظ ، مثلا ، أن نشرات الأنباء تلقى فى تزمت التلاوة ، مع ماتستوجبه من أحوال فى التركيب وهيئة فى النطق بينما كان من الممكن إلقاؤها فى مثل لهجة الكلام ، دون كلفة .

وقد يكون إحكام هذا اللسان ، على النحو الذى فصلنا ، من العسر بمثابة السهل الممتنع ، لأنه يتطلب ممن يرومونه أن يكونوا قد عكفوا على ممارسته «حتى استولوا على على غايته»[1] ، للتوصل إلى تمام الإبلاغ والإبانة . ولكنه شرط لإرجاع الحيوية إلى اللسان المدون .

أما الموطن الثالث الذى يحسن فيه احتذاء خصائص الفصحى المبسطة فهو المسرح لما لهذا الفن من تأثير فى مختلف الأوساط الاجتماعية .

ورغم أن رجال المسرح اتفقوا ، فى ندوة دمشق[2] ، على توصية تتعلق بتفضيل استعمال الفصحى فى الحوار المسرحى ، فإن القضية بالنسبة إلى الكثير من رجال المسرح تدعو إلى مزيد التأمل فيما قد ينجم فى نظرهم عن هذا الاختيار من عواقب .

فأنصار العامية فى الحوار المسرحى على شىء من الحق ، حين يقولون: إن شوون الثقافة والفن لا يكون لها من قيمة حتى تتأصل فى بيئة معينة ، وإنها لا تبلغ القمم العالية إلا بالانغماس فى التربة المحلية .

وهذا رأى مصيب ، بشرط تلافى ما يعوق الإنتاج الثقافى من الإشعاع ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٥٧ .

(٢) انعقدت الندوة فى نطاق مهرجان المسرح من ١٢ إلى ١٤ مايو ١٩٧٧ ، بدمشق وكان عنوانها «مشاكل النص المسرحى فى البلدان العربية» .

بسبب وورود الحوار المسرحى بلغة محلية ، لا يفهمها إلاقلة من العرب .

لذلك يمكن الاتجاه ، فى لغة المسرح ، إلى خصائص « لسان التخاطب» . كما بيناها آنفا ، وذلك بتخيّر الألفاظ بحسب فصاحتها ومحليتها ، معا ، وبتكييف للتراكيب والصيغ ، يجعل اللغة المحلية أبعد ما تكون عن الانغلاق ، مع احتفاظها بالطلاوة والحركية ، واجتناب المفردات التى تختلف معانيها باختلاف الأمصار — ولربما اختلفت اختلافا منكرا — :

ونعتقد أن ذلك ممكن فى الإنتاج المسرحى ؛ إذ من مقتضيات المسرح أن يكون ، فى نفس الوقت ، مطابقا للواقع ، ونتيجة جهد فنىّ لا يصير المسرح رائقا بدونه .

ويقدر ما يحسن ذلك ويتأكد فى الحوار المسرحى ، فهو متعذر ، إلى حدّ ماَ ، فى الحوار السينمائى ؛ ذلك أن السينما فن ألصق بالواقع اليومى ، فى ابتذاله وصنوف أحواله ، والمسرح بينه وبين الواقع فجوة ، هى فرصة لتدخل الجهد الفنى . والمفروض أن السينما تقتطع مناظرها من صميم الواقع بينما يخضع المسرح لجملة من الاصطلاحات الفنية تجعله ينجرد عن الواقع بعض الشيء ليتسنى له النفاذ إلى لب الحياة .

* * *

تلك هى ، فى اعتقادنا ، الطريق المؤدية إلى إحلال لغتنا الفصحى المكانة التى تضمن لها قوة الحيوية والإشعاع .

فلا بد ، فى آجال قصيرة ، فى نطاق العالم العربى ، من الارتقاء باللسان المدون إلى أداء جميع العلوم والتقنيات العصرية ولا ينبغى أن يكون فى ذلك ضير على مستوى العلم ، ولا انغلاق فى المجال الثقافى .

ثم من المفيد تعميم الفصحى المبسطة عن طريق ماأسميناه بـ"لسان التخاطب" ، حتى لا تكون الفصحى لغة طبقة ، فى المجتمع العربى ، ولو طبقة المثقفين ؛ إذ من أهدافنا جمعيا ، تجاوز الفروق الطبقية ، وتقريب الشقة بين الفئات الاجتماعية ، وذلك ليس فقط بالعدالة الاقتصادية ، بل ، أيضا ، بالمساواة فى التخاطب بلغة مشتركة ، لا هى عامية سوقية ، ولا هى معزولة الأصول محدودة الفروع ، بلغة أصيلة حيّة ، تجمع بين كافة الشعوب العربية وتربط الحاضر بجذوره العريقة .

الشاذلى القليبى
عضو المجمع

شواهد: على صحّة الشعر الجاهلي

للدكتور ناصر الدين الأسد

حين كنت أجمع مادة بحثي عن مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية عثرت على أبيات للفرزدق وأبيات أخرى لسُراقة بن مِرْداس البارقيّ الأصغر، ذكرا فيها نفراً من شعراء الجاهلية بأسمائهم أو ألقابهم أو كُنَاهم، واقتبسا كلمات مما ورد في شعر بعضهم قد تبلغ شطرة كاملة، وأشارا إشارات سريعة إلى أوصاف بعضهم أو إلى حوادث شُهِروا بها. فأثبتُّ أبيات الشاعرين في بحثي، ولم أتوقف حينئذ عندها طويلاً ولم أتنبّه لِمَا فيها من إشارات تدعو إلى تتبُّع مثل هذه الأبيات وجمعها لتكون دليلاً آخر، قائماً بذاته، من أدلة صحة الشعر الجاهلي. واكتفيت بذكرها آنذاك ذكراً عابراً في معرض الحديث عن علم الشعراء الأمويين بأيام العرب وأخبارهم وشعرهم.

وعرضتْ لي بعد حين أبياتٌ لشعراء آخرين من المخضرمين والإسلاميين فيها من الإشارات ما في أبيات الفرزدق وسُراقة، فنبّهتني إلى ما لم أتنبّه إليه من قبل. ورأيت أن أفرد لها هذا البحث الموجز، لأنها من أهمّ الأدلّة التي تُسْقِط حجّة من زعم وجود فجوة بين الشاعر الجاهلي وعصر التدوين العلمي للشعر الجاهلي، في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري ثم استبحر هذا التدوين في القرنين الثالث والرابع.

(*) قدم هذا البحث إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية في الدورة الرابعة والأربعين، المنعقد في القاهرة في شهر ربيع الآخر سنة ١٣٩٨ هـ = مارس (آذار) سنة ١٩٧٨ م.

فمن ذلك قول عمرو بن أحمر الباهلي وهو شاعر جاهلي إسلامي، [1] من قصيدة طويلة مطلعها :

قد بكَرتْ عاذلتى بُكْرة
تزعم أنّى بالصِّبا مُشْتَهِرْ

قال [2] :

إنَّ امرأ القيس على عهدِه
في إرْثِ ما كان بَنَاهُ حُجُرْ

بيَّتَتْ عليه المُلْكَ أطنابها
كأسٌ رَنَوْناةٌ وطِرْفٌ طِمِرْ

يلهو بهندٍ فوق أنماطها
وفَرْتَنَى تعدو إليه وهِرْ

حتى أتته فيلق طافح
لا تَتَّقى الزَّجْرَ ولا تنزجِرْ

لما رأى يومًا، له هَبْوةٌ،
مُرًّا عبوسا شرُّه مُقْمَطِر

أدّى إلى هند تحيّاتِها
وقال :هذا من وَداعِي دُبُرْ

وعمرو بن أحمر في هذا الشعر، يشير إلى أبيات متعددة لامرئ القيس في هؤلاء النسوة منها قوله :

ليالٍ بذات الطَّلْح عند مُحجَّرِ
أحبُّ إلينا من ليالٍ على أُقُرْ

أغادِي الصَّبوح عند هِرٍّ وفَرْتَنَى
وليدًا، وهل أفنى شبابي غيرُ هِرّ

إذا ذقتُ فاها قلتُ :طعمُ مُدامة
مُعتّقةٍ مما يجيء به التُّجُرْ

ومنها قوله :

دارٌ لهندٍ والرَّبابِ وفَرْتَنَى
ولَمِيس قَبْلَ حوادثِ الأيّام

ومنها قوله :

وفيمن أقام من الحى هِرْ
أم الظاعنون بها في الشُّطُرْ

وهِرٌّ تَصِيدُ قلوب الرجال
وأفْلَتَ منها ابنُ عمرٍو حُجُرْ

---

(١) ذكر المرزباني في معجم الشعراء أنه « توفي على عهد عثمان رضي الله عنه بعد أن بلغ سنا عالية » ، ولكن الدكتور حسين عطوان جامع ديوانه ومحققه رجح أنه امتد به العمر إلى أيام عبد الملك بن مروان وتوفي في نحو سنة خمس وسبعين أو بعيدها .

(٢) ديوانه : ٦٠ – ٧٠ ، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

رمَتْنى بسهمٍ أصاب الفؤاد
غداة الرَّحيل فلم أنتصِرْ

* * *

وقال الرُبيع بن ضَبُع الفَزَارِىّ[1] ، وهو جاهلى أدرك الإسلام وعُمِّر[2] :

ها أنذا آمُلُ الخلودَ وقد
أدرك عقلى ومولدى حُجُرا
أبا امرئ القيس ، هل سمعت به؟
هيهات هيهات طال ذا عُمُرا

وقال أبو النجم العجلى يصف قينة[3] :

تَغَنَّىْ ، فإنَّ اليوم يومٌ من الصِّبا ،
ببعض الذى غَنَّى امرؤ القيس أوعَمْروَ
فظلَّت تُغَنَّى بالغَبِيط وميْلِه
وترفع صوتًا فى أواخره كَسْرُ

ويشير أبو النجم بذلك إلى بيت امرئ القيس فى معلقته :

تقول ، وقد مال الغَبِيط بنا معًا ،
عَقَرْتَ بعيرى يا امرأ القيس فانزِلِ

* * *

وقال عبد الرحمن بن الحكم يعاتب أخاه مَرْوان بن الحكم :

بِحَولِ المرء عمرٍو فى القوافى
لِقَيْسٍ حين خالف كل عذْلِ :
« عذيرَكَ مِنْ خَليلكَ من مُرَادِ
أريدُ حِبَاءهُ ويُرِيدُ قَتْلى »

وعمرو هو عمرو بن معد يكرب الصُّحابىّ ، وقيسٌ هو ابن أخته قيس بن المكشوح المُرادِىّ ، وكانا فى الجاهلية يتلاحيان ويتناقضان ، ومن أجل هذا ذكرته هنا . وكان عمرو بن معد يكرب قد قال لقيس :

تمنَّانى لِيَلْقانى قُيَيْسٌ
وددْتُ وأينَما مِنِّى ودادى
أريْدُ حِبَاءهُ ويُريدُ قَتْلى
عذيرَك مِنْ خليلكَ مِنْ مُرادِ

فضمَّن عبد الرحمن بن الحكم هذا البيت الثانى واستشهد به بعد أن قدَّم عجزه ، وأخَّر صدره ، ليستقيم مع قافية شعره .

* * *

(١) ذكره الآمدى فى المؤتلف والمختلف ولم يورد له شعراء . (٢) المعمرون : ٦ – ٧ .
(٣) الشعر والشعراء : ٥٦ ، طبع دار الثقافة ببيروت ١٩٦٤ . وذكر المرزبانى فى معجم الشعراء أن أبا النجم بقى إلى أيام هشام بن عبد الملك .
(٤) البكرى ، التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه : ٢٣ – ٢٤ .

وقال الوليد بن يزيد[1] :

فوجدى بسلمى فوق وجد مُرَقَّش
بأسماء، إذْ لا تستفيق عواذلُهْ
لَعَمْرِى لَمَوْتٌ لا عُقوبَةَ بعده
لِذِى البَثِّ أشفَى من هوًى لايُزايِلُهْ

يشير الوليد إلى المرقّش الأكبر وهو عمرو بن سعد من بنى قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل، وهو من متيّمى العرب فى الجاهلية وعُشّاقهم، هام بابنة عمّه أسماء بنتِ عوف، وله فيها شعر كثير[2] .

* * *

وقال الصَّلَتان العبْدِىّ فى الحُكم بين الفرزدق وجَرير[3] :

أنا الصَّلَتانُ الَّذى قد عَلِمْتُمُ
متى ما يُحكَّمْ فهو بالحقّ صادعْ
أتتنى تميم حين هابتْ قُضاتُها
وإنِّىْ لِبَالفَصلِ المبيِّن قاطعْ
كما أنفَـذَ الأعشَى قضيّةَ عامر
وما لِتَميمٍ فى قضائىْ رواجـعُ
ولم يَرْجع الأعشى قضيّةَ جعفرٍ
وليس لحُكْمِى آخرَ الدهرِ راجعُ

ويشير الصَّلَتان بهذه الأبيات إلى المنافرة التى كانت فى الجاهلية بين عامر بن الطُّفَيْل ابن مالك بن جعفر بن كلاب ، وعلقمةَ ابنِ عُلَاثَةَ بن عوف بن الأحوص بن جعفر ابن كلاب ، وإلى قصيدة الأعشى فى الحُكْم بينهما وتفضيله عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة ، ومن قول الأعشى فى هذه القصيدة[4] :

عَلْقَمُ ، لا لست إلى عامـر
الناقضِ الأوتـار والواتـر
واللابسِ الخيل بخيلٍ إذا
ثـار غُبـارُ الكَبَّةِ الثائـرِ
سُدْتَ بنى الأحوصِ لم تَعْدُهمْ
وعـامـرٌ ساد بنى عـامـر
ساد وألْفَى قـومَـه سادةً
وكابـرًا سادوك عن كابـر
إنّ الذى فيـه تماريْتُمَا
بُيِّنَ للسـامع والنـاظـرِ

(١) مجلة العرب ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٨ ، نقلا عن مخطوطة من اسمه عمرو من الشعراء ، لابن الجراح .
(٢) الأغانى ، والمفضليات .
(٣) الشعر والشعراء ، ٤٠٨ – ٤٠٩ .
(٤) ديوانه ، قصيدة ١٨ ، نشر مكتبة الآداب بالجاميز .

حكّمْتُمُـونى نقضى بينكمْ
أبلجُ مِثْـلُ القمـرِ الباهـرِ

أوّلَ الحُكْمَ عـلى وجهـه
ليس قضـائى بالهوى الجائرِ

قد قلتُ قـولًا فقضى بينكمْ
واعترفَ المنفـور للنـافـرِ

• • •

وقال ذو الرُّمّة يمدح بنى حَنِيفة[1] :

هُمُ قرنُوا بالبَكْرِ عَمْرًا وأنزلوا
بـأسيافهمْ يوم العَرُوضِ ابنَ ظالمِ

قال شارح الديوان أبو نصرٍ أحمدُ بن حاتم الباهلىُّ صاحبُ الأصمعى « يعنى عمرو بن كُلْثوم ، كانوا أسروه فقرنوه بالبَكْر » . وذكر أبو الفرج[2] أن يزيد ابن عمرو من بنى حنيفة انتهى إلى عمرو ابن كلثوم فطعنه ،فصرعه عن فرسه وأسره وشدّه فى القِدّ ، وقال له : أما إنى سأقرِنك إلى ناقتى هذه فأطْرُدكما جميعًا ، فاجتمع على يزيد قومُه فنهَوْه ، ولم يكن يريد ذلك به :

• • •

وعمرو بن كلثوم صاحب القصيدة المعلقة « ألا هُبِّى بصحنكِ فاصْبَحِينا » التى شاعت ،وفاخر بها بنو جُشَم من تغلب قوم عمرو ، فقال فى ذلك الشاعر الإسلامى المَوْج التَّغْلَبى ، واسمه قيس بن زِمّان . وهو ابن أخت القُطامىّ[3] :

ألْهَى بنى جُشَمٍ عن كُلِّ مَكْرُمَـةٍ
قصيـدةٌ قالها عمرو بن كُلْثومِ

يُفاخرون بها مُـذْ كان أوّلُهُمْ
يا لَلرِّجـالِ لفخرٍ غير مَسْؤوم

• • •

ونصل فى نهاية هذا البحث الموجز إلى أبيات الفرزدق وسُراقَةَ البارقى الت أشرنا ليها فى مطلعه .

---

(١) ديوانه : ٧٧٢ ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٢ .
(٢) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٥ -٥٦ .
(٣) معجم الشعراء (الحلبى ١٩٦٠) : ٤٥٣ ، والمؤتلف والمختلف (الحلبى ١٩٦١) : ٢٨٦ ، وقصيدة الموج فى ديوان عمرو بن كلثوم (تحقيق كرنكو ، طبعة المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٢٢) ص : ٢٠ - ٢١ . والموج من بنى مالك بن بكر بن حبيب ، وجشم أخو مالك .

قال الفرزدق[1] :

وهَبَ القصائد لِي النوابغُ إذْ مَضَوْا
وأبو يزيدَ وذو القُرُوحِ وجَرْوَلُ[2]

والفحلُ علقمةُ الذي كانت له
حُلَلُ الملوكِ ، كلامُـهُ لا يُنْحَلُ

وأخو بنى قيسٍ وهُنَّ قتلْنَهُ
ومُهلهِلُ الشعراءِ ذاك الأوَّلُ[3]

والأعْشَيان كلاهمـا ومُرَقِّشٌ
وأخو قُضَـاعة قوله يُتمثَّـلُ[4]

وأخـو بنى أسدٍ عبيدٌ إذْ مضى
وأبــو دُوَادٍ قــولُـه يُتَنَحَّلُ

وابنـا أبي سُلْمَى زهيـرٌ وابنُـه
وابنُ الفُرَيْعَةِ حين جَدَّ المِقْوَلُ[5]

والجَعْفَـرىُّ وكان بِشْرٌ قبــله
لِي من قصائده الكتابُ المُجْمَلُ[6]

ولقـد ورِثْتُ لآلِ أوسٍ منطقًا
كالسمِّ خالط جانبيه الحنظلُ[7]

والحـارثىُّ أخو الحِمَاسِ ورِثْتُهُ
صَدْعًا كما صَدعَ الصَّفاةَ المِعْوَلُ[8]

* * *

وقبل أن ننتقل إلى أبيات سراقة ؛ نضيف إلى ما أوردناه من شعر الفرزدق شعرًا آخر له ؛ هو قوله يمدح قَطَن بن مُدْرِكة الكلابىّ[9] :

سأجزيكَ معروف الذى نلْتَنِى به
بِكَفَّيْك ، فاسمعْ شعرَ من قد تنخَّلا

قصائد لم يقدرْ زهيرٌ ولا ابنُـه
عليها ، ولا من حَوَّلُوه المُخَبَّلا[10]

ولم يستطع نسجُ امرىءِ القيس مثْلَها
وأعْيَتْ مراقيها لبيــدًا وجَـرْوَلا

---

(١) ديوانه ص : ٧٢٠ — ٧٢١ ، النقائض : ٢٠٠ — ٢٠١

(٢) النوابغ : النابغة الذبيانى والجعدى والشيبانى . وأبو يزيد : المخبل السعدى . وذو القروح : امرؤ القيس وجرول : الحطيئة .

(٣) أخو بنى قيس : طرفة .

(٤) أخو قضاعة : أبو الطمحان القينى .

(٥) ابن الفريعة : حسان بن ثابت

(٦) الجعفرى : لبيد بن ربيعة . وبشر بن أبى خازم الأسدى .

(٧) أوس بن حجر .

(٨) الحارثى : هو النجاشى الشاعر .

(٩) ديوانه : ٧٠١ (شرح الصاوى) نشر مصطفى محمد

(١٠) حولوه : لقبوه .

ونابغتىْ قيس بن عَيْلَان، والذى

أراه المنايا بعضُ ما كان قَوَّلا[1]

ونضيف كذلك بيت جرير فى نقيضته لقصيدة الفرزدق الأُولى ،وهو قوله :[2]

حَسْبُ الفرزدقِ أن تُسَبَّ مُجاشِعٌ

ويَعُدَّ شِعْرَ مُرَقِّشٍ ومُهَلْهِلِ

وقد ذكر الفرزدق فى أبياته الأُولى اثنين وعشرين شاعرًا ، منهم اثنا عشر شاعرًا جاهليًّا كلهم مشهور له شعر معروف ، لم يدرك الإسلام منهم إلا الأعشى ميمون بن قيس ولم يسلم ، وذكر ثمانية شعراء أدركوا الإسلام وأسلموا ، ولكن أكثر شعرهم وشهرتهم كان فى الجاهلية . وأما الشاعران الباقيان فإسلاميان .

وكان الفرزدق يسمى بعض هؤلاء الشعراء حينًا ، ويكتفى حينًا آخر بذكر كنيتهم أو لقبهم ، وربما أضاف أوصافًا فيها نقد أو تاريخ ، كقوله عن علقمة : إنه كانت له حلل الملوك ولا ينحل كلامه . وعن طَرَفه : إن شعره قَتله ، وعن مهلهل : إنه مهلهل الشعراء وإنه الأوَّل ، قبل أولئك الشعراء ،وعن أبى الطَّمَحان القينى : إنه أخو قضاعة وإن كلامه يُتَمَثَّل به . وكقوله إن بشر بن أبى خازم كان قبل لبيد .

أما أبيات سُرَاقة البارقى الأصغر فهى[3]

ولقد أصبتُ من القَرِيضِ طريقةً

أعْيَتْ مصادرُها قرينَ مهلهلِ[4]

بعد امرئ القيس المُنَوَّه باسمه

أيام يهذى بالدَّخُول فَحَوْمَلِ

وأبو دُوادٍ كان شاعر أُمَّـــة

أفَلَتْ نجـومُهمُ ولمَّا يـأْفـلِ

وأبو ذُؤيبٍ قـد أذلَّ صعـابَهُ

(لا يَنْصِبنَّكَ) رابضٌ لم يُذْلَلِ

وأرادها حسَّان يـوم تعرَّضت

بَرَدَى يُصفَّقُ بالـرحيق السلسلِ

ثم ابنُـه من بعـده فتمنَّعتْ

وإخالُ أنَّ قرينَـه لم يَخْذُلِ

---

(١) يقصد طرفة الذى قتل بسبب شعره .

(٢) ديوانه : ٤٤٤ (شرح الصاوى) الطبعة الأولى ، نشر مصطفى محمد .

(٣) ديوانه — تحقيق حسين نصار — ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ ، ص ٦٤ — ٧١

(٤) قرين الشاعر : شيطانه .

وبنو أبي سُلْمَى يقصُر سَعْيُهمْ
عنَّا كما قَصُرتْ ذِراعـا جَـرْوَلِ
وأبو بصيـرٍ ثَمَّ لم يُبْصِـر بهـا
إذْ حلَّ من وادى القريضِ بِمحْفِلِ
واذكُرْ لبيـدًا فى الفحـول وحاتماً
سيلومُك الشعراءُ إنْ لم تفعـلِ
ومُعقَّرًا فاذكُرْ وإنْ ألْـوَى به
رَيْبُ المنُـونِ وطائـرٌ بالأخيلِ
وأميّـةَ البحرَ الذى فى شعـره
حِكَمٌ كَوحْى فى الزُّبُور مُفصَّـلِ
والنمرى على تقـادُمِ عهـده
مِمَّنْ قَضيْتُ له قضـاء الفيصـلِ
واقذِفْ أبا الطَّمَحان وسْطَ خُوانِهم
وابنُ الطُّرامةِ شاعر لم يُجْهَـلِ [1]
لا والـذى حجّت قريشٌ بيتَـه
لـو شئتُ إذ حدَّثتكم لم آتلِ
ما نال بحرى منهمُ من شاعر
مِمَّنْ سمعت به ولا مستعجـل [2]

• • •

وفى شعر سُراقة ستة عشر شاعرًا ، ذكر الفرزدقُ منهم أحد عشر ، ولا أعرف من منهما قال قصيدته قبل صاحبه ، وإنْ كان الأرجح أن سراقة توفى قبل الفرزدق بنحو ثلاثين سنة ، وذكر سراقة شاعرين جاهليين لم يذكرهما الفرزدق ، وهما حاتم وأُمية ، وشاعرين مخضرمين هما أبو ذُؤيب ومُعقِّر .

وزاد سراقة فاقتبس من شعر بعض هؤلاء الشعراء ، فذكر عجز بيت حسان «بردى يصفق بالرحيق السلسل» ، وذكر جزءًا من مطلع معلقة امرىء القيس حين أشار الدخول فحومل .

• • •

وبعد ،

فما نعرف أحدًا شكَّ فى جمهرة الشعر الذى أوردناه ولا طعن فى صحة نسبته إلى عصره ولا إلى شاعره. فما ذكرناه من شعر عمرو بن أحمر الباهلى وأبى النجم العجلى ، وعبد الرحمن بن الحكم ، والوليد ابن يزيد ، والصلتان العبدى ، وذى الرمة ، والموج التغلبى ، والفرزدق ، وجرير وسراقة البارقى ، كل ذلك نجا مما تعرض

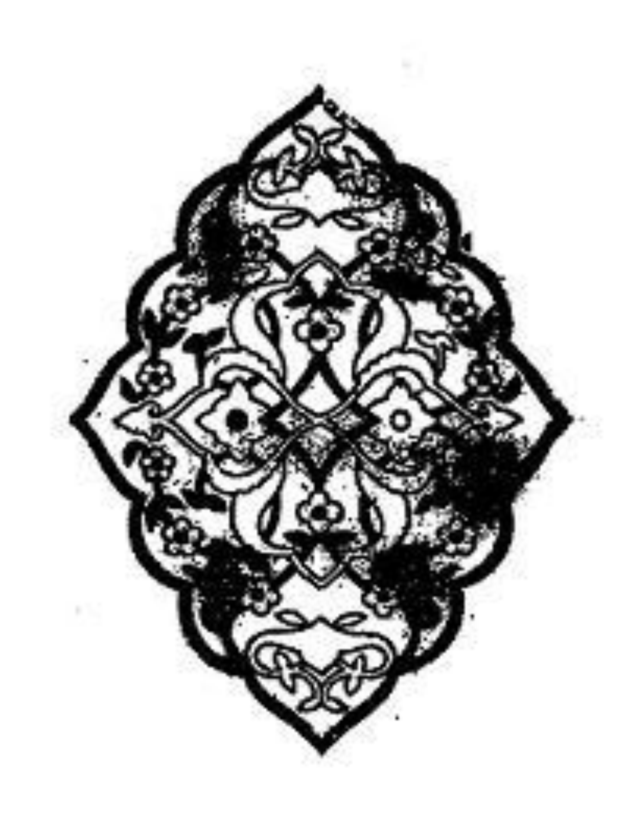
---

(١) ابن الطرامة : المنذر بن حسان الكلبى (معجم الشعراء : ٢٧٠)
(٢) مستعجل : كذا فى ديوانه المطبوع ، ولا أعلم لها وجهاً ، وقد وقف عندها محقق الديوان .

له الشعر الجاهلى من المغالاة فى الشكّ فيه، فصار وثيقة تاريخية يعتمد عليها ، ويستشهد بها .

وليس من الكلام الذى يلقى على عواهنه أن يبدأ الفرزدق ذكر هؤلاء الشعراء بقوله: إنهم « وهبوا القصائد له إذ مضوا » ، وأن يقول فى البيت الثامن إنه « ورث منطقهم » . فهذه إشارات محكمة نضمّها إلى غيرها مما أوردناه من شعر صدر الإسلام والشعر الأموى ، لتصبح كلها واضحة الدلالة على أن التراث الشعرى الجاهلى ظل موصول الحلقات يتناقله الخلف عن السلف،والجيل بعد الجيل ،منذ العصر الجاهلى ، بل منذ الشاعر الجاهلى نفسه ، دون انقطاع حتى عصر التدوين العلمى فى النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى حين أخذه الرواة العلماء مشافهة وتدوينا من أفواه الرواة ، ومن شعر الشعراء ، ومن كتب القبائل والنسب ، فكان دائمًا مصونًا محفوظًا ، ذخيرةً لهذه الأمة يربط حاضرها بماضيها ، ويبعث ماضيها حيًّا فى حاضرها ، ويضمن لها وحدتها الثقافية ،واتصالها التاريخى ،وقيمها الفكرية وخصائصها الذاتية .

ناصر الدين الأسد
عضو المجمع



بين العامية والفصحى

للأستاذ عبد الرزاق البصير

حينما نبحث تطور اللغة العربية، نجد الشكوى من غزو اللهجة العامية قد برز في نصف القرن الأول للهجرة (*)، على وجه التقريب، وهذا يعني أن هذا الغزو قد بدأ بعد ما امتزجت الأمة العربية بالفرس والروم واليونان وغيرهم من الأمم الأجنبية امتزاجاً قوياً تمثل في مصاهرة العرب هذه الأمم، فاتخذوا منهم الزوجات والجواري فأنجبن لهم البنات والأولاد . . . ونحن نعلم أن للأمهات تأثيراً كبيراً على بناتهن وأولادهن وأزواجهن بفضل التربية والمعاشرة مما جعل اللكنة الأعجمية تشيع بين الناس حتى الشعراء والأمراء منهم .

فهذا عبيد الله بن زياد، وهو الذي أصبح أميراً على خراسان ثم الكوفة والبصرة يحرف في كلامه فينطق بما يعاب عليه لأن أمه فارسية اسمها مرجانة . . فمن ذلك قوله : « افتحوا سيوفكم » ، يريد سلوا سيوفكم »، مما فتح مجالا لهجو يزيد بن المفرغ به حيث قال :

ويوم فتحت سيفك من بعيد
أضعت وكل أمرك للضياع

ولو لم يتأكد هذا الشاعر بأن استعمال عبيد الله بن زياد لهذه اللفظة ، مما يؤخذ عليه بها لما أنكر عليه هذا الاستعمال ، ولكنه زياد الأعجم مشهورة يتندر بها عليه أهل زمانه بالرغم من أن مؤرخي الأدب يقولون عنه بأنه شاعر جزل اللفظ فصيح الشعر ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يتخلص من لكنته الأعجمية لأنه ولد ونشأ بأصفهان ثم انتقل إلى خراسان فلم يزل بها حتى مات ، وهو صاحب المرثية المشهورة التي نظمها بعد موت المغيرة بن المهلب والتي جاء فيها :

فإن مروت بقبره فاعقر لـه
كرم المطي وكل طرف سابح

فقال له يزيد بن المهلب بعد ما أنشده هذه القصيدة : أفعقرت أنت عنده ؟ قال « كنت على بنت الهار » يريد « الحمار » .

ودعا زياد غلامه فأرسله في حاجة ، فأبطأ ، فلما جاءه قال : منذ لدن دأوتك إلى أن قلت : لبي ماكنت تسنأ ؟ . يريد : منذ لدن دعوتك إلى أن قلت لي: لبيك . ماكنت تصنع ؟ ومن الواضح أن هذه ألفاظ في غاية اللكنة والقبح .

(*) تقدم هذا البحث إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية في الدورة الرابعة والأربعين المنعقد في القاهرة في شهر ربيع الآخر سنة ١٣٩٨ هـ — مارس (آذار) سنة ١٩٧٨ م) .

وأنت حين تنظر فى شعر زياد تجده من المتمكنين فى نظم الشعر . ويقال إن عبدالملك بن مروان كان يشبه اللحن بالجدرى فى الوجه الجميل والشق فى الثوب النفيس . ويقال إن الحجاج كان يقرأ : « إنا من المجرمون منتقمون » ، وقد روى فى باب اللحن روايات فيها كثير من الطرافة . . فمن ذلك أن الحجاج سأل نخاسا : أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟ . فأجابه : شريكاننا فى هوازها وشريكاننا فى مداينها ، وكما تجىء تكون .

ولم يفهم الحجاج مايقول ، فقال له : ويلك ماتعنى ؟ . فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك . . يقول « شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب ، فنحن نبيعها على وجوهها » . ومن ذلك قول بعض الشعراء يهجو أم ولد له :

أول ماأسمع منها فى السحر

تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

ولو أردنا أن نتتبع تحريف المفردات العربية عند بعض الذين تأثروا بعجمة أمهاتهم أو بتربيتهم ونشأتهم بين الأعاجم لطال بنا المقام .

وكل ماأردنا أن نخلص إليه ، هنا . هو أن هذا التحطيم لبعض المفردات العربية وهذا اللحن فى النطق من بعض الناس أفزع نفوس بعض علماء اللغة ورواتها كالأصمعى وأبى عمرو بن العلاء ، وابن الأعرابى وغيرهم من العلماء إلى حد دفعهم إلى الخروج إلى البادية ، والبقاء فيها مدة طويلة ليسجلواماينطق به أولئك الذين يحيون بعيداً عن مخالطة الأعاجم حتى حتى جمعوا من ذلك مفردات لاتحصى . . ثم أخذوا يستمدون منها معاجم كانت فى مبدأ الأمر تعنى بأسماء الإبل والخيل والظباء والسيوف والرماح . . وما إلى ذلك من أسماء الأشياء والأماكن . . من أودية ومياه وأشجار وأعشاب . . ثم تطورت إلى معاجم اللغة مما لايحتمل هذا المقام تفصيله ، كذلك دفع اللحن إلى وضع علم النحو على يد أبى الأسود الدؤلى ، على أن بعض العلماء يذهب إلى أن علم النحو ليس عربياً محضا . . . لكنى أعتقد أنه عربى خالص لأن ماتبقى من من الشعر الجاهلى يجرى على قواعد متقنة من علم النحو . . وقل مثل ذلك فى علم العروض . . لأننا نجد ماتبقى من الشعر الجاهلى يجرى كله على أوزان وقواعد لايكاد يشذ عنها إلا فى حالات نادرة .

ولاننسى أننا قد فقدنا آثاراً كثيرة من تراثنا العربى . . وقد يكون فيما فقدناه تفسير لكثير من الأمور اللغوية والتاريخية التى يختلف فيها العلماء ، مما يخلق كثيراً من الحيرة لدى كثير من الباحثين :

ومهما يكن من أمر ، فإن اللغة العربية الفصحى قد اجتازت كثيراً من الأزمات وخرجت منها كأقوى مايكون . . فانفتحت على ماجاءها من سيل هائل ، مما ترجم من اليونانية والفارسية والهندية وفى تلك اللغات علوم كثيرة كالهندسة والطب والفلك والحساب والفلسفة . . وما إلى ذلك من العلوم النظرية والتطبيقية ، وقد فصل ذلك مؤرخو الأدب تفصيلا لا مزيد عليه . . فكانت اللغة العربية فى نمو مستمر يوم أن كانت الأمة العربية تصنع الحضارة وتخفق فوق رأسها رايات النصر فى كل نواحى الحياة ، فلما توقفت عن المشاركة فى صنع الحضارة وخيم عليها ظلام الانحطاط عدة قرون ، ضعفت لغتها كما تضاءل تفكيرها لأن اللغة ، كما لايخفى ، وعاء للنشاط الفكرى والحضارى للأمة . وبقيت الأمة العربية على هذا الحال المؤسف حتى جاء مطلع هذا القرن وشاء الله لها أن تستيقظ . . وجدت نفسها أمام حضارة أجنبية انبهر منها بعض العرب إلى درجة جعلتهم يعتقدون أن اللغة العربية غير قادرة على تقبل مايجدفى حياتنا العصرية . . وقد أدرك الأجنبى هذا الانهزام فى بعض النفوس فأخذ يعززه بحجج صدقها بعض الناس . . لكن المخلصين الواعين تنبهوا إلى بطلانها وأنها ليست إلا سهاما تسدد إلى قلب هذه الأمة ، فإذا ماآمنت الأمة بضعف لغتها . فانه يصبح من اليسير على أعدائها تدميرها لأن وجود الأمة يكمن بالإيمان بلغتها ، وإذا بنا نرى من يدعو إلى اصطناع اللهجة العامية بكل صراحة أو وقاحة ، على الأصح ، بحجة أن هناك اختلافا واسعاً بين لغة الحديث ولغة الكتابة ، مما يخلق صعوبة شديدة فى تعليم الناشئة فى المرحلة الابتدائية والمتوسطة : فالطلاب يعانون عذاباً شديداً فى دراستهم الثانوية لأنهم يتعلمون باللغة الفصحى . وإذا كان هذا حال الطلاب فى المرحلة الثانوية ، فكيف يكون حال الطلاب فى المرحلة الابتدائية والمتوسطة ؟

ويعزى سبب ذلك إلى تعقيد الحروف الهجائية العربية . فكم يكون الأمر سهلا لوأتيح للطالب أن يكتب بلغة ، إن لم تكن هى لغة الحديث الشائعة ، فهى على كل حال ليست العربية الكلاسيكية القديمة ، بدلا من أن يجبر على الكتابة بلغة هى من الغرابة مثل غرابة اللغة اللاتينية بالنسبة إلى الإيطاليين ، أو مثل غرابة اللغة اليونانية القديمة بالنسبة إلى اليونانيين .

هذا بعض ما قاله أحد المتغرضين وعلى رأسهم (وطلم سبيتا) فى كتابه « قواعد العربية العامية فى مصر » . وقد أدرك هذا المخادع أن فى دعوته هذاخطراً حقيقياً على أقوى رابطة تربط بين العرب والمسلمين ونعنى بها الدين الإسلامى ، مما يثير عليه ثائرة الأمة ، فاحتاط لذلك قائلا : « وحتى ما يدعى بالوحدة بين الشعوب الإسلامية لا يمكن أن يقلقها تبنى لغة الحديث العامية إذ أن لغة الصلاة والطقوس الدينية الأخرى ستظل كما هى فى كل مكان » .

ومن الواضح أننا لوسلكنا هذا النهج فى تنفيذ هذه الدعوة المسمومة لباعدنا بيننا وبين لغتنا الحقيقة وتراثنا العظيم ، بحيث يجعلنا غير قادرين على تذوق ما فى لغتنا ، وتفهم ما فى تراثنا من نظريات عميقة وحلاوة وقوة وتعبير عن القيم والعواطف الإنسانية . فلولا محافظتنا على لغتنا العربية الفصحى وتقديرنا لتراثنا القديم لحدث انفصال تام عن أسلافنا من العلماء والشعراء والأدباء والمفكرين ... فنصبح أمة ناشئة بدون تراث ولا تاريخ .. فإن الفرد منا حين يعرف أن تاريخ أمته يضم علماء أمثال الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والكندى وثابت بن قرة والبيرونى وغيرهم من العلماء ، وحين يعرف أن أن تراث أمته يحتوى على شعراء أمثال أبى الطيب المتنبى وابن الرومى وأبى العلاء المعرى وأبى تمام وأمثالهم من الشعراء العظام . . ويحتوى على علماء فى التاريخ أمثال الطبرى وابن الأثير والبلاذرى وابن خلدون وكثير من أمثالهم يزداد ارتباطه ويقوى انتماؤه إلى هذه الأمة .

ومما لا يحتاج إلى توضيح أن معرفة الأسماء لا تكفى الفرد ، وإنما يحتاج إلى أن يطلع على آثار أولئك العلماء والشعراء ويتفهم آثارهم لتكون ثروته العقلية والفكرية مستمدة من تلك الآثار .

وليس من شك أن من يبعد عن اللغة العربية الفصحى ، كما يتمنى أعداء هذه الأمة فإنه لا يستطيع أن يغذى عقله من تلك الآثار العظيمة ، مما يجعل عقله فارغا يتقبل ما يغرس فيه من فكر أجنبى..وبذلك ينفصل عن أمته كل الانفصال . . وهذا أقصى ما يسعى إليه المستعمرون .

لذلك ، نجد المهندس الإنجليزى (وليم ولكوكس) ينفث سمومه قائلا : إن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو أنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى وأنهم لو ألفوا وكتبوا بالعامية لأعان ذلك على إيجاد ملكة الابتكار وتنميتها ...

وليس من شك أن هذا الماكر المتغرض لا يقصد المصريين فى هذا القول ، وإنما

يقصد جميع العرب ... ولكنه خاطب المصريين لانه يدرك بأن مصر لو استجابت إلى دعوته فإن أضرارها ستعم جميع الأمة العربية ، لما لمصر من مكانة عظيمة وتأثير قوى بين العرب والمسلمين . ولقد أراد هذا المهندس الإنجليزى أن يثبت أن اللهجة العامية قادرة على أن تكون ذات مستوى رفيع ، فمضى يترجم بعض قطع من روايات شكسبير ، ولكنه أخفق فى ما أراد إثباته من أن اللهجة العامية يمكنها أن تستوعب ما ينقل إليها من الأدب الرصين.. فجاءت القطع التى ترجمها مشوهة ركيكة (١).. كذلك كان حظه حينما حاول ترجمة بعض آيات من الإنجيل إلى اللهجة العامية (٢) :

وليس سبيتا ووليم وولكوكس هما الأجنبيان الوحيدان اللذان كشفا قناع عداوتهما للغة هذة الأمة وتراثها ودينها، وإنما كانا من أقوى الدعاة إلى المكر والتضليل .

ومن الغريب ، حقا ، أن هذة الدعوة الماكرة قد فتحت بابا واسعا دخل فيه ضعفاء الإيمان بتراث هذه الأمة ولغتها فأيدوها بحجج واهية ... هى تلك الحجج التى استند إليها سبيتا وولكوكس والقاضى مور وغيرهم من دعاة الأجنبى المستعمر ، كما دخله أقوياء الإيمان بتراث هذه الأمة ولغتها ودينها فنبهوا الناس إلى مافى هذه الدعوة المضللة من أضرار كبيرة .

والحق أن مؤلفة كتاب تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر قد ألمت بهذه القضية الخطيرة، كل الإلمام ، وفصلتها تفصيلا لامزيد عليه، مما جعل كتابها هذا مرجعا لايستغنى عنه فى هذه القضية . فالواقف على هذا الكتاب يجد أن هذة القضية قد تفرعت منها عدة فروع كثيرة :. لعل فى بعضها خير اللغة الفصحى .. من ذلك ، مثلا ماحدث من نشاط فى تأليف كتب النحو ، حاول فيه أولئك المؤلفون تيسير هذا العلم وتقريبه إلى الناس ، وكما كتب من بحوث فى كثير من العلوم والفنون وسائر جوانب الأدب ابتعد فيه أولئك الكتاب والمؤلفون عن التعقيد بحيث أصبحت آثارهم ميسورة يقرأها سائر الناس فيفهمونها كل الفهم ... وبذلك تنمو عقولهم وتتسع آفاق تفكيرهم .. ويقال مثل هذا فى بعض كتاب القصة الذين جربوا أن يكتبوا باللهجة العامية فرأوا أن هذه اللهجة لا تطاوعهم كما تطاوعهم الفصحى فى التعبير الفنى عما فى نفوسهم فأعلنوا رجوعهم عن هذه التجربة كما حدث للمرحوم محمود تيمور (٣) :

من هذا كله يتضح أن ليس كل من كتب باللهجة العامية خصما للهجة الفصحى ،

---

(١) تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها مصر ، للدكتورة نفوسة (ص ٥٥ - ٥٦) .
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص (٤٠٤) .

فإن هناك أناسا دخلوا هذه التجربة لاعتقادهم أن طريقها فى تثقيف الجماهير أقصر من طريق الفصحى ... وما زال بعض كتاب القصة يسلكون هذا هذا النهج مستندين إلى هذا الرأى .

وفى اعتقادى أنهم غير مصيبين ، فيما ذهبوا إليه ، لأنه لا يجوز إشادة ركن على حساب تحطيم ركن آخر ... فلو افترضنا أن طريق العامية أقرب إلى نفوس الجماهير من طريق اللغة الفصحى فإن علينا أن لاننهج هذا الطريق لعدة أسباب.. أولها : أن لكل قطر عدة لهجات .. فنى أى لهجة يكتب الكاتب .. بالإضافة إلى أن اللهجات العامية تتغير بصورة مستمرة .. فكلما انتشر التعليم اقترب الناس من اللهجة الفصحى ، مما يعنى أن كل من يكتب باللهجة العامية فإنه يكتب لقطر من الأقطار إن لم نقل لمنطقة من المناطق ، مما يجعل آثاره لا تصلح إلا لمدة يسيرة ولقطر معين ... ثم لا تلبث هذه الآثار أن تؤول إلى الاندثار ..

وما نظن كاتبا يقبل أن يكون عمر آثاره قصيرا .. فكل كاتب يسعى أن تبقى آثاره أطول مدة ممكنة يرجع إليها الناس ، ثم إن هناك أمرا أهم من كل ماذكرناه وهو : أن اصطناع اللهجة العامية يعارض الوحدة العربية .. وهو أمل يسعى إلى تحقيقه كل مخلص لهذه الأمة .. ذلك أن اصطناع اللهجة العامية يعمق التجزئة ويقوى الدعوة الإقليمية ..

فنحن نعلم جميعا أن اللهجة الفصحى مفهومة لدى كل عربى من المحيط إلى الخليج .. وأنت إذا وقفت على أى أثر باللهجة الفصحى أدبيا كان أو غير أدبى ، فإنك لا تستطيع أن تعرف ما إذا كان كاتب ذلك الأثر سوريا أو عراقيا أو خليجيا أو مغربيا ، لأن الفصحى لهجة واحدة لا يوجد فى من يكتب فيها أى تمايز أو اختلاف إلا فى حالة نادرة لا تكاد تذكر ..

ثم إن هناك تجربة قامت بها مؤسسة الإنتاج البرامجى المشترك لدول الخليج العربى ، وتتلخص هذه التجربة فى أنها أعدت برامج تلفزيونية للأطفال باللهجة الفصحى وأرسلوا بعضها إلى تونس ومصر وسوريا والعراق والخليج ليعرفوا مدى تقبل أطفال هذه الأقطار العربية وفهمهم للهجة الفصحى.. فجاءت النتائج مبشرة سارة بحسب ما يقوله المشرفون على هذه المؤسسة .. فقد بلغت حوالى ثمانين فى المائة ، مما يؤكد أن اللهجة الفصحى هى اللهجة الصحيحة المقبولة فى جميع البلاد العربية .

فالخير كل الخير أن تعود الجماهير على للهجة الصحيحة ، محتملين كل ما يقف أمامنا من عقبات، فإن فى ذلك تعزيز

لأهم ركن يستند إليه وجودنا ونعنى به لغتنا ، لغة القرآن :

ومن المؤلم ، حقا ، أن نجد بعض المدرسين يصطنعون اللهجة العامية المحلية تعليمهم للطلاب ، مما يجعل الطالب ضعيفا أشد الضعف إذا أرد أن يعبر باللهجة الفصحى :: ولعل هذا النهج يفسر أسباب ضعف الطلاب فى قواعد اللغة العربية : أما ما يقال عن وجوب العناية بـ« الأدب الشعبى « فولكلور » والمحافظة عليه .. ذلك الأدب الذى يرتكز على اللهجات العامية ، لأنه مصدر هام لكل باحث فى علم الاجتماع والتاريخ بمعناه الواسع :: فإن الجواب على ذلك هو أن هناك فرقا كبيرا بين العناية بالأدب الشعبى والمحافظة عليه وبين تنميته وتغذيته .. فالمحافظة على ذلك الأدب تعنى تسجيله فى كتب تخصص لذلك يكون مرجعا للباحثين ، على أن يكون تسجيل هذا الأدب مقصورا على الشعر الذى صدر قبل نصف قرن من الزمن أو أقل بقليل ، لأن الأمة العربية بدأت صحوتها فى تلك المدة أو قبلها بقليل .

والمقصود من دراسة هذه الناحية من من الأدب هو معرفة ما عليه حالة الأقطار العربية من الناحية الاجتماعية قبل أن تنفتح على الحضارة العصرية .. ولكن الذى يجرى فى معظم البلاد العربية — إن لم أقل فى جميعها — هو أننا ننمّى الأدب الشعبى ونُعنى به بما يقرب من عنايتنا بأدبنا الذى يرتكز على اللهجة الفصحى .. فالمطابع مازالت تنشر الدواوين التى ينظمها الشعراء بمختلف اللهجات العامية ، والصحف تعلق عليها وتنوّه بها مثلما تنوّه بالشعر الذى يعتمد ناظموه على اللهجة الفصحى : بل إن معظم الأغانى العربية تعتمد على الشعر العامى ..

ومن الواضح أن للموسيقى قدرة عجيبة على ترسيخ ما يُغَنّى به فى النفوس .: ولست أبعد عن الصواب إذا دعوت إلى دراسة هذه القضية الهامة دراسة دقيقة من قبل لجنة تخصص لهذا الغرض ، لكى تتوصّل إلى قرار مدروس فيه تعزيز للغة الفصحى .. فإن فى ذلك أجل خدمة لهذه الأمة العظيمة .

عبد الرزاق البصير

عضو المجمع المراسل من الكويت

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٩/٢٠٢



مطابع الشركة القومية للتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

محسن محمود بهجت